



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

قليل من الحب
كثير من العنف

فتحى غانم

كلمة لابد منها

احداث وأشخاص هذه الرواية من صميم الواقع المصرى كما عاصرته فى نهاية السبعينيات • وما سجلته فى الفصول القادمة اعتمدت فيه على وقائع كنت شاهد عيان لها ، الا انى اضطررت الى تغيير الاسماء والمواقع الجغرافية ووظائف الناس وذلك حتى لا أتعرض لمساءلة قانونية أو أدبية لا مبرر لها •

وعلى اية حال • شخصية النائب العام فى هذه الرواية ، تقوم مقام شخصية حقيقية كان لها سلطة ونفوذ ، واما محافظ الاسكندرية ومدير الأمن بها ، فكلاهما يمثلان ـ فى الرواية ـ شخصيتين كانا فى الواقع على نفس الدرجة من الأهمية ، ولكنهما بعيدان تماما عن جهاز الشرطة كذلك المهندس « طلعت فرج » ابن المليونير او « الأسطى » أو « الحاج مرسى فرج » بديل مناسب تماما لشخص حقيقى من رجال الأعمال لا صلة له بالهندسة ، ولكنه ايضا ابن مليونير وأسطى وحاج •

وكذلك « المنولوجست » زكريا والد « فاطمة » كان فى الواقع يعمل فى مهنة أخرى لها صلة بالفن ، ولكنها بعيدة تماما عن فن المنولوج •

واعترف انى ارهقت نفسى ، وبذلت جهدا مضنيا لتغيير الاسماء والوظائف والأماكن •• وكم كنت اتمنى لو سمحت الظروف بان اروى الوقائع الحقيقية ، او كان القانون يسمح بذلك •••• وكم كنت اتمنى لو أن بين البشر من يجدون فى انفسهم القدرة على مواجهة الناس والاعتراف بما ارتكبوه واقترفوه من جرائم وآثام

لعل الناس تاخذ من اعترافاتهم وتجاربهم عظة وعبرة ، وعندئذ ما كنت اجد انى فى حاجة لأن احكى ما سوف ارويه •

واطمئن القارىء الى انى ساقدم له ما لدى من معلومات فى اقصر وقت ممكن • كما اريد أن اقول لمن يريد ان يتابع احداث الرواية ، انه سوف يتورط الى حد كبير معى ، لأنه سوف يشاركنى بالقراءة فى كتابة الرواية ، وسوف يكمل بخياله او افكاره ، أو ردود افعاله ، ما لم يستطع الكاتب ان يقدمه ، من احكام على سلوك الأشخاص وتصرفاتهم ، ذلك لانى حريص على أن تكون العلاقة بين الكاتب والقارىء قائمة على الحرية الكاملة ، ولا اريد أن أفرض احكاما على أحد ، فاقول هذا طيب وذاك شرير، وهذه بنت عفيفة ، وتلك فاجرة • ولقد كانوا فى الماضى يقولون « المعنى فى بطن الشاعر » حتى يحتفظ كل متلق للشعر او الفن والأدب عموما بحريته فى اختيار المعانى والأحكام التى يريدها • ومن هنا تكون قراءة هذه الرواية عملا يشترك فيه القارىء مع الكاتب وقد يتورط فى القراءة ، بينما هو يسعى الى تسلية او متعة لا تكلفه أى قدر من العناء •

وما حيلتى ، وما سوف ارويه يحذرنا من الحب ، ويقول لنا ان حياتنا لم تعد تحتمل الحب • فهو اخطر على حياتنا من العنف ولذلك نحن نحيا فى عصرنا الحالى ب « قليل من الحب وكثير من العنف » فالى الذى يهمه أن يعرف المزيد ، ويجد فى نفسه الرغبة فى مشاركتى •• فى الوصول الى هذه المعرفة • اقدم له تلك الأحداث بحذافيرها ، كما وقعت بلا زيادة او نقصان •

ف • غ

الفصـــل الأول

انطلقت السيارة الجيب بالرجـال الثلاثـة مندفعـة بهم فى طريق الأسـفلت الممتد بحـذاء شـاطىء البحر متجهـة بهم من معسـكر شركة « امارکو » للبترول ، القريب من العلمـين الى الاسكندرية ، رحلة اعتادوا القيام بها فى الخميس الأول من كل شهر عائدين الى البيت والأهل .

واذا كان لنا ان نصـدق ما يقال ان الناس تصنع أقدارها بنفسها ، وانها تندفع الى مصيرها بوعى او بغير وعى بما تكسب او تختار من مواقف فى الحيـاة ، فلا شك ان هذا يصـدق تماما على هؤلاء الرجال الثلاثة فى العربة الجيب . المهندسان طلعت مرسى فرج ، ويونس عبد الحميد صفوت والسائق سيد العتر . ثلاثـة عوالم مختلفة ، ثلاثة اكوان متباعدة ، ولكنها توشـك أن تصطدم فى حركتها ، ويحدث بينها الاحتـكاك الذى يتحول الى انفجـار وحريق كبير .

كيف يصنع الرجال بأنفسهم هـذا الذى لا يخطر ببال ، اية قوى تدفع النفس البشرية فتحولها الى كائن مفترس تتوارى منه خوفا ، أو ربما خجلا ، الحيوانات الضارية الجائعة فى الغاب .

كانوا ثلاثتهم صامتين ، كل واحد منهم مشغول بهذا الذى يعتبره سرا لا أحد غيره يعرفه ، وهو لا يدرى ، ان هـذا السر الذى يتوهم أنه من صميم خصوصياته ، سـوف ينفجر فى لحظات قادمة فتنفذ شـظاياه فى لحم الاثنين الآخرين الجالسين معه فى الجيب .

كان المهندس طلعت مرسى فرج ، فى الرابعة والعشرين ، ربعة . أسمر ، له وجه مربع ، رقبتـه قصيرة ، يكاد رأسـه الضخم يلتصق بكتفيـه مباشرة عينـاه سـوداوان زنجيتـان مثل شفتيه الغليظتـين فيهمـا جوع أو نهم الحرمان او شـهوة ، مخبره مثل مظهره ، فهو أكول ، كان ايام التجنيد يأكل الزلط ، ويتنافس على اكل الطعـام ويختطفه من رفاقه المجنـدين ، ويبتلعه بما فيه من صراصير ، يقال انه كان يتعمد دسـها فى الطعام لينفر الجميـع منه فيستحوذ عليه ، وكان اذا اكل بحث عن جسـد المرأة ، فاذا افرغ طاقته ، عاد يبحث عن الطعـام من جديد . ومازال حتى الآن يمارس نهمه فى تلك السهرات التى يقيمها فى خيمته بالمعسكر ويدعو اليها مستر كلارك الخبير الأمريكى ، اذ يوصى السائق سيد العتر بأن يجلب معه من الاسكندرية كميات هائلة من الجمبرى والكابوريا يقزقزها بينما يصيح مستر كلارك أنه اذا وقعت مجاعة فى مصر فسيكون المسئول الأول عنها هـذا الـ « صـن او .. بيتش » طلعت . فكمية الطعام التى يبتلعهـا كانت تكفى لاطعـام فصيلة « الكابتن كلارك » يوما بأكمله فى فيتنام .

ابطأت الجيب ، لان سائقها سـيد العتر راى امامه قطيعا من الجمال تعبر طريق الأسفلت متجهة الى شاطىء البحر . والتفت طلعت الذى يجلس بجوار سـيد ، يبحث بعينيه عن قائد الجمال والتقت عيناه بالمهندس يونس عبد الحميد صفوت جالسا فى المقعد الخلفى ، وابتسم طلعت ، كان الخوف باديا على وجه يونس ، ذلك الوجه الشاحب ، وجه الولد البنت ، وجه ابن الأتراك الأهبل، انه ليس خائفا فقط من اصطدام العربة بجمل شارد ، انه خائف لانه يحمل معه رغبة طلعت فى ان يقابل والده عبد الحميـد بك صفوت . النائب العام . ليطلب منه يد ابنته ، شقيقة يونس ، زوجة له . مسكين ، انه مرتبك لا يدرك ماذا يفعل ، ولكنـه لن يستطيع أن يرفض ، الملايين التى يملكهـا طلعت سـوف تنتصر تنتصر وتزيح كل العقبات . ولولا أن هذا الولد هو ابن النائب

العام ، ولولا أنه شقيق تلك البنت سارة التى يريدها مهما كان ثمنها فى سوق الزواج ، لكان له شأن آخر مع يونس هذا . ربما كان هجم عليه فى ليلة من تلك الليالى فى الصحراء وفتك به . وربما كان ساعده الخواجة كلارك ، وسيد العتر أيضا . فمنذ أن رآه لأول مرة ، وهو كمن يريد أن ينتقم منه ، كأن بينهما ثأرا قديما ، أنه سخيف ، وسخافته بلا حدود . ناعم مثل الأنثى شعره طويل ينسدل على كتفيه ، يداه تتحركان فى رخاوة ، جسده طرى ، لا عضلات . ربما كان غلاما شاذ ، من يدرى ، لم يذهب للتجنيد لأنه الولد الوحيد لأبيه ، ولكن اباه النائب العام كان سيعفيه من التجنيد حتى لو كان له عشرة اشقاء ، انه يقسم بشرفه ان يونس هذا كان أنثى لولا أن تدخلت ظروف غير طبيعية ، فحدث خطأ ما فى تفاعل الهرمونات فى رحم السيدة امه ، أدى الى احداث تحوير فى اعضائه فى آخر لحظة فولدته ذكرا ، ومن يدرى فقد يثبت فيما بعد انه كان بنتا ، فيجرون له عملية مثل تلك العمليات التى يقرأ عنها فى الصحف عن رجال تحولوا فجأة الى نساء .

لا شك أن طلعت فرج يكره يونس صفوت ، ولا شك ان هذه الكراهية بدأت منذ رآه لأول مرة ، عندما مر عليه هو وسيد العتر ليأخذانه من فندق « سيسل » الى معسكر « أماركو » قال له سيد العتر ان الادارة طلبت منه أن يمر على المهندس الجديد ويأخذه معه فى العربة التى تعود بالمهندس طلعت الى المعسكر . كان سيد يبتسم ساخرا أو محذرا ، اذ قال ان المهندس الجديد هو ابن النائب العام عبد الحميد بك صفوت . واردف معلقا على ذكاء الخواجات فى شركة « أماركو » فوجود ابن النائب العام معهم فى الشركة يضمن لهم اشياء كثيرة . كانت مع يونس فى بهو الفندق بنت جميلة ، سبحانك ربى الخلاق المصور ، كيف تصنع مثل هذه المخلوقات ؟ ارتبك طلعت أمام نظرات البنت ، بدا فى عينيها شىء من التعالى .. وعندما مالت على اذن يونس وهمست له ، وهى تراه قادما نحوهما ، أيقن أنها تقول عنه كلاما فيه سخرية به ،

كلاما جارحا ، عيناها فضحتا ما تهمس به ، ومنذ تلك اللحظة وهو يكره يونس ، أما هذه البنت فقد تركت فى نفسه جرحا تسيل منه مشاعر لا يستطيع ان يسيطر عليها او يحاصرها ، او حتى يحدد لها معنى . ولكنها على اى لا صلة لها بمشاعر الكراهية ، لأنه أرادها فريسة ، او غنيمة ، او جائزة يفوز بها . انك لا تكره فريستك ، حتى وانت تدبر وسيلة اصطيادها . ومنذ اللحظات الأولى اخذ احتياطات الصائد ، حجب عن يونس حقيقة انه متزوج ، حتى وهو مازال يظن ان البنت خطيبة ليونس ، او ربما زوجته . وكان قد فحص اصابع يونس بحثا عن دبلة خطوبة او زواج فلم يجدها ، ولكنه هو أيضا متزوج ولا يضع فى اصبعه دبلة . كان لا يريد ان يعقد مقارنة بين تلك البنت وزوجته فاطمة . كانت البنت ترتدى بنطلونا محزقا أسود فوقه بلوزة حمراء ، لها عينا قطة رومية ، شعرها احمر منفوش ، « كدش » متوهج ، كأنه لهب مندفع من جسدها المشتعل بالأنوثة الى راسها عندما سأل يونس وهما فى السيارة هل هى خطيبته ، سمع النبأ الذى فتح له الطريق الذى يمضى فيه الآن ، انها شقيقة يونس . أرض معروضة للبيع ، قال لنفسه ذات مرة وهو شارد بعينيه فى خلاء الصحراء .. لماذا لا اعترض طريقها عندما أعود الى الاسكندرية وما تكاد ترى الجاجوار حتى تركبها ويتم المراد . وانتظر الخميس الأول من الشهر ، وهو يراجع بخياله مشهد ركوبها بجواره .. تتتابع المشاهد حتى ينالها ، وقد يتذكر فاطمة زوجته التى ولدت له محاسن منذ عامين ، لا وجه للمقارنة بين فاطمة مهما كان جمالها ووسامتها ، وتلك اللهلوبة المتحركة المعجونة بماء العفاريت .

عندما اعترض طريقها فى شارع صفية زغلول ، قالت له انها لا تستطيع أن تركب معه سيارته الجاجوار ، ولما رأت الجوع فى عينيه قالت له بهدوء قاتل انها تذكره بأن اباها هو النائب العام وأن ما يفعله قد يؤدى به الى السجن .. كاد أن يقبل التحدى ، ويهجم عليها وليكن ما يكون لولا انه تذكر ثروته ، وتذكر كلمات لأبيه الحاج مرسى فرج عندما سمع نبأ تعيين ابن النائب العام

شركة « اماركو » فبرق فى رأسه خاطر انه يستطيع ان ينفذ الى البنت مباشرة عن طريق النائب العام نفسه ٠ ولو بطلب يدها للزواج ، كان الحاج مرسى يشجع ابنه طلعت ويطمئنه ، وهو يهز راسه ببطء قائلا له ان اولاد البكوات والباشوات لا يساوون الآن فى مصر بصلة ولا فجلة ، كلهم شحاتين ، فماذا يكون مرتب وزير او نائب عام ، خمسمائة جنيه ٠٠ ستمائة ، سبعمائة ، الف فى الشهر ، ابوك يعتبر يومه أغبر لو كانت غلته اضعاف هذا المبلغ ٠

لم تخبر « سارة » شقيقها يونس بمحاولة طلعت ٠٠ ماذا كانت تقول له ؟ انه عرض عليها أن يوصلها بسيارته الى المكان الذى تريده ٠٠ او انها توهمت أن فى عينيه رغبة فى جسدها ٠٠ !!

عندما عاد يونس من الحفار داخل البحر بعد غيبته اياما ٠ دخل عليه طلعت الحمام عريانا ، وفزع يونس كانه ليس رجلا انه يخجل من ذكورته ، يخجل من جسده ، ودعاه طلعت الى خيمته ودعا مستر كلارك ، واحضر سيد العتر الجوزة ، وبذل يونس جهدا يائسا ليكركر ويأخذ الأنفاس التى كان يخرجها بسرعة من فمه قبل ان يبتلعها فى جوفه ، كان يبدو عليه القلق والتوتر ولم ينتش ، ولم يفقد نفسه ولو لحظة واحدة ، ولم يشتم ، ولم يندمج فى صحبة او محبة ، انه لا يعرف معنى المعاشرة ، ليس فيه ما يدل على أنه من جنس بنى آدم وان أباه آدم وأمه حواء ، كلارك كان ينزعج منه ٠ ورغم أن يونس يجيد الانجليزية التى تعلمها كما يبدو فى المدارس الأجنبية منذ الصغر ، وينطقها وكان أمه انجليزية الا ان كلارك كان لا يستريح للحديث معه ، ويفضل ان يتحدث مع طلعت الذى يكاد يفك الخط بالانجليزية ، ولكنه استطاع ان يعلم كلارك مفردات كثيرة من العربية العامية « النبى عربى يا خواجة » و « خللى البساط احمدى » و « الاشيا معدن وكله السطه وآخر برمجة » و « عسل يا خواجة ٠٠ سكر عسل » والخواجة يحاول أن يتعلم ، ويقلد طلعت ، ويردد هذه التعبيرات كالببغان وهو يضحك ويهتز بجسده الضخم ، وينسى نفسه ، أو ينسى انه خواجة

قادم من أمريكا ، حتى يفسد يونس كل هذا بلغة المرحوم شكسبير ، فيضج مستر كلارك ويقول ليونس متهكما انه يخيل اليه أنه يعرف الانجليزية أكثر منه ، ورغم غيظ كلارك الواضح الا أنه لم يشتم يونس أبدا ، فهو لا يشتم الا الصديق ، ولذلك يتبادل الشتائم مع طلعت ، معبرا عن قمة الصداقة والاندماج والانسجام ، لا حواجز ولا قيود ولا ام ولا أب ولا أى شيء ٠٠ فوق الصداقة والجدعنة ٠ كلارك يمنح طلعت الشتائم المنتقاة « صن أو بيتش » ابن الفاجرة ٠ ويرد عليه طلعت « ستين صن أو بيتش » ستين ابن فاجرة ٠٠ كلارك خبير امريكى جدع ومجرم ، يفهم فى كل شيء ، خبير فى أنواع المخدرات ، مثلما هو خبير فى انواع البترول ودرجاته ٠

اما اذا قال طلعت نكته بذيئة ، رد عليها كلارك بعشر نكات أشد بذاءة ، فالمنافسة بين طلعت وكلارك تشمل النكات والشراب والحشيش والمرأة حتى عندما حكى طلعت ذات مرة لكلارك عن تجربة شذوذ جنسى مارسها وهو مراهق فى ورشة ابيه الأسطى مرسى فرج مع صبى فى الورشة ، وجد كلارك يحدثه عن تجاربه فى هذا المجال فى فيتنام ، ولما عرف كلارك أن سيد العتر كان يعمل صبيا فى ورشة الحاج مرسى فرج ، سأله ضاحكا اذا كان هو الصبى الذى تحدث عنه طلعت ، فلعنه سيد ، وشتمه باقذع الشتائم وتماسكا بالأيدى ، ثم تصالحا ، بالأمس أقام طلعت سهرة فى خيمته دعا اليها يونس رغم اعتراض مستر كلارك وسيد العتر ، كان لابد وان يحاول مرة أخرى الاقتراب من يونس ، وكان قد صارحه بأنه يريد مقابلة والده ، وانه يريد أن يخطب شقيقته ٠ كان يونس يقبع فى الخيمة كاللقمة فى الزور ، وانطلق طلعت يتحدث عن أمجاد أبيه الحاج المليونير ، ليكتسح يونس ، وليقول له ان طلعت ابن رجل لا يقف ندا للنائب العام ، بل هو أكبر من ذلك ٠٠ هو ند لرؤساء وكبار ٠٠ فهو الذى تولى الانفاق على استقبال الرئيس نيكسون فى الاسكندرية ، لأنه كان يعلم أن مجيء نيكسون لزيارة مصر يعنى أن القرش سوف يجرى بين الأيدى ٠

وأن العجلات سوف تجرى فى الطرقـات . فاذا ما جرت النقود وجرت العجلات انتعشت احوال الناس ، ودالت دولة الأفنديات والموظفين من صغارهم الى كبارهم ، فهم الذين اساءوا الى البلد ، ونهبوها وسرقوها ، وجلبوا عليها الخراب والنحس ، ثم جلسـوا على تلها . اقام الحاج سرادقات ، وجاء بمقرئين ، وذبح العجول ثلاث ليال تمتد من السرادق عند سيدى أبى الدرداء ، حتى نهاية شارع صلاح الدين عند الترام ، وحيث توجد الورشـة الأصلية ، ورشة الأسطى مرسى فرج الميكانيكى ، الذى خرج منها غازيا ليتبوأ عرشه معلما ومليونيرا ، وسـيدا صاحب كلمة . يقابله الرئيس الأمريكى فيشكر له صداقته الثمينة التي يحرص عليها لأمريكا .

كان طلعت لا يكف عن الحديث .. يريد أن يغسل مخ يونس .. ان اباه اقوى فى هـذا البلد من النائب العام ، واقوى واهم من اى وزير فى الوزارة .. المـال فى يده يتيح له أن ياكلهم جميعا .. الوزير لا يركب المرسيدس الجديدة ، والجاجوار الجديدة ، كان طلعت مع أبيه الحـاج وهو يشترى من المصنع فى المـانيا ثلاث عربات مرسيدس مصنوعة خصيصا له ، كان مدير المصنع يقف فى انتظارهما عند البوابة ، يستقبلهما طبعا استقبالا يفوق استقبال الذى يعده لرئيس وزراء فشتان بين استقبال زبون يشترى ، ورئيس وزراء جاء ليقترض ، متسـول يبحث عن قرض بلا فائدة أو منحة بلا مقابل ، كان حـديث طلعت محموما ، لأنه يعبر عن مشاعر غامضـة لا يستطيع تحديدها عندما تهاجمه ، وكان يواجهها بأن يقول لنفسه ان المـال سـوف يشترى سـارة ، وانه واثق من ذلك ولكنه فى الحقيقة غـير واثق لأنها امرأة من نوع غـير الذى يعرفه .. نوع غير امه ، وغير شقيقاته ، وزوجات أشقائه ، وغير زوجته فاطمـة ، بنت بحرى ، الداهيـة المـاكرة ، التى تلعب بالبيضة والحجر ، وهى تبدو ساكتة ساهته ، انه ليس فى حاجة الى مكر وشطارة فاطمة وليس فى حاجة الى حبها .. وليس فى حاجـة الى ابنتها محاسـن .. انه يريد ان يكون له ولد .. وعندما يأتى هـذا الولد فستكون امه امرأة من تلك العينة التى تمثلهـا

سارة ، بشرط ان تكون شريفة طبعـا . والظواهر تدل حتى الآن ان سارة شريفة .. رغم ملابسها وكدشها الأحمر ، ربما هى شريفة بالرغم منها .. لأنها موضـوعة دائما تحت الحراسة والرقابة ، ولكن هـذا هو شأن كل النساء .. ناقصات عقل ودين ، ولا امان لهن ، على أية حال الدنيا تغيرت ، وكما انتقل المـال الينا ، لابد ان تنتقل الينا النسـوان ، ولن تجد سارة ، أخت هـذا الحيوان يونس ، من هو خير منه ، مالا وصحة وشبابا ، وفاطمـة ليست مشكلة ، لا هى ولا ابنتها ، ولو صممت سـارة على أن تكون وحدها بلا ضرة فسيطلق فاطمة ، ويترك لها محاسن تتسلى بها ، ولكن لا داعى لأن يستطرد مع هـذه الخواطر قبل أن يصـل الى نتيجة مع شقيقة يونس ، آه منكما أنت وشقيقتك . كانت دهشـة يونس فاضحة ، لم يصـدق اذنيه ، وهو يسمع ان طلعت يريد مقابلة والده ليتقدم لخطبة شقيقته ، ولكنه استطاع ان يكتم انفعاله ، ولم يترك له طلعت الفرصـة ليبدى رايه ، قال له : ألا شأن له كل المطلوب منه أن يعد اللقاء مع والده .. وانه لا يريد وساطته ، فهو ليس ابن رجل نكرة ، ولا يطلب مساعـدة ولا معونة ، بل هو يتقـدم ليغدق ، وليفتح أبواب خزائنه لمن يسعدها الحظ ويقع اختيـاره عليها . قال ليونس ، اذا كان هنـاك كلمة لابد ان يقولها .. فلتكن ان هـذا العريس القادم اليكم ، يستطيع بكلمة واحدة .. ان يضع مليونا من الجنيهات باسم عروسه فى نفس اللحظة التى تعلن موافقتها على الزواج به . وفتح يونس الغبى فمه ليقول كلاما خائبا . قال أنه لا يظن ان المـال هو الذى يغرى شقيقته فعاجله طلعت بطلبه الحاسـم ، الا يتدخل ، والا يصـدر احكامه ، وأن يترك الشأن لأصحاب الشأن ، وشعر طلعت انه مقبل على التعـامل مع مخلوقات غريبة ، كل ما يتوقعه منهم اذا كانوا على شـاكلة يونس ، هو العجز والنحس ، والذهول الذى يضرب على عقولهم .. ويشل حركتهم .. ان يونس هذا له رائحة عطنة تفوح من عقله .. كم يكرهه ، سحقا له . ولأبيه ولشقيقته ، ربما يأتى يوم يقول

قيه للنائب العام .. ابنك شاركني سهرات الحشيش ، وسوف ينسحق الرجل ويسقط من طوله اذا كان مثل ابنه ، لأنه يشعر بأن ابنه ارتكب الجريمة ، ثم يعجز عن التصرف ، لأنه لن يتهم ابنه ويحاكمه بقانون العقوبات .. انهم يرتكبون جرائم ولا يتمتعون بها ، يرضخون للجرائم وهم خائفون من رفضها ، انهم نفاية البشر . ولسوف يأخذ سارة منهم يتمتع بها ، ويرغم انوفهم كسيد لها .

سمع صوت سيد العتر يعلن أن البنزين يوشك ان ينفد .. ولابد أن يدخل بلدة الحمام ليزود السيارة بالبنزين .. فانهال طلعت عليه سبا وشتما ، كيف يحتمل ان يتأخر وصوله الى الاسكندرية .. انه يتعجل الوصول الى سارة .. يتعجل الأحداث، ولا يهمه ان فاطمة هى التى تنتظره الآن فى بيتهما بالابراهيمية ، لا يهم ان يتأخر عنها الف يوم ، فهى لن تمل انتظاره ، وهو يعرفها جيدا ، فاطمة السهتانة ، اللئيمة اللذيذة .. مثل المهلبية ، انه يريد جسدها الذى غاب عنه ، جسدها الذى اعتاد عليه ، اما سارة ، فهى مصيبة حارقة ، شخصية طاغية ، سوف يجد متعة لا حدود لها ، وهو يتحداها ويصطادها .. ويقتنيها .. سوف يقتحمها ، فى حصنها ، حصن النائب العام ، بالسيارات ، والمجوهرات وارصدة البنوك سوف يكتسحها ببولدوزر لا يقاوم ، فمن الذى يقاوم هذا المال .

زعق طلعت فى سيد ..

— هل جننت .. أتدخل الحمام لتعطلنا .. سوف اقتلك يا حيوان ..

الفصل الثانى

اما يونس ، فاوشك ان يقول ، انه سيتاخر عن قطار الخامسة المسافر الى القاهرة ، ثم عاد وسكت ، واستانف مراقبته لأمواج البحر الهائجة المتلاطمة مع الصخور بحذاء الشاطىء .. تتدافع نحوه قطعان من الخيول البيض ، فى سباق محموم يذكره بتلك المتابعات الموسيقية التى حاول ان يسمعها فى ليالى الصحراء ، فسخروا منه . كم يسعد بان يقضى اسبوعا بعيدا عن

طلعت وهذا الثعبان اللزج سيد العتر .. كم يسعد لو انه هبط من السيارة الآن ، واتجه مباشرة الى البحر فاحتضنته هذه الأمواج وحملته بعيدا الى اى مكان فى العالم ، بعيدا عن امثال طلعت وكلارك وسيد العتر ، ولكن ها هو طلعت يريد أن يلاحقه .. يريد ان يقابل والده فى الاسكندرية أو القاهرة .. ان طلبه محال ، سارة سخرت من طلعت عندما رأته ، قالت : انه قد يكون جزارا أو حلاقا، او اى شىء .. الا ان يكون مهندسا . اى ربكة سوف يعانى منها يونس بعد ان يسمع طلعت الرفض . ولكنه وقح ، وصفاقته تستحق ان تجد من يشكمها .. انه دائما يتورط بسبب تعامله مع هؤلاء الأشخاص ، خاصة أمثال طلعت ، وان كانت صفاقته لا تخلو أحيانا من طيبة ، وطموح قوى كأنه طموح أطفال ، انه بكل تأكيد انسان غير مستقر .. اهوج الى ابعد حد .. ولكنه بكل تأكيد له نفوذ ، وثراؤه مخيف .

كانت اول مفاجأة ليونس ، عندما جاءه طلعت وقدم له نفسه

باعتباره مهندسا اقدم منه فى شركة « اماركو » ٠ لقد خدعه والده النائب العام ، فهو يتذكر كلماته التى قالها له امام والدته فى فخار وزهو شديدين ، انت يا يونس اول مهندس مصرى يعين فى الشركة ، الأميركان والطليان رحبوا بك ٠٠ ٠٠ وكانوا مهتمين جدا عندما عرفوا أن لى ابنا اريد تعيينه فى الشركة ٠٠ قبلوا على الفور بترحاب شديد ٠٠ اول مرتب خمسمائة جنيه فى الشهر سيصل خلال ستة شهور بالمكافآت الى ثمانمائة جنيه ٠

كانت زهيرة هانم فى غاية الانبهار بالانجاز الذى حققه زوجها سعادة النائب العام ٠٠ شىء تستطيع ان تزهو به ، وان ترويه فى جلساتها ، فتقهر العوازل ، وتفقأ عيون الحساد ، وتصور يونس انه الفارس الأوحد ، المنتصر الذى فتح عكا ٠ وفى خلال لحظة واحدة ، تبخرت الاوهام ٠٠ فقد اكتشف ان مهندسا مصريا من نفس دفعته من جامعة الاسكندرية قد سبقه بثلاثة شهور على الأقل ، ومن هو انه ابن المليونير مرسى فرج ، الذى كان منذ سنوات قليلة ميكانيكيا له ورشة لاصلاح السيارات فى شارع صلاح الدين ٠ كيف تفوق ابن الميكانيكى على ابن النائب العام ، كيف وصل طلعت الى شركة « اماركو » قبله ، آه لو عرفت زهيرة هانم بكل عظمتها وفخامتها كسيدة مجتمع ،ان هذا الولد طلعت ، اقتحم الشركة الأميركية الايطالية قبله ، وان أباه لا يتحدث عن وزراء ومحافظين ، بل يتحدث عن علاقات على مستوى رؤساء دول ورؤساء شركات عالمية ودولية ٠٠ هل جاء طلعت الى هذه الشركة بنبوغه ، مستحيل ٠٠ لأنه ليس من أوائل دفعته ٠٠ قال صفوت بك فيما بعد ، فيما يشبه الاعتذار له ، من ناحية وما يشبه اللوم له من ناحية أخرى ٠٠ لانه يحرجه ويربكه بأسئلته ٠٠ انه تحرى الأمر ٠٠ فعرف ان المليونير مرسى فرج والد المهندس طلعت زميله فى الشركة ، له صلة برئيس مجلس ادارة شركة اماركو الايطالى ، تعود الى أيام كان المعلم أو الأسطى فرج يعمل صبيا فى ورشة السنيور ماركو وشريكه السنيور ديلانى ٠ وقد انفصل ديلانى عن ماركو عام ١٩٣٥ منذ حرب ايطاليا والحبشة ، وترك ماركو الورشة

للأسطى فرج عندما اعتقل أثناء الحرب العالمية الثانية ٠٠ ولكن الأسطى فرج لم يستولى على الورشة الا فى أيام عبد الناصر عندما ترك الأجانب البلاد بعد موجات التمصير والتأميم ٠

والآن عاد ماركو الى الاسكندرية مستثمرا فى البترول ٠٠ وكان اول مكان زاره هو ورشته القديمة ، واول شخص التقى به فى الاسكندرية هو المعلم مرسى فرج ٠ الذى حصل فى الحال على كل عمليات النقل والصيانة لشركة أماركو ، ليتحول فى بضع سنوات الى واحد من أكبر أثرياء الاسكندرية بل مصر كلها ٠٠ وكان ابنه طلعت هو اول مهندس مصرى يعين فى الشركة ، فدخلها وكأنه احد اصحابها ٠٠ فالكل يعلم فى الشركة ٠٠ ان الذى امر بتعيينه ٠٠ هو صاحبها ، ورئيس مجلس ادارتها السنيور ماركو بنفسه ٠

حاول يونس ان يصاحب طلعت ، اراد ان يتفاهم معه ٠٠ ان يقترب على الأقل منه ، ولكن طلعت حيوان بدائى ، حيوان بمعنى الكلمة ، مندفع بلا حدود لا انضباط ولا تربية ، لا صلة له بالتهذيب والأدب ، يفعل ما شاء ، تخرج من فمه الفاظ بذيئة جارحة ، وتخرج من فمه أو جسده أصوات مقززة ، وكأنه وحده لا يوجد من يراقبه أو من يخجل منه ، احيانا يتهور ويبدو أنه لو ترك نفسه كما يريد ، ربما انتحر فى لحظة اندفاع ٠٠ لن ينسى يونس تلك الليلة التى سكر فيها طلعت مع مستر كلارك ، وشربا من الحشيش ما يكفى لتخدير مائة رجل ، ثم انطلق طلعت يهاجمه بلا مبرر ، كان سخيفا الى اقصى حد ، فقد عقله تماما ، كانت لحظة غريبة ، عندما هجم عليه طلعت وأمسكه من كتفه وهو يصوب اليه عينيه المجنونتين ، كأنه يريد أن يقول بهما : انا قاتل أو مقتول لا يهمنى ما يحدث ٠٠ ولن يقف فى طريقى شىء كان طلعت يسأله عن اسم أمه ٠٠ ما اسمها ٠٠ هل أنت مكسوف ٠٠ لماذا يحمر وجهك ٠٠ أليس لأمك اسم كان اصرار طلعت والحاحه خارجين عن أى منطق ٠٠ ان يونس لا يخجل من ذكر اسم امه ٠٠ احيانا يقرأ اسمها فى المجلات ٠٠ كل أصدقاء والده ينادونها باسمها ٠٠

زهيرة هانم ، أية غرابة في هذا ، طلعت وحده ٠٠ وبموقفه الغريب ، ولهجة سؤاله ، ونظرات عينيه ، هو الذى جعل بكل هـذا من البوح بالاسم شيئا معقدا ٠ كأنه فضيحة ٠٠ عيناه تلمعان بالشر ، وربما بالكراهيـة ، وان كان يونس لا يجد مبررا لأن يكرهه طلعت٠٠ ولكن ما هى بشرته السمراء تكتسى بصفار غريب ، الدم يغيض من جسمه ، وحبات عرق على جبينه ، كأنه محموم يهذى ، ويردد٠٠ لـماذا لا تخبرني باسم أمك ، أريد أن أعرفه ، وركب العناد راس يونس ، فلاذ بالصمت ، ليزداد طلعت غضبا او هياجا ، او رغبـة في التدمير والانتحـار ، انه يحـارب ليعرف اسـم أم يونس ، يقاتل ، وعيناه تضيقان في تصميم ، الشر يكمن في اغوارهمـا ، وتتسع ابتسامته الصفراء ، ويعلن لاهثا انه أشجع من يونس وأنه سيخبره باسم أمه هو ٠٠ بشرط ان يعرف هو أيضا اسم أمه ٠٠ كأنهما يتبادلان الأسرى ٠٠ اسم الأم مقابل اسم الأم ٠٠ وصمت طلعت برهة ، وهو يحدق في وجه يونس وقد احمرت عيناه ، ثم قال فجـاة في خجل حقيقى وغريب لأنه غير متوقع منه ، خجـل تصاحبه ابتسامة باهتة ، وهمس ٠٠ أمى اسمها بكيزة ٠ وخفض عينيه ، فقال له يونس في دهشـة ان هذا الاسم ليس فيه شيء يثير الخجل ٠ فقال طلعت وقد رفع صوته قليلا :

ـ بكيزة اسم غير مفهوم ٠٠ اسم عبيط ٠

فقال يونس :

ـ يبدو أنه اسم تركى ٠

فقال طلعت بسرعة :

ـ اسم فظيع ٠٠ لا أحبه ٠

ثم التفت الى يونس ، وسأله هذه المرة بلهجة فيها توسل :

ـ والآن ما اسم أمك ؟

همس يونس ٠٠ فلم يعد النطق باسم أمه فضيحة بعد أن تراجـع طلعت وظهرت عليـه فيما يشـبه المعجزت ٠ عـلامات خجـل :

ـ زهيرة ٠٠

فردد طلعت الاسم على مهل ٠٠ وكأنه يتذوق طعم الاسـم في فمـه :

ـ زهيرة ٠٠ زهيرة ٠

وصاح فجاة مهللا ، وقد استعاد عنفوانه ٠٠ زهيرة ٠

ـ أى انك ابن زهيرة ٠٠ ابن الست أم يونس ٠٠ زهيرة ٠ بماذا يناديها أبوك ٠٠ زهيرة أو أم يونس ٠

وجعل يصيح ، ويرفع عقيرته ، يريد أن ينفى انه كان منذ لحظات يتظاهر بالخجل :

ـ امك اسمها زهيرة ٠٠ السـت خجـلا من هـذا الاسـم البلدى ؟ هل توجد امراة اسمها زهيرة ٠٠٠

هـا هـا هـا ٠

ثم قال بلهجة تمثيلية ٠٠ متعالية ، فيها تشف ورغبـة في العـدوان :

ـ اسم بكيزة اكثر أناقة ٠٠ من زهيرة ، أمى أحسـن من أمـك ٠

كانت ليلة غريبة ، كأنها كابوس ، وكان اغرب منها ما حدث في صباح اليوم التالى ٠٠ عندما جاءه سيد العتر ، خائفـا ، من غضبه وقـال له :

ـ لا تصدق طلعت ٠٠ أمه ليس اسمها بكيزة ٠٠ انه فشار وأنا أعرف أمه ٠٠ اسمها حميدة ٠

وفكر يونس ان يواجه طلعت بما عرفه ٠٠ وان يفضحـه ويذله تماما كما حاول طلعت أن يفضحه وان يذله ، ولكنـه لم يجرؤ وشعر ان طلعت يتألم لأن أمه اسمها حميدة كان بينـه وبين هذا الاسم عداوة ٠٠ والآن ها هو ابن حميدة ٠٠ الست أم طلعت، يريد أن يتزوج سارة ٠٠

واضح أنه يريد أن يقفز بأموال أبيه الى مركز اجتماعى يشعر أنه محروم منه ·

بالأمس ، كان طلعت يتحدث عن ثرائه ، ونفوذ والده ·· ولكن مهما كان الثراء والنفوذ ، فلا قيمة لهما اذا كان صاحبهما لا يعرف كيف يتكلم وكيف يتعامل دون ان يسقط فى حضيض السوقية ، ولا يخرج فى تصرفاته عن اسلوب الرعاع ، ويعيش على الأرض وكأن لا شىء آخر غير شهواته ونزواته يستحق الاهتمام ·

كانت سوقيته فوق اى احتمال ، وهو يساله :

ـ هل انت متاكد ان والدك فى الاسكندرية ؟ !

قال يونس :

ـ نعم ··

فاستمر طلعت يساله :

ـ وأمك ·· وأختك طبعا مع أبيك ··

انقبض صدر يونس ·· وهو يسمع كلمات طلعت تنطلق كالحجارة ·· أمك ·· أختك ·· أبوك ·· كلمات كالدبش ، ليس هكذا يتحدث الناس ·

قال يونس بصوت خفيض ، محاولا تلطيف تلك السوقية الفاضحة التى لا يملك مواجهتها حتى لا يستثيرها ··

ـ نعم ··

فسأله طعلت :

ـ ولماذا لا يبحثون عن بيت يشترونه فى الاسكندرية ···

فهمس يونس بدهشة :

ـ بيت ؟

فعاجله طلعت بالسؤال :

ـ كم يدفع أبوك ·· وأنا أجد له البيت ؟ !

قال يونس :

ـ يدفع الشىء المعقول ··

قال طلعت بالحاح :

ـ يدفع المعقول ·· يعنى ·· كم ؟

اجاب يونس :

ـ انه يريد ان يستاجر شقة ·· فى حدود اربعمائة او خمسمائة جنيه فى الشهر ··

قال طلعت بامتعاض وسخرية :

ـ احسن له ان يستاجر بهذا المبلغ عشة فراخ ·

ثم اردف بسرعة :

ـ ولكنى استطيع ان اجد لكم ما تريدون ··

الوقح يلوح بالرشوة ·· يريد ان يشترى سارة بامواله·· هل هذا ممكن ·· طبعا مستحيل ·· ولكنه سوف يمتحن أهله سيمتحن أباه وأمه وشقيقته ·· يمتحنهم ·· وهو واثق من نجاحهم ·

سؤال الامتحان هو ، هل تقبلون هذا الزوج بكل ما فيه من بذاءة وسوقية وانحطاط ؟ !

الاجابة معروفة ومضمونة ·· فكل ملايين الأرض لا تعوض عن سوقية طلعت فرج · ·المال لا قيمة له اذا تملكته الحيوانات ·

كانت العربة الجيب ، قد دخلت الحمام ··وانتقلت من مكان الى مكان ، ويونس مستسلم لما يراه عبر النافذة ، من ازقة ، وبيوت صغيرة ، وحوانيت ، حتى سمع صوت سيد العتر يقول :

ـ لو قلنا لهم فى مركز الشرطة ، ان معنا ابن سعادة النائب العام ·· سيعطوننا البنزين فورا ·

حاول يونس ان يقول شيئا ، ولكن الصوت لم يخرج من فمه ، واكتفى بمراقبة الصوت الذى يريد ان يخرجه ، وهو يهز

أعماقه . محذرا من استخدام اسم والده . فليس هـذا هو التصرف السليم ، وهم يفرضـون عليه الحرج بمثل هـذا الاعلان الفج عن والده واستغلال اسمه ·· ماله هو ووالده انه ليس لعبة ولا اداة تتحرك باذن والده ·· وهو لن يسمح لأحد بأن يستغله ·· ومع ذلك ها هى السيارة مندفعة ، تثير الغبار حولها وخلفها ·· وها هى تقف امام مركز الشرطة · ويقفز سيد العتر من السيارة ·· ويختفى فى مركز الشرطة · بينما يلتفت طلعت اليه ·· وكأنه ينتهز فرصة وجوده وحدهما ·· ويقول له :

— مهما تأخرت ·· فارجو ان تخبر والدك بأنى اريد أن اراه فى اسرع وقت ··

ثم اردف طلعت :

— وسوف اتصل بك غدا صباحا ·· لأعرف منك الموعد ··

هز يونس راسـه فى وجوم ··

ولم يكترث طلعت لوجومه ·· فلن يكون يونس هـذا عقبة فى طريقه بأى حال من الأحوال ·

وجاء سيد العتر لاهثا يطلب من يونس وطلعت التفضـل بشرب فنجان قهوة مع حضرة الضابط ·· واعلن سيد النبأ الذى جاء به الى يونس ··

— حضرة الضابط يقول ان سعادة النائب العام والدك ·· سافر صباح اليوم الى القاهرة ·· فى قضية كبيرة ·· ضبطوا فيها قنابل وديناميت لو انفجرت تنسف نصف القاهرة ···

وصاح طلعت غاضبا :

— يخرب بيتك ·· يعنى ساضطر الى السفر الى القاهرة ·

ولم يفهم سيد العتر ما الذى يعنيه طلعت فرج بأنه مضطر للسفر ·· ولو كان فى ظروف اخرى لسعى لمعرفة السبب ولكنـه فى تلك اللحظة كان مشغولا ·· بخطته التى دبرها ·

الفصـل الثـالث

لن يخطر ببال أحد ان سيد العتر قد دبر عن عمد هـذا التوقف فى بلدة الحمـام ، كان قد شرع فى تنفيذ خطـة درس تفاصيلها واعد لتنفيذها بدقة متناهية · فهو يعلم ان فى هـذه السـاعة من عصر يوم الخميس تتوقف محطـة البنزين الوحيدة فى بلدة الحمـام عن الضخ ، اذ يغيب صاحبهـا عن البلدة ، ولا يعود حتى صباح الجمعة ·

وهو يعلم ان المكان الوحيد الذى سـوف يلجـأ اليه طلبـا للمعونة ، هو مركز الشرطة ، وهذا على وجه التحديد هو هدفه · أن يثير ضجة وان يعلم جميع من فى المركز من اصغر عسكرى الى أكبر ضابط ، ان سيد العتر هو سـائق سيارة يركبها ابن سعادة النائب العام · ولسـوف يسارعون بامـداد السيارة بالبنزين مجاملة للنائب العام وابن النائب العام · وكان سيد يتوقع ان يرتبك يونس ، فقد درسـه وتفرس فيه طوال الشهور المـاضية ، وعرف انه خجول يستر بخجلـه ترفعا وغرورا يثيران كراهيـة سيد ، ولكنه يعلم أيضا ان يونس لا يقاوم الالحـاح ، يستسلم بسرعـة للضغوط الاجتماعيـة ·· وسوف يترك سـيد يفعل به ما يشاء ·· وهو منكمش متقوقع فى نفسه ، وكانت المشكلة بالنسبة لسيد العتر تنحصر فى طلعت فرج ·· فهو وقح وسـافل ، وسوف يغار من الضجة التى تثار حول يونس ، واهتمام ضابط المركز به·· وترديده لاسم والده سعادة النائب العام · لن يتحمل طلعت ان

يكون تابعا ، او لا يحتل مركز الصدارة فى اية جلسة ، وها هو ما كاد يسمع ان الضابط يدعوهما الى فنجان قهوة حتى انطلق يسب ويشتم واسرع بالهبوط قبل يونس حتى يسبقه فى دخول مبنى المركز ، وها هو يتظاهر بأنه سيسافر الى القاهرة ليلحق بالنائب العام ، وفسر سيد الأمر على انه محاولة ساذجة من طلعت ليوهم العساكر أنه هو ابن النائب العام • لقد جن ابن المجنونة • حتى هذه يريد ان يخطفها من سيد •• الذى دبر وخطط ليعلم الجميع انه على صلة بالنائب العام ، فاذا ما صادفوه بعد ذلك يقود السيارة التى يسرقها •• لم ينتبهوا الا لتلك المعلومة التى ترهبهم ، وهى أن هذا الشخص على صلة بالنائب العام • فتنطلق الابتسامات وتتوارى بسرعة الريب والظنون ، ولن يخطر ببال أحد أن السيارة التى يقودها سيد ، مهربة ، او مسروقة ، هذا هو المبرر المشروع لأن يصنع سيد العتر هذا المشهد ، فما هو مبرر طلعت ولماذا يزعم أنه سيسافر الى القاهرة ليلحق بالنائب العام • انه ذاهب الى فاطمة زوجته بالابراهيمية ، ولن يذهب الى النائب العام • واذا ترك فاطمة ، فسوف يذهب الى كباريه « الديك الذهبى » حيث ترقص صاحبته جمالات ، فلماذا يكذب ، أم هى غريزة عجيبة مركبة فيه تجعله يشعر بما يريده الآخرون ، خاصة ما يريده سيد العتر ، فيهجم عليه ويأخذه منه فاذا كان سيد يريد ان يعلن امام الناس انه على صلة بالسلطة ممثلة فى النائب العام • فهو يسارع ويعلن انه على علاقة حميمة بالنائب العام ، وانه مضطر الى ان يلحق به فى القاهرة •• كل شيء يخطفه ، مثلما فعل مع فاطمة ، سيد أرادها لنفسه ، بل هو واثق انها فى وقت ما كانت لا تحب سواه ، فهو الوسيم ذو الوجه الصبوح ، فى تلك الأيام ••• ايام الطفولة ، كانت المنافسة شريفة ، والندية متوافرة بين سيد وطلعت •• كلاهما ابوه ميكانيكى ، كلاهما بيته مثل بيت الآخر ، طلعت ينام فى حضن أم سيد ، وسيد ينام فى حضن أم طلعت •

ولكن الأيام دارت ، وها هوطلعت له المال •• وله فاطمة ،

وله الهندسة ، أما سيد العتر ، فليس له شيء الا ما يخطفه •• وليكن ، فهو سوف يخطف كل ما يستطيع ان يخطفه •• وهو سوف يسرق كل ما يستطيع ان يسرقه • ولسوف يجمع من المال ما يطفيء به النار الحارقة فى صدره ، عندما مات الأستاذ زكريا الفنان المنولوجست ابو فاطمة •• ظن سيد العتر انها سوف ترضى به •• قال لها طلعت لن يتزوجك •• ولن تصلح حياتك معه •

وعندما صممت على رفضه ، هجم عليها لولا أنها عضته وسال الدم من اصبعه • ولولا ان تزوج طلعت فاطمة ، لكان استولى عليها ، كان فرض عليها ان تخضع له ، وان تعرف من هو سيد العتر • ولكن الفقيرة الحقيرة باعت جمالها لطلعت ، باعت جسدها بالمال •

كان صوت طلعت يجلجل فى حجرة الضابط ، بينما سيد مشغول بالاشراف على تزويد السيارة بالبنزين وكما توقع سيد ، كان طلعت يسارع بمقاطعة يونس كلما فتح فمه وشرع فى الكلام • حتى عندما انطلق الضابط يروى عن القضية التى تابعها واشرف على التحقيق فيها سعادة عبد الحميد بك صفوت النائب العام •

كان طلعت يحول الموضوع بسرعة ، فهو لا يطيق لحظة اهتمام يستأثر بها يونس ، أو أبوه ولا يعنيه ان يسمع عن متفجرات كادت ان تنسف بيوتا واحياء • ولا يظن ان فى مثل هذا الحديث فائدة من اى نوع • لغط فى لغط ، ولا قيمة لهذا الكلام والدنيا ليست هذا الكلام الطائش الذى يرددونه • وليست هذه الأحداث التى تبدو وكأنها اكاذيب ، او قصص يؤلفونها فى السينما • وهو لا يكترث بحماس الضابط ليقوم بدور فى الرواية طالما هذا الحماس موجه الى يونس ، الذى لا يستطيع ان يتجاوب مع من يحدثه ، وها هو منكمش يتراجع فى جلسته ، كأنه سيختفى بطريقة ما ، بمعجزة ما ، فى ظهر مقعده ، ان يونس اضعف من ان يحصل على اهتمام أحد • انه مخلوق غريب يختلف عن البشر كما يعرفهم طلعت ، والضابط المسكين ، يحاول أن يجامل وأن يتملق،

وها هو يعرض على يونس أن يتحدث فى التليفون مع الاسكندرية اذا شاء وقبل ان يجيب يونس بشىء · كأن طلعت تولى مهمة الاجابة بينما يزداد يونس انكماشا ، وهو عاجز تماما عن التعامل مع احد · متى يدرك الناس ، ان يونس وامثاله صنف من الناس او الحيوانات لا قيمة له ويوشك ان ينقرض ·

كان سيد العتر فى هذه الأثناء يلف ويدور ، ويدخل الحجرة ويخرج منها ، ويتحنجل كالغراب ، وها هو يرفع يده بالتحية مقلدا تحية الجنود لرؤسائهم ، معلنا ان « كله السلطة يا افندم » كان قد تعرف على احد الجنود ، وسؤال يدور الآن فى رأسه اذا كان يستطيع ان يخفى السيارة التى يسرقها فى فناء مركز الشرطة بمساعدة هذا الجندى · ام الأفضل ان يقودها كالمعتاد الى معسكر « اماركو » حيث ورشة الصيانة التى يشرف عليها وحده وقبل ان يصل سيد الى قرار خرج من أفكاره ، ليؤدى مشهدا تمثيليا ، عندما صمم على أن يدفع ثمن البنزين ، رغم محاولات الضابط اعتبار المبلغ على حساب الحملة الميكانيكية أو حتى على حسابه الخاص · فمركز الشرطة لا يبيع البنزين ، وليس من مهامه تحصيل اموال من بيع أو ايجار · ولكن عملية دفع ثمن البنزين كانت نقطة هامة فى خطة سيد العتر ، فهو يريد تسجيل المشهد فى ذاكرة الجميع ، يريد ان يخرج محفظة النقود من جيبه امامهم ، ويعد الأوراق المالية ، ويسلمها للجندى ، فيراه الجميع ويعلمون مدى دقته وحرصه على اداء واجباته وهو الذى يعمل فى خدمة النائب العام ، او ابنه ، لابد ان يكون على المستوى الرفيع من النزاهة والأمانة ، حتى يدحض اى خاطر يجول براس أحد من رجال هذا المركز اذا ما قابلوه أثناء مهامه الليلية ، عندما يتحول سيد العتر ، الى سيد فولفو او بيجو ، او مرسيدس · عندما يؤكد سيد العتر وضعه كاشهر واجرا لصوص السيارات فى الاسكندرية ، وأسرع من يفك السيارة ، ويحولها فى لمح البصر الى قطع غيار معروضة فى السوق ·

عندما عاودت السيارة الجيب انطلاقها على الطريق الأسفلت

مستأنفة رحلتها الى الاسكندرية ، كان سيد يهنىء نفسه على نجاح خطته ، فها هو ما يراه فى خياله يتحول الى واقع ، انه يرسم صورته فى صبر وأناة كواحد من المقربين الى السلطة · وهو منذ أن اشتغل يونس بالشركة ، وهو يروج المعلومات حول نفسه فى المقاهى ، وبين الورش والجاراجات وفى اقسام الشرطة بالمدينة · سيد العتر على صلة بالنائب العام ، ربما قريب بعيد من اقاربه ، سيد العتر على صلة بالحكومة · سيد العتر عنده الأخبار ·

وهكذا كان يدور الهمس حول سيد ، حتى شهد نظرات الضباط فيها معرفة به ، خاصة ضباط المباحث ، والمخبرين الذين يتعاملون معهم ·

أصبحوا يتحدثون معه وكأنه واحد منهم ، كان بينهم قرابة او ينتمون الى قبيلة واحدة · وكان لابد ان يلتف حول سيد من لهم طلبات يستطيع ان يلبيها النائب العام ، طبعا عن طريق ابنه ، وهل يرفض الأب طلبا لابنه ، خاصة وهو بنه الوحيد ، وهل يرفض ابن النائب العام ، طلبا لسيد العتر ، وهو الذى يسهر معه ، ومع الخبير الأمريكى ، ويأخذ الجوزة من يد سيد وينجلى معه حتى الصباح · كان سيد يعلم ان يونس لن يفعل شيئا اذا ما قدم له طلبا من تلك الطلبات التى حملها كوسيط بين صاحب الطلب وابن النائب العام ·

فعند أول محاولة ، ارتبك يونس ، واخذ منه الورق الذى جاء به سيد ، ووعد بأن يخاطب أباه عندما يعود الى بيته فى الاجازة ، ولكن فى اليوم التالى وقبل ان يأتى يوم الاجازة ، جاء يونس متجهم الوجه ، وكأنه قد اتخذ قرارا خطيرا ، وقال بانفعال وعصبية لا مبرر لهما فى مخاطبة سيد انه يرفض ان يقدم اى طلب لوالده ، فالنائب العام ، او اى رجل قضاء غير مسموح بالتدخل فى قضاياه ، لأنها مسألة ضمير واقتناع بعد تحقيق . وعبثا حاول سيد أن يقول له ان الطلبات التى معه لا صلة لها بالقضايا . وانها طلبات بسيطة من جنود صغار بينهم من يريد نقله الى قسم شرطة قريب من بيته ، او من يريد نقله الى حرس الوزارات

او الأمن المركزى ، كلها طلبات انسانيـة يا يونس بك ، ولكن
يونس كان قد اغلق اذنيه واغلق عقله ، ودس الأوراق فى يد سيد ،
وامره الا يعـاود الكرة ويطلب منه شـيئا • ومع ذلك تحقق كل
ما طلبه سيد • لأنه كان ينتهز فرصة وجوده بالاسكندرية ، فيلتقى
بسائق سـيارة النائب العام ، ويصاحبه ، ويحكى له عن ابن سعادة
النائب العام ، بل ويتطوع أحيانا بوضـع سيارة الشركة وجهوده
كسائق ، فى معاونة سائق النائب العام ، الذى يكلفه صفوت بك
بأن يذهب الى بيت أحد رؤسـاء النيابة لاحضـاره ، الى فندق
سيسل حيث يقيم النائب العام ، او يكلفه بأن يعود بضيفه الى
بيته بعد انتهاء الزيارة ، ولقد حدث هـذا مرتين ، استغلهما سيد
أحسن استغلال ، فكان يروى للراكب الذى تطوع بنقله ، عن صلته
بالبك الصغير الباشمهندس يونس ، ويروى قصصـا عنه وعن
نشاطه فى الصحراء ، ومرتبه الكبير الذى يفوق مرتب سـعادة البك
والده • وفى النهاية يتقدم سيد الى ضيف النائب العام بالطلب
الذى لديه • وهـكذا تم نقـل عبد الرحمن الدراوى الى شرطة
الجمارك • ونقل حسان البلعوطى الى المحافظة • ان سيد يستطيع
أن يخترق الحواجز ، بنعومته ، بشطارته ، وبوسامته ، النـاس
تستريح للوجه الوسيم ، وهو يعلم ذلك ويعلق عليه اهمية كبرى •
ذلك الوجـه العربى الذى جـاء به احد اجـداده من المغـرب
الى الاسـكندرية فى سـالف الزمـان انه يشعر كلمـا خرج من
الاسكندرية متجهـا الى الغرب فى طريق الأسـفلت كما لو كان
عائدا الى المكان الذى جاء منه أجداده هناك فى أقصى الطريق ، هذا
الشعور يمنحه قوة لا حدود لها لأنه الشعور الوحيد الذى يمنحه
بعض الراحة ، رغم انه لم يكمل الطريق أبدا حتى منتهاه ، سيأتى
يوم ويستمر فى انطلاقاته بعيدا عن كل ما يخلفه وراءه ، حكاياته
القديمة • أبوه الذى مات قبل الأوان وتركه للفقر ، وضـاع منه
دكانه الذى استولى عليه صديقه مرسى فرج • فاطمة التى كانت
أجمل احلامه • واجمل ما لمست يداه ، وما رات عينـاه ، والتى
اهانته ، وعضته واسالت الدم الذى كان يفور ويحن لها • فاطمـة

أفقر من فى الحى ، بنت زكريا الأفيونجى ، عقدت صفقتها مع طلعت ،
صديق الطفولة الذى اصبح السيد بينما السيد اصبح الخـادم •
انه لن يضيع فى هذا البلد ، ولن يخدعه احد ، وهو لن يتفرج على
طلعت وامثاله ، يهبرون وينهشـون اللحم ثم ينكرون عليه مصمصة
العظـام • هل كل هذا يحدث له ، لأن اباه العتر مات • كانت
الحجرة التى ينامون فيهـا رطبة ، والباب يندفع منه تيار هواء ،
صارخ رصاص ، وقالوا ان عينا اصابت الأسطى العتر كان يوم
خميس مثل هـذا اليوم ، وكان سيد العتر ينزع نيكل التصـادم
من التاكسى الفيات ، عندما سمع الأسطى مرسى فرج ينـادى على
الأسطى العتر •• مالك يا أبو سيد • صوت مرسى فى ذلك اليوم••
فى تلك اللحظـة ، وسؤاله ، كان بداية النحس ، ان سـؤالا عن
الصحة ، او عن المـال ، أو عن السعادة ، اى سـؤال عن حال
الانسان ، يكون احيانا كسكين يشق الغيب ، يمزق استارا وحجبا
كانت مسدلة ، فينتزعها السؤال ، ويرفعها ، لتندفع كل الشرور
والامراض والخبائث انقبض قلب سيد ، وهو يسمع صوت مرسى
فرج يسأل ويقول لأبيه « مالك ؟ » بعد يومين ، من الخميس الى
الأحد ، كان الأسطى العتر قد مات ، واشترى مرسى الورشـة •
وضاعت من سيد فاطمة بنت الشحات الأفيونجى ، الذى كان يقول
المنولوجات والنكات فى الأفراح ، ويضربونه على قفاه كل ليلة •
كان الف رحمـة عليه ، يأكل بقايا موائد الأفراح ، ويدس بعض
الطعام فى صرة لتأكل فاطمـة وامها شفيقة ، ولكنه كان يذهب الى
غرزة حيث ينسطل ، ويعود بلا طعام وبلا نقود • فتضربه شفيقة ،
ويجلجل صوتها فى الحارة •

عندما عرف ان فاطمة تقابل طلعت خلسة ، انتهز فرصـة
موكب فرح الأسطى شاكر ، وحالفه الحظ عندما رآهما يسيران على
رصيف الكورنيش امام سيدى أبو العباس اتجه اليهما ومعه بقية
الموتسيكلات التى يركبهـا شباب الحى • تجمعت الموتسيـكلات
وسلطوا الكشافات عليهما • فاطمة وطلعت • بنت المنولوجست
زكريا ، افقر بنات الحى مع طلعت اقبح واغنى اولاد الحى ، الولد

الذى تمرد على الحي والأصحاب ويذهب كل صباح الى كلية الهندسة ليصبح مهندسا تملك الغضب الجميع · هجموا على طلعت، وانتزعوا فاطمة من بين براثنه ·· واعادوها بزفة الى بيت أبيها ، الذى ثار عندما علم بما حدث ، وزعق وصرخ ، وضرب فاطمة وأمها شفيقة ثم ذهب الى الحاج مرسى ، وانهار امامه متوسلا باكيا · ان يساعده على المحافظة على عرض ابنته · كانت لحظة عظيمة ، لم يجرؤ طلعت بعدها ان يقابل فاطمة ، كان انتصارا كبير لسيد · ولكنه لم يدم ؟ فقد تحدى طلعت الجميع وتزوج وهو طالب فاطمة· فى ليلة زفافها اقدم سيد على اول مغامرة له · استولى على سيارة عليها نمر القاهرة ، كانت تقف فى طريق عبد الناصر ، عند محطة البنزين بجوار النادى قاد السيارة ، وهو لا يخشى أحدا ، كان واثقا ثقة مطلقة ، ان أحدا لن يقف فى طريقه · وان ما فى جسده من طاقات غضب وحقد كفيلة بأن تدمر العالم كله اذا شاء · افترس السيارة وباع أجزاءها · وقرر ان يكون هو ايضا صاحب ثروة من يدرى ربما يأتى يوم يحمل فيه ثروته ، ومعه امراة يحبها وتحبه ، ويمضى فى ذلك الطريق الأسفلت ، لا الى الاسكندرية كما هو متجه الآن ، بل الى الغرب · الى حيث يجد حياة أخرى · وحتى يأتى ذلك اليوم عليه أن يحارب بكل ما لديه من ذكاء وتحد · تقول له الست منيرة العالمة التى كان يعمل معها زكريا ، ان لديها البنت التى تناسبه ، تريد منه أن يتزوج واحدة من بناتها ، ويستقر معها فى البيت ، ويساعدها على ادارته · عندما فوجئت بالبنات يتسربن من فرقتها واحدة بعد الأخرى ، ويتزوجن من رجال قادمين من الغرب ، سألها كيف ستواجه المشكلة ، قالت بسرعة ، وقد أعدت الجواب واتخذت القرار · انها سوف تعمل على أن يكون الزواج بمعرفتها · وتحصل على نسبة من المهر الذى يدفعه العريس الذى يتزوج احدى بنات فرقتها ، واضافت ان هذه النسبة تقدر اليوم بالمئات ، وأحيانا بالآلاف · عندما سمعها خطر له فجأة ، ان فاطمة بنت زكريا كانت تصلح كصفقة تستفيد منها منيرة ، وادهشه هذا الخاطر ·· كيف تراوده هذه

الرغبة ، أيريد أن ينتزعها من براثن طلعت بأية وسيلة ، انه يرى فاطمة الآن بعد أن اصبحت اما لتلك الطفلة الصغيرة ، يراها وهو يحمل الى بيتها اللفافات والأقفاص والصناديق ، تحتوى على ما يؤكل وما يشرب وما يلبس مما يشتريه طلعت ·

الخادم يحمل للسيدة مشتريات السيد زوجها · نظراتها باردة كأنها لم تعرفه أبدا · ولا شك ان حقده عليها بارد ايضا فهو لا شك يحقد عليها ، حقد المهزوم ، المجروح ، حقد من سيأتى يوم له ، بعد ان كانت هناك أيام عليه ، وعندئذ لابد أن ينتقم · يشفى على الأقل غليله ·

استقبل سيد العتر ، مدخل الاسكندرية عند المكس ·· وهو يرى نفسه مليونيرا بين المليونيرات ، ينتقم فيه من كل الاهانات · من كل الحظوظ السيئة ، سوف يعلو ويعلو فوقهم جميعا · فيرى حذاءه فوق راس هذا الوغد طلعت الذى يجلس بجواره ، لك يوم يا طلعت ، وانت يا فاطمة · هذا هو الذى يربطنى بكما ، والا كنت تركت كل هذا ، ولكن كل لحظة تمر اراك يا طلعت تتمتع فيها بتفوقك وسيادتك على ، تتمتع بأن ترانى عبدا ضعيفا· خادما مطيعا · ولكن انتظر · فكل ما تتمتع به الآن هو وقود الحريق الكبير الذى سوف يحرقك أنت وفاطمة ·

وحنت من سيد التفاته الى المرآة ، فراى يونس جالسا فى المقعد الخلفى ، فانفجرت فى اعماقه ابتسامة ساخرة لم يظهر منها على شفتيه سوى طيف لا يلحظه احد · هذا هو المغفل الذى لا يدرى عما يجرى فى الدنيا شيئا · أمثال يونس هذا تستغفلهم كما تشاء · وهو على العموم لا قيمة له بين الرجال ·

الفصل الرابع

وقف فاطمة فى المطبخ تعد القهوة على نار هادئه ، وقد تركت طلعت مع ابنتها محاسن ، كانت تشعر ان شيئا ما قد انتاب طلعت · انه ليس هو الذى تعودت أن تستقبله ، لا لأن شيئا ما قد تغير فيه ، او بدر منه ما يثير ريبتها ··

ولكن شعورها هو الذى يرفض ان يصدق ان طلعت الذى معها الآن ، هو طلعت الذى عرفته من قبل · ان حيويته زائدة ، واقباله عليها كبير ويفوق ما تعودت منه ، رغم غيبته الطويلة · وشراهته فى الأكل مفرطة ، ورغبته فى جسدها مبالغ فيها · ولكن كل هذا يصدر عن كيان تتحكم فيه ارادة جامحة هوجاء مندفعة بشوق واشتياق ، ان جسدها ذكى حساس ، أدرك على الفور انه لا يستقبل رغبة محمولة بالرقة والحنان ، وان ما يتعامل معه ، هو تعبير عن فشل فى التعامل ، عجز عن التفاهم والتواصل ، فهو يملى ارادته ، معتمدا على قدرات عصبية وطاقات يعطيها وكأنه يتخلص منها ، يبددها ، فليس بينهما أخذ وعطاء ، شعرت انها تريد أن تسأله فى كل لحظة ، ماذا به ، ولو كانت تملك القدرة على التعبير عن مشاعرها المبهمة ، لقالت له انه ليس طلعت الذى كان يعطى بسخاء وهو واثق من نفسه ، كان اجمل ما فيه هذه الثقة المفرطة بالنفس والتى منحتها الطمانينة ، واشعرتها بالحماية، فتهيأت لأن تستقبل فى بطنها هذه الحياة الدافقة التى خرجت منها فاسمتها محاسن ·

هذا هو ما عوضها على ما فقدته بعد الزواج من مشاعر اخرى تعودت عليها وتشعر بحنين اليها بين وقت وآخر ، رغم انها

لو فكرت بعقلها لطردت ذكريات الماضى بكل ما كانت تحمله من تعاسة وألم · ولكن ما حيلتها وهى ترتجف شوقا الى نوع من الرقة والحنان ، فيهما ضعف كبير ، نوع من المشاعر المجروحة ، المهانة ، ولكنها تنفذ الى القلب وتدميه ، تلك المشاعر التى كانت تنتقل اليها عبر نظرات من أعماق عيني ابيها ، ترسلان اليها ذلك الألم الساخن ، الذى يستعطف ويستنجد ، فيمتلىء جسدها بالشجن ، والرغبة فى البكاء ، او الرغبة فى أن تنطلق فى الغناء ، او الرغبة فى ان تجرى هائمة على وجهها فى الشوارع تحمل معها هذه المشاعر ، هذه الجروح ، تستقبلهما من عينين تقولان لها ، انا بلا حول ولا قوة يا ابنتى ، ولكنى قادر اذا شئت انت ، ان افديك بروحى ، انا ضعيف هالك يا ابنتى ، ضاعت حياتى ، ولا املك سوى حنجرة تطلق صوتا متحشرجا بالمنولوجات ، وجسدا يحييه الأفيون ويقتله ، ومع ذلك اشعر معك بأنى ملك جبار ، طاغية مستبد ، واذا شئت انا ، فانت على استعداد لأن تفدينى بروحك · من يريد أن يملك اكثر من هذا فى هذه الدنيا الرخيصة المصنوعة من تراب ، ومآلها التراب ، الكل يهزأ منى ، ولن أخدع نفسى ، فأنا جربوع بين الجرابيع ·· احيانا اتوهم انى فنان عظيم سيىء الحظ ، ولكنى فنان غلبان على باب الله ، مواهبى محدودة ، فأين انا من اسماعيل يس ومحمود شكوكو ، ومع ذلك تأكدى يا فاطمة ، أنى اضع حياتى فى كفة ، وان يمس احد شعرة من رأسك فى كفة اخرى · مشاعرى نحوك تسيل مع دمائى ، نزيف مستمر ، فأنت كل ما بقى لأبيك زكريا ، وأطالبك يا كل حياتى ، الا تتخلى عنى ، فأنت وحدك القادرة على ان تمنحينى بسمة حنان حقيقية ، هى الدنيا كلها ·

كانت علاقة فاطمة بأبيها ، علاقة صاخبة ، متلاطمة كموج البحر فى الشتاء · اما طلعت فهو المرفأ الهادىء ، تلجأ اليه لتنجو من عواصف القلق ودوامات الضعف ، قادتها اليه قرون استشعار فطرية ، لتخلصها من ايام الخوف والذعر ، عندما كانت أمها شفيقة تصرخ وتولول ، ويشق صوتها الحاد ليالى الحى ، وهى

تندب حظها الأسود وسوء بختها الذى جعل المقادير ترميها فى بيت زكريا المنولوجست · كان صوتها يدوى ويجلجل ، فاذا كان الناس فى الحى المجاور يستيقظون على صوت المؤذن فى مسجد سيدى ابى الدرداء ، أو يوقظهم صياح ديك ، او أجراس منبهات ، او حتى صرير عجلات ترام تأتى من بعيد ، فسكان حارتها يستيقظون على صوت شفيقة ، ولقد رضى الجيران بهذا الصراخ ، خاصة النسوة ، فقد وفرت عليهن شفيقة ، مشقة تحذير او تهديد ازواجهن ، الا يتأخروا خارج البيوت ، حتى لا يواجه احدهم ما يواجهه زكريا من شفيقة ، وهذا هو ما كانت تردده الحاجة فهيمة زوجة ابو طلعت ، وكان صراخ شفيقة يصل اليها فى بيت الحاج مرسى عند ناصية الحارة ، فتظهر العطف والشفقة عليها ، وتدافع عنها أمام زوجها الحاج ، وتطالبه بأن يتدخل ليردع زكريا ويخرجه من غيبوبته ليتحمل مسئوليات زوجته وعياله · وكانت فاطمة ترقب امها وهى مذعورة ، فترى جسد شفيقة يتمايل برأسها وكتفيها فى حركة رتيبة كأنها فى حلقة ذكر ، وهى تلطم بين حين وحين خديها ، فى ايقاع بطىء ، تصاحبه تأوهات منغمة · وكان موجات منتظمة من الألم تستولى عليها بين لحظة واخرى · وكانت شفيقة ، تطلق مع تأوهاتها تساؤلات ملتاعة عن زكريا كيف يمشى زكريا الآن وهو مسطول فى الشوارع ، لابد أن سيارة سوف تدهسه ، واذا لم تدهسه اليوم فلابد أن تدهسه غدا ، واذا نجا من السيارة ، فلن ينجو من معركة فى فرح ، أو طعنة بسكين · · واذا لم تصبه الطعنة اليوم فلابد أن تصيبه غدا ، واذا لم تقبض عليه الشرطة فى غرزة اليوم فلابد أنهم سيقبضون عليه غدا · كانت الكارثة محدقة بزكريا ، مقبلة لا ريب فيها ، ولا مفر من الاستسلام لها ، فحتى لو نجا زكريا من حادث او طعنة ولم تقبض عليه الشرطة ،فسيأتى يوم قريب ، تتخلى فيه عنه الست منيرة صاحبة الفرقة التى يعمل معها فى الأفراح فهى امرأة لا قلب لها ، تستغل سذاجة زكريا وبلاهته ، فحولته من فنان الى خادم ترسله هنا وهناك ، ويشترى لها حاجاتها من السوق ، ولا تتورع عن أن تطلب

منه كنس السلالم ومسح البلاط استعدادا لاستقبال احد الزبائن الكبار · هكذا شاءت شفيقة ان ترى حياتها مع زوجها ، وان تلاحقه فى كل لحظة تراه فيها باللوم والسخرية والاهانة ، حتى اصبحت بالنسبة له هى المراة النكد والمراة النحس ، والسبب المباشر للجوئه الى الأفيون هربا من نكدها ·

وكان اذا اختفى زكريا وغاب حتى الصباح ولم يعد الى بيته ، ارسلت شفيقة ابنتها فاطمة الى الأسطى مرسى الميكانيكى عند أول الحارة ، فكان يرسل معها ابنه طلعت الذى يقفز الى موتوسيكل وتركب خلفه ، ويطوفان بالأماكن التى يحتمل ان يعثرا فيها على زكريا · وعرفت فاطمة كل الأماكن التى كان يتردد عليها أبوها · عرفت بيت ست منيرة العالمة ، المراة السمينة البضة ، ذات الخدود الموردة ، والتى كانت تعطى فاطمة قطعة لوكوم مرشوشة بالسكر ، تأكلها وهى تواجه عينى منيرة المكحلتين ، عينا بقرة ، ورأس صغير فوق صدر منفوش ، كان طلعت يقول ساخرا بأنه منفوخ كاطار السيارة على ثمانية وعشرين · وكانت تقابل فاطمة احيانا وهى راقدة ، فى السرير ، والأساور الذهبية تحيط بذراعيها السمينتين فتضغط على لحمهما وتصنع فيه حلقات بارزة تجذب أنظار فاطمة ، بينما تدعوها منيرة لأن تبقى معها ، وتنجو بنفسها من الحياة مع ابيها ، فلا فائدة منه ولا معنى للقلق لأن عمر الشقى بقى · واحيانا كانت تعثر على زكريا راقدا فى بير سلم بيت منيرة ، واحيانا تعثر عليه هائما على وجهه لا يدرى أين هو ، ولا من هو ، ويتعرف عليها بصعوبة ، واحيانا كان سيد العتر هو الذى يعثر عليه ، ويتطوع باحضاره ، من اماكن لا يدرى عنها أحد شيئا ، وكان سيه يحرص على أن يعثر على زكريا قبل ان تلجأ فاطمة الى طلعت ، وكان يريد ان يؤكد لها باستمرار انه هو القادر على احضار ابيها ، وانه أقرب اليها من طلعت ، وان نفوذه فى الشوارع والحارات من بداية الليل حتى مطلع الفجر لا يعادله نفوذ، فهو ملك الليل ، ولا يخفى عليه تحركات أحد ، وهو صديق منيرة ، لأنه يتولى عمليات نقلها هى وبناتها الى الأفراح ·

انتبهت فاطمة من خواطرها ، على صراخ حاد تطلقه محاسن
كانت قد فرغت من صب القهوة فى فنجان ، فأسرعت خارجة من
المطبخ ، لترى لدهشتها محاسن وحدها فى صالة البيت ·
اما طلعت فكان فى حجرة النوم وقد فتح حقيبة على السرير يعد
فيها ملابسه · ما الذى حدث ، ان أمامه أسبوعا قبل أن يعود الى
عمله ، ولكنه يقول لها انه ينتظر مكالمة هامة من مصر ، وقد
يسافر الى القاهرة غدا ·

أية مكالمة ؟

ومن الذى سيكلمك ؟

قال لها طلعت :

- ان الأمر خاص بوالده وأعمال خاصة كلفه بها · ومرة
اخرى هجم عليها هذا الشعور الغامض ، ان فى الأمر شيئا · وسألته
ملتاعة ·· ماذا به ؟ أجاب بسرعة ·· لا شيء ·

فأعادت السؤال ، فأجاب بعصبية وهو يقذف بقميصه فى
الحقيبة أن تسكت ، فلما صممت على السؤال ، شخط فيها ان
تخرس وتتركه يشرب قهوته فى هدوء · ولم تتركه ، هاجمته
بشراسة ، كيف يترك ابنته تصرخ فى صالة البيت وحدها · ما هذه
العجلة فى اعداد الحقيبة وهو لن يسافر فى هذه اللحظة ، شيء
تغير فيك يا طلعت ، ما هو ؟ هددها ان واصلت الكلام ان يترك
لها البيت ويخرج · مثل هذا التهديد يفجر كل طاقات التدمير
التى قد تمتلكها فاطمة · تدمير الآخرين ، وتدمير الذات · انها
مندفعة فى درب نهايته الموت ، الموت لها ، وله ، الموت للدنيا كلها ·
لابد أن تمضى حتى تقع الواقعة ، حتى ينفذ التهديد ، حتى يتم
تدمير كل ما يمكن تدميره · ليست هذه اول مرة يتعاركان فيها ·
ثم تصالحا ، ولكن هذه هى اخطر المرات ، انا او انت ، اما أن
تضحى بحياتك من أجلى ، أو اضحى بحياتى من أجلك · لا تريد
الحياة معه ، فليطلقها ، فليطلق سراحها ، انها لا تريده ، ولا تريد
ابنته ، التى تذكرها به ، كانت تصرخ فى جنون ، حتى هوى بكفه

على وجهها ، فترنحت ، وانهال عليها ضربا ، حتى تكومت على
الأرض ، فركلها بقدمه وترك البيت وخرج · عندما سمعت الباب
وهو يغلقه وراءه ، نهضت تتوجع ، ورات أن الحقيبة قد اختفت
من فوق السرير · احست بجوع ، الم فى بطنها كالجوع ، وجرت
الى محاسن ·· كان بكاؤها متقطعا ، فحملتها وضمتها الى
صدرها ، وذهبت الى المطبخ واخرجت من الثلاجة طبق مهلبية ،
وشرعت فى اطعام محاسن والدموع تنهمر من عينيها ، وبين لحظة
واخرى ، تبتلع ملعقة مهلبية · عندما كانت صغيرة ربما فى الخامسة ،
اكبر من محاسن بسنتين او ثلاث ، كان ابوها يعود الى البيت
هائجا صاخبا يضرب امها ثم يصالحها ايام كان يغنى « الغيرة يا نار
الغيرة » ، و « لو كنت حصان » ايام كان لها اشقاء تكاد تذكر
اسماءهم ، وملامح مشوشة مختلطة لوجودهم ·· عبد الفتاح ،
ومختار ، واسماعيل ·· اين ذهبوا · اين اختفوا ، لا احد يدرى ،
لا خطابات ولا رسل تأتى بالأخبار ، ربما ماتوا ، ربما اصبحوا
أثرياء · ولكنهم ذهبوا ، الرجال طفشوا ، ولم يبق الا فاطمة ·
العجيب ان اباها كان لا يرتاح لطلعت ، كلما راه قادما مع فاطمة
يبحث عنه فى بيت منيرة ، أو مقهى المعلم شنكل ، أو اذا قابلهما
صدفة · غضب ، مع أنها كانت لا تزال صغيرة ، فى الثانية عشرة
أو الثالثة عشرة ، ولكنها كانت قد اكملت أنوثتها بالبلوغ وكان
مرسى فرج لا يأخذ كلام أبيها مأخذ الجد ، وكان طلعت لا يخفى
عليها ما يسمعه من أبيه ورأيه فى أبيها · رجل عقله ناعم ، مثل
تروس الدبرياج ، عندما تفوت ولا تتماسك ، وتسمع فاطمة
ما يقول طلعت نقلا عن ابيه ، فتزداد الما وتزداد حنانا · ولكنها
كما تشعر الآن ، ترى أن عليها ان تواجه حياة هشة ، مع زوج
لا يحترم ابيها ، يستخف بها ، ولا قيمة البتة لكل ما كان يقدمه
من حب او رغبة · فكل هذا يوشك أن يتحول الى مصدر خطر ،
تهب منه عاصفة تجتاح كل شيء · وربما كان طلعت اكثر شرا من سيد
العتر الذى جاءها يعرض عليها الزواج بعد موت أبيها ، كان

ناعما ، وكان لا يستقر فى مكان ، يظهر لها فجأة فى الطريق ويعترضها ، وكأنه كان يراقبها او يتربص بها ، فيخفق قلبها خوفا منه • منذ بدأت تعي وتدرك ما يجرى حولها فى الحارة ، وهى تسمع الشتائم تنهال على الولد سيد ابن الأسطى العتر ، انه ولد شاذ بين الأولاد وربما لم ينج ولد فى الحارة كلها من مثل هذه الشتيمة او الاتهام • ولكن وسامة سيد ونعومته كانت ترفع الشتيمة او الاتهام الى مشارف اليقين • ولكن أخطر ما فى سيد هى انانيته الكامنة فى عينيه ، كأنه لا يرى بعينيه سوى نفسه ، كأن الجميع مرآة له • قال لها بصوته الناعم يحذرها من طلعت انه ابن المعلم ، ربنا فتح عليهم والمال كتر فى جيوبهم ، خرب الله بيوتهم • انه ليس طلعت الذى كنت اعرفه وكنت تعرفينه ، ليس طلعت الذى كان ينام الليالى فى حضنى ، وكنا لا نفترق ليل نهار ، ليس طلعت الذى كان ابى يعطيه قرشا مصروفا مثل القرش الذى يعطيه لى •• بينما ابوه الأسطى فرج يحرمه من المصروف ويكنز الصاغ فوق الصاغ •

يوم مات زكريا فى بيت الست منيرة ، كان سيد العتر هو الذى تطوع وحمل الجثة وعاد بها فى سيارة زبون عند الأسطى مرسى •

قالوا انه اكل الى حد التخمة فى فرح براس التين ثم كبس الأفيون على قلبه ، وسرت اشاعة لم يتحقق منها احد ، أنه مات فى بيت منيرة ، وهو يكنس لها السلالم ، ولم تهتم شفيقة كثيرا بتقصى الحقيقة • فقد كانت تتوقع الكارثة كل يوم ، ولو كان حدث غير ذلك ومات زكريا فى بيته وعلى سريره ، وبعد مرض طويل ، شأنه شأن اغلب الناس ، لكانت شفيقة شعرت بخيبة أمل ، لأنها اضاعت كل جهودها فى البكاء ، والولولة تتنبأ عبثا بأنهم سوف يحملون جثة زكريا ويدخلون بها عليها فى يوم قريب ، فعلى الأقل تحققت توقعاتها او نبوءتها ، ولم يخب ظنها فى هذا الأمر •

أيكون طلعت قد ذهب الى المأذون ليطلقها • مستحيل ، هذا

لن يحدث أبدا ، سوف يعود • لا لأنه يحبها ، ولا لأنها تحبه • سوف يعود لأنه لابد ان يعود • والا كيف رضى بالزواج منها • لماذا قبل هذا الزواج الذى ما كان يحدث بعد أن تغيرت أحوال الحاج مرسى وصار من اغنى اغنياء البلد • وما الذى جمع بين طلعت الباشمهندس ، وابنة الشحات الأفيونجى وشفيقة المعدمة • لم يتزوجها شفقة ، ولا عطفا ورثاء • انها اقدار حكمت وقضاء ابرم وهو لن يطلقها ، ولن يتركها ، لأن الأمر ليس فى يده ، واذا كانت قد طالبته بالطلاق • فهى تتحدى كل ما كان يدعوه الى عدم الزواج منها • كل اعداء الزواج • المال الوفير ، النفوذ والقوة ، العلم الذى حصل عليه فى المدارس • كل ما يفخرون به كل ما يدفعهم الى الفرار من امراة مثلها ، ابوها منولوجست غلبان ، لا اعتبار له • مهان ، خادم لمنيرة ، ومهزاة فى الأفراح وغرز الحشيش •

وربما لو لم يتم هذا الزواج ، الذى نفذته وفرضته ارادة عليا ، اقوى من البشر ، كانت اختارت لنفسها حياة أخرى ، او على الأصح كانت اضطرت الى حياة اخرى ، كانت سترضى مرغمة بأن تعمل مع الست منيرة وفرقتها • وربما كانت الآن فاطمة الراقصة اللولبية التى ورثت الفن عن ابيها الكبير المرحوم زكريا لم تتأخر منيرة عن شىء • مال او كسوة او طعام • ولكنها لم تستطع أن تحصل على رضاء فاطمة بالعمل معها • ما الذى تنتظرينه يا فاطمة • هل كانت تستطيع ان تقول لها انها كانت تنتظر طلعت ابن الحاج مرسى • ابدا ، أين هو واين هى • الحى الواحد الذى جمعهما له شوارع وحارات ، بيخرج منها الناس الى دنيا اخرى • ولقد خرج طلعت الى المدارس والجامعة ، بينما بقيت هى فى بيتها الحقير مع أمها شفيقة ، تعيشان من صدقة يرسلها الحاج مرسى او غيره من أسطوات الحى الذين يذكرون ان زكريا كان يغنى فى افراح أولادهم • او صدقة تتعطف بها منيرة ، وهى تنتظر ما يجب ان يكون ، أن تحل فاطمة محل ابيها فى الفرقة •

ما الذى حدث ، ما الذى جعلها تنتظر ، فى الحقيقة انها لم تنتظر ، ولم تتوقع ، كل ما فى الأمر انها لا تجيد لغة العقل

ولا تسمعها ، وهي تستسلم لهمسات غامضة ، مشاعر مبهمة ، واحيانا كانت تستسلم لما هو اغرب ، وهو تلك الهمسات فى جسدها ، همسات لها تاريخ ، وليس لها تفسير ، فمنذ الطفولة وهذه الهمسات تلازمها عندما كانت هى وطلعت يلعبان لعبة العريس والعروسة ، فى سطح بيت الأسطى مرسى ٠ وكانت تتركه يتفرج على غرائب جسدها المخفية ، وتتفرج هى على غرائب جسده المخفية ، جسدان مختلفان يشعران معا بانجذاب يشدهما ، له مذاق فى الفم واللعاب ، وله حرارة فى الصدر والأنفاس ، وله لسعة ورعشة فى الأطراف ٠ هذا الهمس لم ينقطع بينها وبين طلعت ، حتى وهو طالب فى الجامعة ، كان يكفى أن تلتقى عيناه بعينيها ، ليعاود جسدها همساته التى لا ترجمة لها ، وهى لا تريد ان تفكر ولا تريد أن تحلم ، ولا تريد ان تتمسح بضريح ولا خيال ولا امنيات ٠٠ كل ما كانت تريده ٠٠ او ربما تراقبه وهى فى دهشة من امرها ، هو تلك الهمسات فى جسدها وان جسدها يسعى وكأنه يرغمها على أن تواجه طلعت كل يوم ٠٠ كل يوم ٠ جسدها امام جسده ، عيناها فى عينيه ، هو يتنفس وهى تتنفس ، وهو ينظر ، وهى تنظر ، ثم هو يبتعد عنها ، وهى تبتعد عنه ٠

لو ان فاطمة عرفت كيف ادمن ابوها الأفيون ، ودرست كيف سيطر المخدر عليه ، لقالت : أنها تلقت الدرس الذى تصنع به الادمان ٠ ولكنه ادمان مشترك ٠ بينها وبينه ، وبين فاطمة وطلعت لا احد فيهما السبب ، ولا احد النتيجة ، كلاهما متفقان ، متوافقان ، كلاهما يشعر برعشة أحيانا واضحة واحيانا خفية وهو يواجه الآخر ، كلاهما يتغير مذاق فمه ولعابه ، وهو يواجه الآخر ٠ وكان لا مفر أن يراها وان تراه ، اذا لم تقابله فى ذهابه الى الجامعة فى الصباح ، انتظرت عودته ، اذا مرض اقتحمت بيته بأية حجة تطلب احسانا ، تطلب مشورة ، كان لابد ان يخرج لها ، وان يراها ، عندما لم يخرج من حجرته ذات مرة قالت للحاجة زوجة أبيه ، فأم طلعت ماتت وهو صغير ، أنها ستنظف لها حجرات البيت وتكنسها ، ولم تترك لها فرصة للرفض ، وكنست البيت ، وكنست

حجرة طلعت المريض ٠ ورآها بعينين محمومتين ، ورآته بعينين أكثر حمى وسكبت فيه من وجودها ، أكثر مما يستطيع ان يحصل عليه المدمن وهو فى تمام صحته وكانت لا تخطط ولا تدبر ، فهى تتصرف بفطرتها ٠٠ او غريزتها ، حتى جاءت تلك الأيام التى أرهق فيها طلعت من المذاكرة مع اقتراب موعد الامتحان ، وتلك الحالة النفسية التى اصابته ، فجعلته مكتئبا ، يطلق لحيته ويرفض المذاكرة وتنتابه تشنجات أشبه بالصرع ٠ وهمس العارفون من حكماء الحى للحاج مرسى ، ان شفاء مثل هذه الحالات معروف فحاجة الولد للمراة وما يعانيه من كبت هو سر كل هذا البلاء ٠ ولم يتردد الحاج فى مصارحة ابنه ٠ هل تريد ان تتزوج يا طلعت ٠ واجاب طلعت بغير تفكير نعم ٠ اريد الزواج ٠ قال الحاج على الفور وهو يدرك ان الظرف لا يحتمل التاجيل ، حتى يتفرغ المهندس لشهادته التى سوف تغير تاريخ الأسرة وتعيد كتابته ، انه سوف يختار لابنه احسن عروس فى مصر ٠

وكم كانت دهشة الحاج ، بل ودهشة طلعت أيضا ، الذى قال بغير تفكير ، انه يريد فاطمة ٠

كانت المفاجاة قاسية للحاج ، ورفض الاسم على الفور بدهشته ، وعدم تصديقه لما يسمعه ، ولكنه كان اعقل من ان يثور او يتفعل امام ابنه الصبى الغرير ٠

قال الحاج مرسى متحفظا بدهشته ومتحصنا بها ٠

ـ وهل يتزوج الباشمهندس صاحب الشهادة ٠٠ فاطمة بنت زكريا ٠٠ هل ترضى لنفسك بهذا ٠

قاطعه طلعت بصوت حاسم يحمل معانى لم تخطر ببال الحاج ، ان الأمر بالنسبة له الآن ، ليس فى الزواج ، انه فى المراة ، فى حاجة الى جسد لا يؤرقه التفكير فيه ، فى اطفاء رغبته فى فاطمة ٠٠ هذه هى الحقيقة ٠٠ هذا هو كل ما فى الأمر ٠ فاطمة اذا تزوجها لن تشغله عن المذاكرة ٠

صاح طلعت فى ابية :

— الذى يمرضنى ٠٠ انى أقاوم الاعتداء عليها لا اريد ان أغتصبها ٠٠ هل تفهم ٠٠ لو اردت أستطيع ان افعل ذلك ولن يقف فى طريقى شىء ٠

ادرك الحاج ابعاد الموقف ٠٠ وارتاح لما يقوله طلعت فهو لم يجن ، ولم يفقد عقله ٠ كل ما فى الأمر ، ان طاقاته المخزونة تبحث عن مخرج وهو لا يتحدث عن فاطمة كزوجة ولا أم عيال ، ولا مركز اجتماعى يسعى اليه ٠ الولد وضع الأمور فى نصابها انه يطلب فتوى من ابيه ، هل يأخذ البنت عنوة ، أم يحصل عليها شرعا ، فى حدود هذا الطلب ، من الممكن ان يحصل طلعت على فاطمة شرعا ، لأن الحرام يرتد الى نحر صاحبه ومرتكبه ، الولد لا يطلب اكثر من جارية سرير ، له ان يتمتع ، ثم يلفظها وقتما يشاء ، فهو لا يبدو انه يريدها لحياته ، يريدها فقط لمتعته ، ومثل هذه المتعة لها وقت ، ثم سرعان ما تتحول الى مصدر ملل وقرف ٠

قال الحاج منتعشا :

— يعنى كل ما تطلبه هو امراة ٠٠ لا زوجة ٠

اجاب طلعت وهو يدرك لأول مرة ، ان الشىء الذى يدمر عليه ، يثير كراهيته ، بقدر ما يثير رغبته وانه يشعر بالتحدى له بقدر ما يشعر بخضوع مهين له ٠ كان يكتشف لأول مرة ابعادا من الكراهية لفاطمة توازى تماما تلك الرغبة المحمومة فى الاستيلاء عليها ٠

— نعم ٠٠ كل ما أريده ٠٠ هو بنت الكلب هذه ٠

صاح الحاج :

— خذها واشبع منها وارحنا وأرح نفسك ٠

ثم اردف متعجبا :

— الولايا لهم رب ٠٠ من يصدق ان فاطمة تفوز بك ٠٠ وانى لا اجد فى نفسى رغبة فى مقاومة هذا الزواج ومنعه ٠٠ هذا لا يحدث ولا فى المنام ٠

ثم عاد الحاج يواسي نفسه ، ويفلسف قراره ٠

الواحدة كالبردعة ٠٠ تركبها وانت مستريح ٠٠ ولعل زواجك منها يكون صدقة مقبولة ، تشهد لنا يوم القيامة باننا رفضنا الحرام وأخذنا بالحلال ٠٠ ولكن غدا بعد ان تنالها سوف تتركها وربما تندم ٠

كل هذا شعرب ته فاطمة ، او سمعت أطرافا منه ، صارحها بها طلعت ، عندما يحتدم بينهما شجار ، انها ليست اكثر من بردعة ٠ ليست الا انثى لتصريف طاقات فائضة ٠٠ كلام وكلام ، يبدده حديث الجسد ، وهمساته ، ولكن الجسد انشغل بهمس آخر ، احتلته محاسن ٠ ومنذ ذلك الوقت والهمس يضعف ٠ ولا تستعيده الا اذا تحدث كل تلك الأسباب التى كانت تحتم الا يتم هذا الزواج ٠

غدا سوف يعود طلعت ٠ فلتأكل صحنا آخر من المهلبية ٠٠ وتحاول ان تنام وفى حضنها محاسن ، وفجأة شعرت بذعر يهاجمها ٠ واسئلة عن المال الذى فى البيت ، وتحولت حاجتها الى الطعام الى حاجة فى دولاب حجرة النوم ٠ جرت ترتعد كأنها مقبلة على مواجهة غول يفتح فم الفقر البشع ليبتلعها ، وفتحت الدولاب ، فوجدت النقود ، كان طلعت يقول انها عشرة آلاف امسكت بالرزم ، وشرعت تعدها فوق السرير ، ومحاسن نائمة بجوارها ٠

الفصـــل الخـــامس

عبد الحميد بك صفوت ـ النائب العـام ـ رجل محافظ ، المظاهر عنده لها اهميـة تبلغ حد القداسـة ٠٠ وهو يعرف كيف يحـافظ على مظاهره ٠٠٠ فاذا كان هناك شيء يتفوق فيه ، اكثر من معرفـة القـانون ، او فهـم المواقف السياسية ، وأحوال الناس الاجتماعية ، فهو طقوس المظاهر ٠

ومعروف انه تزوج زهيرة هانم لأنها بنت عائلة من كبـار أثرياء الفلاحين فى شمـال الدلتا ، امتازوا بمظـاهرهم الفخمة ، التى تجلت فى الأفراح التى أقاموها بمناسبة الزواج ٠ تحدث عنها المجتمع المصرى الراقى لأكثر من عام ٠٠ وقد تذكر عبد الحميد بك تلك الأيام الخوالى ، وهو يسمع من ابنه يونس ، ان المهنـدس طلعت فرج ابن المليونير المعروف فى الاسكندرية يريد أن يقـابله ليتقدم لخطبة سارة ٠

لم يكترث عبد الحميـد بك اول الأمر ، بالاعتراضـات التى ابداها يونس ، او لعله لم يسمعها ، فقد كان كل همـه ان يبلغ زهيرة هانم النبأ ٠ وان يعيش تلك اللحظـة الهامة ، التى يقول فيها لزهيرة ، ان ابن المليونير يريد أن يتقدم لنا طالبا القرب منا فى سارة ٠ وربما بعد أن يستقر هـذا المشهد ، بكل أبعـاده ، وهو مشهد فخم وجليل فيه مليونير يريد أن يتزوج من ابنته ، يمكنه بعد ذلك أن يفكر فى الأمور الأخرى ، مثل بحث أوجه الاعتراض التى يبدو ان يونس يريد أن يثيرها ٠٠ وهو على أية حال شاب

حالم لا صلة له بالدنيـا ، حيلته قليلة ٠٠ وعزوفه عن المظاهر واضح ٠ وهذا هو ما قالته زهيرة هانم عندما دخل عليها عبد الحميد حجرة النوم فوجدها راقـدة فى السرير تستريح من ارهـاق مستمر لازمها فى السنوات الأخيرة تعالجه بأقراص المهدئات التى تتعـامل معها وكأنها الأمل الوحيد لها لتحصـل على بعض الراحة السكينة فى هـذه الحياة ٠

كان يونس يتحدث عن فظاظة طلعت ، وعن سوقيته ، بينما يقول عبد الحميد لنفسـه ٠ كل ما اريده هو أن أحـافظ على مركزى ، لا اريد شيئا أفضـل مما أنا فيه الآن ٠ ولن اطمع فى ان اكون ملكا أو رئيس جمهورية ، ولقد أخـذت ما فيه الكفايـة من السلطة فى القضـاء ٠٠ حكمت بالبراءة كما حكمت بالاعـدام ٠ ووقف امامى كبار الوزراء يترافعون ٠٠ وتحول بعضهم الى متهمين، ولقد حاربتنى الثورة لانى من عائلة اقطاعيـة ، وحاربت عائلة زوجتى ، وأخرجونى من القضـاء ، خلعنى المجرمون عن عرشى ، ولكنى عدت اليه ، وهاأنذا فى اكبر المناصب نفوذا وهيبة وسلطة ٠ فأنا النائب العام ٠ وكل شيء على ما يرام ، لولا ان أمامى سـنة واحدة وابلغ الستين وأحال الى المعـاش ، وفى هذه السنة ، هذه الشهور ، بل هذه الأيام ، يجب ان أحافظ خلالها على حصيلة العمر كله ٠٠ يجب ان اجمع فى بوتقة أيامى الحـاضرة كل المـاضى وكل المستقبل ، وأن أعمل جهدى على أن تتحقق المعجزة ، وأن أبقى فى منصبى ٠ وأن يصـدر قرار من رئيس الجمهورية بمد فترة خدمتى سنتين أو ثلاثا ٠ ان كل لحظـة تمر الآن هى لحظة سلطة ، لحظة نفوذ ، لحظة تأكيد حاضر قوى بلغ ذروة قوته ، يدافع عن نشـوة هذه الذروة ٠٠ وزهيرة عاجزة عن التفكير فيما أنا فيه ، انهـا لا تفكر فى احتمالات المستقبل ، وتتعامل مع الحـاضر وكأنى نائب عام أبد الدهر ٠٠ وهـذه واحدة من الهموم الثقيلة التى يجب ان اواجهها ، ولكن كيف ٠ أحيانا يخيل الى أنها جنت ، عندما تحدثنى عن بناء فيللا فى العجمى ، وتقول لى انها ستطلب من المهنـدس المعمارى أن يعد لى جناحا مستقلا على نظـام السلاملك فى بيوتنا

القديمة ، يليق بى وانا نائب عام ان استقبل فيه المحامين العامين ورؤساء النيابات ، وانا فى المصيف ، عندما يأتون الى لمناقشة القضايا السياسية الكبرى التى تكتب عنها الصحف ، وتنشر صورتى واسمى فى صدر الصفحات . ترى هل تتحقق المعجزة ، فأرى نفسى جالسا بعد سنوات فى تلك الفيللا على شاطىء البحر واسطول من سيارات المحققين الذين يسيطرون على سلطة الاتهام باسم المجتمع وباسمى انا شخصيا ، مرصوص امام سور الفيللا الذى يقف عليه الحراس . وامامى الشاطىء وامواج البحر وانا القى بتعليماتى وتوجيهاتى واصدر قراراتى واوقع بامضائى على الأوراق .

كانت هذه الهمسات والصور الحالمة تجتاح راس عبد الحميد ، لتقاوم اعتراضات يونس ، التى اصبحت غير واضحة ولا محددة ، بينما هناك بريق امل ان تكون صلة النسب بالمليونير مرسى فرج طريقا مضمونا نحو الهدف المطلوب ، وهو مد سنوات الخدمة لعبد الحميد بك الذى نظر الى ابنه قلقا ، يخشى ان يهتم بكلامه فتتحطم آماله .

ولكنه لن يظهر شيئا مما يعانى منه ، انه قادر دائما على المحافظة على المظهر ، وهو دائما امام الجميع ، الرجل القوى الذى يستطيع ان يصدر القرار فى اية لحظة .. حتى لو كان الضعف ينهشه والمخاوف الحقيقية تراوده ، وهو يرى الأيام تجرى نحو وقت الاحالة الى المعاش والشيخوخة والمرض وانحسار كل مظاهر القوة والسلطة والنفوذ .. ومن يدرى فقد يأتى مع كل هذا الفقر .. والحاجة الملحة الى المال ، فتكاليف الحياة تزداد ، ونفقات زهيرة وسارة تتضخم ، ان فستانا واحدا تشتريه واحدة منهما يساوى مرتب شهر . كيف يلاحق هذه المصاريف ، ربما يكون الأمل يوما ما فى يونس ، عندما تتدفق عليه أموال البترول ، فيسعفه بالمال ولكن هذا الخاطر مزعج أشد الازعاج ، انه هزيمة نكراء لكل المظاهر ، ان ينفق الأبناء على الآباء ، امر اشبه

بالكارثة ، وهو يتمنى الا يضطر اليها والا يأتى اليوم الذى يحصل على المعونة حتى ولو فى السر من ابنه . هل يأتى الزمن الذى يعد فيه نفسه لهذا المشهد التعس .. الذى يطلب فيه من يونس معونة مالية ، ترى اية لهجة ، واية كلمات يلجأ اليها .. أيقول متوسلا .. المعاش لا يكفى . دخل الأرض لا يكفى ، مصاريف امك زادت ، الحياة صعبة .

ارتجف عبد الحميد صفوت فى اعماقه ، وقاوم بنجاح اى مظاهر خارجية لقشعريرة تسرى فى اوصاله ، وهو يتساءل بينه وبين نفسه ، اذا ما كان عليه ان يتملق ابنه ، فقد يحتاج اليه : فى المستقبل ، او يتجاهله ، رغم ما يبدو عليه من ضيق شديد بالعريس القادم ، ويمضى قدما فى مشروع الزواج الذى يفتح باب الأمل فى معجزة استمرار السلطة والنفوذ ، وانطلاق احلام زهيرة فى المجد الدائم المتصل . وها هى زهيرة تتحدث فتنقذ الموقف ، بكلام عملى رائع فهى ليست حالمة تماما . وليست مجنونة كما يشك أحيانا من كثرة ما تبتلعه من اقراص المهدئات حتى ينتفخ وجهها وتتورم عيناها . انها نشيطة تماما الآن .. تتحدث عن حبها لسارة ، وعن تصميمها على ان تتزوج احسن وافضل الأزواج وتتحدث فى نفس الوقت بلباقة ومهارة تحسد عليها عن العروس التى ستختارها ليونس ، ستكون اميرة بين الأميرات جميلة بين الجميلات ، تسبح فى النعيم والمال ، انها تنقل بحديثها عبد الحميد زوجها ، ويونس ابنها ، الى عالم اشبه بعالم الأساطير . ولكن يونس ينتفض ، ويقاوم هذه الموجة من التفاؤل ، ويرفع صوته على غير عادته ، انه يريد راى سارة ، عندما تعود من زيارة صديقتها ، وهو واثق انها سترفض .. اما عن الأميرة التى تتحدث عنها أمه كزوجة له . فهو يقول لأمه . انه لم يبق فى مصر أميرات ذات مال ، فالثروات مع المهربين والمختلسين وتجار المخدرات . أليس كذلك يا أبى . أليس المتهمون هم أصحاب الملايين بينما المحامون من الوزراء السابقين ، وكبار رجال الدولة ، هم الذين يتحركون كحاشية لهم .

لم يجب عبد الحميد بك على تساؤلات ابنه ، ولكنه كان يرى فى خياله ، السيارات المرسيدس تتجمع عند سراى النيابة ، يهبط منها اصحاب المال ٠ والنفوذ ، تحوم حولهم التهم ، بينما سيارته الحكومية ذات الموديل القديم طالب بتغييرها بالحاح وتوشك السنة المالية أن تنقضى قبل أن تصله المرسيدس التى وعدوه بها٠٠ هذه السيارة الحكومية جريمة فى حق مظهره ٠ انها تعلن بقسوة لا مبرر لها ، أن مستواه اقل من مستوى المجرمين المتهمين ، والمدافعين عنهم ، والذين يتوسطون لهم ٠٠ ان مظاهرة مثل هذه ، كفيلة فى رأيه بأن توجه الى العدالة طعنة فى الصميم ٠ فالعدل هيبة ومظاهر ٠ لأن الناس تحترم المظاهر قبل ان تحترم الحكمة ، وتأمن فى كنف الهيبة اكثر من امانها بالمنطق واحكامه ٠

قالت زهيرة لابنها تحسم الأمر ، ان الأفضل الا يقول شيئا لسارة ، حتى ترى طلعت بنفسها وتحكم عليه ، وهنا قال عبد الحميد بك ٠٠ انه مهما كان الأمر ٠٠ فان اللياقة ، تقتضى الا يواجه يونس زميله الذى هو ابن شخصية بارزة فى الاسكندرية برفض المقابلة ٠ وانه لا داعى للمواقف العصبية أو المتشنجة ، فليس هذا من شيم العائلات الكبيرة التى تعرف الأصول ٠٠ ولذلك هو ينتظر المهندس طلعت مرسى فرج ويرحب بزيارته ، دون أن يتعهد بشىء ، او يتورط فى كلمة تصدر منه ٠٠ وانه موافق تماما على أن الأمر متروك لما تراه صاحبة الشأن ، سارة ٠

فى صباح اليوم التالى لهذه المناقشة التى جرت فى بيت النائب العام ، فوجىء يونس بأن طلعت قد جاء الى القاهرة ، قبل ان يسمع منه ان والده قد حدد له موعدا ، وهكذا بدا ليونس كما لو كان طلعت مصمما على ما يريده فى وقاحة وغرور لا نظير لهما ولكن عبد الحميد بك رحب باللقاء فى بيته عصر نفس اليوم ٠

انتظرت سارة وصول الجاجوار من نافذتها ٠ وكانت أمها قد اخبرتها بأن العريس ابن المليونير قادم ٠٠ وطلبت منها ان

تتظاهر امام شقيقها بأنها تجهل الأمر ٠٠ فضحكت سارة ، وكان فى ضحكتها ما جعل زهيرة تستريب فى الأمر ٠٠ ولم تتركها سارة نهبا للهواجس ٠ فقد حكت لها ما حدث من طلعت فى الاسكندرية ٠ وكيف انه عرض عليها ان تركب معه سيارته الجاجوار ، وأنه اراد أن يغازلها ، لولا أنها هددته بأن ترسله الى السجن اهتمت زهيرة بهذه الأسرار التى لا يعرفها يونس العبيط ، كان يظن انها سوف ترفض طلعت ، لأنه يبدو كما لو كان من السوقة ٠٠ وضحكت سارة مع أمها ، وهما يقرران بسرعة أن صاحب الملايين من المستحيل ان يكون من السوقة ، وان كل ما ينقصه هو المرأة التى تعلمه كيف يكون وجيها بين الناس ٠٠ وان طلعت قد اظهر انه يحبها ، وهو بملايينه ، صفقة لا ترفض ٠٠ وفرصة من فرص العمر ٠

واذا صح ما يقال عن جاذبية السيارات ، فها هى الجاجوار تجذب بقوة أنظار سارة ، ويهبط منها ذلك الشاب الربعة المدكوك ، يتقدم الى بوابة الحديقة ويتبادل الحديث مع الحارس ٠٠ ها هو مشروع الزجيه الجديد ، ابن الذوات الجديد الذى ستتولى صناعته ، واضح من مظهره ومن مشيته ومن الطريقة التى يلوح بها بيديه ، انه من وسط اجتماعى مختلف ٠ ان مثل هذه الأشياء يستحيل اخفاؤها ، حتى مع الثراء والبذخ الشديدين ، لابد من وقت ، قبل أن يتعلم ويتعود ، وتتغير حركاته ولفتاته ، ويتغير صوته ، ويتغير جلده ٠ وهى تقبل أن تتولى مهمة التغيير ، أن تحول هذا الجلف ٠٠ أن تغسله وتنظفه وتهذبه وتقطع اية صلة بينه وبين ماضيه ٠٠ لأنه سوف يدفع ثمنا يفقأ عينى أى ناقد او معترض ، ثم هو يريدها ، ومثله سوف يركع تحت قدميها ، ويعمل على اسعادها ، ويتمنى ان يرضيها بأية وسيلة ٠ ولا شك فى رجولته وفحولته ، نعم انها لا تمانع ، وسوف تدخل التجربة ، فمهما كان الأمر ، سوف تسكن قصرا وتركب افخم السيارات ، وتجوب العالم فى أفخر الفنادق ٠ كل ما هو مطلوب الآن ٠٠ هو ان تطمئن الى أن هذا الشاب من الممكن ترويضه ، وانه جاء بالفعل

يطلب الخضوع ، جاء يستسلم لأسياده ويقول لهم امنحونى بركتكم ، وادخلونى فى زمرتكم وانا على استعداد لأن ادفع الثمن ·

دخلت زهيرة على طلعت ·· وهو يجلس مع النائب العام ، فصدمها مظهره · جلف ادبه مصطنع ، يحاول ان يتظرف ، ولكن سوقيته فاضحة · يتكلم عن يونس وفى عينيه سخرية ووقاحة ، ولكنه بكل تأكيد قوى ، يتحدث بطريقة فظة عن الثروة التى يملكها ، والتى سيضعها تحت تصرف ابنتهم ·

يتحدث بزهو شديد عن ابيه ، الذى سوف يأتى حتما بعد هذا اللقاء التمهيدى ، ليتقدم رسميا بطلب يد الهانم الصغيرة · انه الآن مشغول بأصدقاء اجانب فى ضيافته بالاسكندرية ، وهو مريض ، حركته محدودة ، ولاحظت زهيرة انه يتحدث عن مرض ابيه بلا نبرة شفقة أو أسى ، بل كادت تلمح ما تخيلت انه طيف ابتسامة لها مغزى وكأنه ما ذكر مرض ابيه ، الا ليقول أن الملايين توشك أن تنتقل اليه بعد قليل · ولذلك لم تتمالك ان تسأله ·· عن اشقائه · فأجابها ساخرا ان عددهم كالأرز ·· كثيرون ، ثم عاد وقال انهم عشرة ، ثم صحح الرقم وقال انهم اثنا عشر من ثلاث زوجات ·· وان أمه كانت الزوجة الأولى للأسطى مرسى الميكانيكى ، قالها ضاحكا ، وكأنه يمتحن رد الفعل ، عندما يذكر لهم فى عقر دارهم انه ابن الميكانيكى ، وليس ابن الباشوات والبكوات ، وهو يمتحن من مركز قوة ، وبلا أدنى خوف ، أو تردد ، فهو يلقى الكلمات تتحدى وتستفز ، دون أن يخطر بباله ان الذين يستمعون اليه قادرون على ردعه ، أو مهاجمته وكان محقا فى توقعاته · فعبد الحميد صفوت كان مشغولا رغما عنه بمدى صلة الأجانب الذين يستضيفهم المليونير مرسى فرج بالسلطة ، وما تأثير ذلك ، فى مد خدمته بعد المعاش · أما طلعت فهو يواصل اجابته بوقاحة نادرة على سؤال زهيرة ، فيقول لها : ان المهم هو ان ما يرثه عن أبيه لن يقل بحال عن عشرة ملايين · أغلبها باسمه اليوم حتى لا يتورط فى دفع ضريبة التركات · انه ذكى جسور ، لا يتورع عن شىء هكذا أصحاب الملايين · وهو يفرض قوته · فيكاد يجعل من سوقيته شيئا

لا معنى له · ان تهذيب مثل هذا الرجل هو نوع من الرفاهية ، نوع من الدندشة ، التى تضاف الى القوة التى يملكها ولا يحتاج فى حقيقة الأمر الى سواها ليفرض وجوده ·

تحدث عبد الحميد صفوت عن اتجاه الحكومة اليوم مع الانفتاح وصداقة الأمريكان ·· فقال له طلعت : ان هؤلاء الأمريكان قادرون على ان يفعلوا أى شىء ، فهز عبد الحميد بك راسه مؤمنا على كلامه ، وهو يشعر بغبطة غير عادية ، ان ابواب مد خدمته تتفتح امامه ·

كان يونس يرقب كل هذا ، وهو لا يكاد يصدق ما يراه ، وكأن اباه ليس أباه ، وكأن أمه ليست امه · بل وكأن طلعت ايضا ليس هو طلعت الذى يعرفه · لقد تغير مع تغير الظروف ، فهو يتعامل مع والده معاملة الند ، بينما ينكمش أبوه ، النائب العام ، فى مقعده ، انكماشا كان يبدو اول الأمر نوعا من التحفظ ، لولا تلك الأسئلة التى يثيرها ، عن الانفتاح ، وعن الأجانب ، ونفس الشىء حدث لأمه ، فقد كانت متعالية فى بداية اللقاء ، يكاد يجزم ان فى عينيها قرفا من هذا الضيف · وكان من المنطقى ان تثور اعصابها بعد هذه المعاناة من القرف والاشمئزاز وتطرد طلعت ، ولكنها لم تفعل ، وها هى تسأله عن اشقائه ، وطلعت يجيب ويضحك ، ويتحدث عن الملايين التى يملكها ويلعب بها ، أو يلعب بأعصاب سامعيه ·

وانتاب يونس احساس بالغربة كأن وجود طلعت قد طرده من بيته ، وعاد يفكر فى البحر ، أو يتذكر نظراته الشاردة فى الأفق البعيد عبر الأمواج ، انه لا يكاد يفهم ما يراه وما يسمعه ، من اين جاء ، حتى يشعر بهذه الغربة ، أليس هو ابن هذا الأب ، وهذه الأم لماذا هما قادران على مواجهة طلعت ، بينما يزداد هو بعدا وعزلة ·

ودخل الخادم بعربة الشاى ، وهنا كان امتحانا جديدا لزهيرة عندما خرجت تلك الأصوات المنفرة من طلعت وهو يشرب الشاى

وبحلقت مذعورة بعينيها ، ولجأت الى يونس ، الذى نظر اليها مستنجدا لعلها تعيد الامور الى نصابها ، أن تعبر عما تشعر به ، ان تصدق فيما تقوله ، وهى التى ظلت سنوات عمرها تحسم مواقف أكثر تفاهة مما تواجهه الآن • وترفض اللقاء بالرعاع ، الذين لا يعرفون آداب الكلام والسلوك الاجتماعى • وكانت زهيرة تحدث نفسها ، بهذه المصيبة التى تراها ، واى جهد لابد ان تبذله سارة مع الخنزير الذى امتدت يده وامسك بأصابعه قطعة جاتوه « ميلفى » يأكلها بشراهة ، فيتناثر فتاتها على صدره ، ويلتصق السكر بشفتيه فيلعقه بلسانه •

وقفزت زهيرة واقفة ، ها هى قد كشفت عن حقيقتها ، وسوف تنهى المقابلة ، أو تخرج من الحجرة وتترك هذا المشهد الوضيع ليواجهه الرجال وحدهم ، ولكنها لم تفعل شيئا من هذا ، كانت تمسك بفوطة ، تقدمها لطلعت ، وتطلب منه أن يمسح الفتات عن صدره وفمه •

واخذ طلعت الفوطة منها باسما ، واعتذر لها بذكاء شديد ، عن همجيته ، وقال لها : انه انسان غير متحضر ، يقضى معظم وقته فى الصحراء ، ولكن ها هى الفرصة تتاح له أن يتحول الى انسان متحضر •

كلمات بسيطة قالها ، فأشعل حماس زهيرة • انه قادم ليستسلم ، ليخضع ، وليتعلم • انه يشترى ، انه محتاج ، انه يعترف بعجزه رغم قوته ، هل هناك ما هو أفضل من ذلك •• أن تشعر الزوجة انها قادرة على السيطرة على زوجها رغم قوته •

عندما انصرف طلعت ، نادت زهيرة سارة ، وقالت لها ، ان عريسها جاء يخطبها ، وفاجأت سارة شقيقها بأن قالت انها رآته وهو يركب الجاجوار خارجا من البيت • كانت تطل بالصدفة من نافذتها • ولم تبد خجلا او حياء •

تحدثت كما لو كانت تملك بالفعل الجاجوار ، والملايين التى يملكها طلعت •

قالت :

ــ لا مانع عندى •

وصاح يونس غاضبا ، ربما من نفسه ، اكثر من غضبه منها ، لانه عجز عن فهم حقيقة مشاعرها •

ــ أليس هذا هو ما سخرت منه ؟ •

قالت سارة :

ــ لن اترك هذه الملايين •• انها تصنع المعجزات •• والتفت يونس الى أبيه يائسا •

وكان عبد الحميد بك صفوت ، قد استعد للموقف النهائى الذى يحافظ على المظاهر • واستعان هذه المرة بأسلوب التحقيق فى القضايا السياسية الهامة ، فقال بتؤدة شديدة ، وكأنه فى مؤتمر من المحامين العامين ، شارحا كلماته الأخيرة التى قالها لطلعت مودعا :

ــ الآن ، أمامنا خطوة لابد منها قبل اى شىء •• وقبل ان أعطى كلمة للباشمهندس طلعت •• لابد ان اتصل بمحافظ الاسكندرية واطلب منه التحرى عن أخلاقه •• ليطمئن قلبى • واتخذ قرارى • لذلك لم اظهر له موافقتى •• ولكنى لم اظهر له انى سارفض •

كان يتكلم بلهجة مطمئنة واثقة ، واستمعت اليه زهيرة ، وهى معجبة باتزانه ووقاره • وزادت سارة تعلقا به ، وهو يعلن لها عن موافقته بهذا الأسلوب الرائع ، الذى يحافظ على مظاهر الاتزان وعدم الاندفاع •

وهمس يونس :

ــ يعنى أنت موافق •• ولن تعدل عن رأيك ؟

قالها ، وكأنه ينتقم ، ينزع استار المظاهر ، ويكشف استسلامهم ، ولهفتهم جميعا على المال •• يفضح عجزهم وخواء

نفوسهم امام صاحب الملايين . وضياع كل القيم التى زعموا انهم يعيشون بها ، عن أجدادهم وأسلافهم ، وضياع تقاليد الأصالة والنبالة ، والتعالى على السوقية وعبادة المال .

قال النائب العام مواجها اتهام يونس ..

ـ سأوافق .. عندما يقول لي محافظ الاسكندرية ، انه لا مأخذ على سلوك زميلك ..

قالها بثقة ، رفعت معنويات زهيرة ، وسارة ، انه لن يتحمل وحده مسئولية الزواج ، بل المحافظ هو اول من يصدر القرار . وهذا ضمان كامل للمظاهر . لن ينكره او يعترض عليه احد .

ووجه النائب العام ضربته المضادة ليونس قائلا فى وقار :

ـ لا تنس يا ابني أنك الذى جاء بهذا العريس زميلك فى العمل ..

وشعرت سارة ، بأن يونس غير مستريح . فاقبلت عليه وامسكت بيده ، وقالت وهى تنظر فى عينيه فى رقة :

ـ اعلم انك تدافع عنى ، وتظن أنى اقبل الزواج منه رغم انى اتهمته بالسوقية ، لاننى محتاجة الى امواله ، ولكن هذا غير صحيح .. صدقنى أنى أتزوجه بنفس الشعور الذى عندك عندما قبلت العمل فى شركة البترول حيث تتحمل الحياة على غير ما تعودتها فى معسكر ، حياة خشنة مرهقة .. ولكنك تمارس عملا وتؤدى واجبا .. وانا اريد أن اعمل فى مشروع طلعت .. مشروع أن أجعل منه انسانا محترما ، بعد أن عجز على احترام نفسه ، رغم كل ما يملكه من مال ..

ثم ابتسمت قائلة بدلال :

ـ وما المانع يا أخى من وجود المال ..

قال يونس :

ـ ان مشكلته ليست فى عدم احترامه لنفسه ، انه لا يحترم أحدا على الاطلاق سوى نفسه .

قالت سارة :

ـ هذا غير صحيح .. انه ضعيف اكثر مما تتصور ..

قال يونس محتارا :

ـ لا أفهمك ..

فضحكت سارة قائلة :

ـ لأنك لست امرأة ..

وهنا اختتم عبد الحميد بك صفوت المناقشة بحزم قائلا :

ـ هذه المناقشات لا معنى لها .. حتى تصلنا التحريات .

وقالت زهيرة :

ـ نعم .. غدا صباحا .. تتصل بالمحافظ ..

قال عبد الحميد بك :

ـ سأطلب منه ايضا .. ان يتصل بمرسى فرج .. ليعرف حقيقة موقفه من طلب ابنه ..

قالت زهيرة باهتمام واعجاب :

ـ هذا ما يجب أن نتأكد منه قبل اى شىء .. فقال عبد الحميد بك وهو يهز راسه بتؤدة :

ـ وهل يفوتني امر مثل هذا يا زهيرة ؟ !

الفصل السادس

اهتم شهدى ابو اللطف محافظ الاسكندرية· بتلك المكالمة التليفونية الخاصة من عبد الحميد صفوت النائب العام فها هو الرجل المحافظ المتزمت ، الذى يتعامل بالرسميات · ويبتعد عن العلاقات العامة والاتصالات الاجتماعية ، يلجا اليه فى خدمة شخصية ، ويريد ان يجعل منه واسطة خير فى عقد قران مزمع بين ابن مرسى فرج واحد من اهم رجال الاسكندرية ، واكثرهم مالا ونفوذا ، وابنة صاحب سلطة الاتهام فى الدولة ·

ان المحافظ لسعيد حقا بأن يكون له دور فى هذه المصاهرة الهامة · انه يعرف جيدا أن كل طلبات مرسى فرج لابد أن تجاب · فهو لو غضب ، غضب معه ، مستثمرون امريكان وطليان ، وغضبت الرياسة ، وغضبت الصحافة ، ليس فى مصر وحدها ، بل سوف ينهال النقد فى كبريات الصحف الأمريكية والأوربية ، يتهم الادارة المصرية بمرض البيروقراطية وتعطيل الانتاج والفساد · ولقد تلقى المحافظ درسه كاملا ، عندما وبخه رئيس الجمهورية فى اجتماع عام بسبب تكدس البضائع فى الميناء · وكان المحافظ يعلم ، كما يعلم الرئيس الذى يوبخه أن هذا التوبيخ بسبب أوامر اصدرها المحافظ خطأ ، باعطاء الأولوية فى التفريغ لمواد تموينية كان يعتقد أن الحاجة ماسة اليها وعاجلة ، ولن يحدث ضرر اذا ما تأخرت عملية تفريغ حاويات مرسى فرج يوما واحدا · كما تعلم المحافظ الا يخدعه مظهر التواضع الشديد الذى يبدو به

مرسى فرج ، وهو تواضع يجمع بين ادب الجرسونات الذى نقله مرسى عن صلته القديمة بيونانيين وطليان أيام كان يعمل ميكانيكيا فى ورشة ماركو وديلانى بالاضافة الى ادب وتواضع الحاج المسلم التقى الورع ، وعندما يزور شهدى ابو اللطف مكتب مرسى فرج فى شارع النبى دانيال ، يهتم مرسى بأن يدير تسجيلا لواحد من مشاهير المقرئين ·· فيختلط الحديث بصوت التلاوة ، وهو ما فسره شهدى بذكاء ضابط المخابرات السابق ، بأن مرسى فرج يحاول أن يضفى جوا من الايمان والدين ، يعوض به ما يشعر به من نقص فى ثقافته · وهو نقص يبذل الرجل جهدا كبيرا لتغطيته والتغلب عليه ، حتى أنه أحيانا يستعمل كلمات ايطالية أو يونانية فى حديثه ، فى نفس الوقت الذى يدعم فيه حضوره بتلاوة القرآن ·

وقد سمع شهدى ابو اللطف من عبد الحميد صفوت أن المهندس طلعت تقدم يطلب يد ابنته ، كان أول انطباع له ، انه سمع فى مناسبة ما انه متزوج · ولكنه احتاط فلم يخبر النائب العام بهذه المعلومات التى لم يكن واثقا منها · كل ما قاله · هو انه كان يظن أن هذا المهندس متزوج ، ثم تراجع أمام ارتفاع صوت صفوت هادرا من التليفون ، لابد أن يكون شخصا آخر الذى يتحدث عنه ، لأن المهندس طلعت كان يزوره بالأمس ، يطلب يد ابنته ·

وفرح شهدى لانه توقع أن يكون مرسى فرج سعيدا بهذه المصاهرة بين ملايينه وسلطة الاتهام ، ولا شك أن عملية الزواج هذه ، مشروع خطط له مرسى فرج وهو يقوم ببسط نفوذ امبراطوريته ، وانضمام عبد الحميد صفوت الى عائلة هذه الامبراطورية ، مفيد حقا ، وهو يطمئن شهدى ، الذى اصبح يعتمد فى كثير من تصرفاته وقراراته على نشاط مرسى فرج · وهو يساهم فى عضوية مجلس ادارة بنك الاعتمادات الدولية ، وشركات الفنادق والبلاستيك والأخشاب التى يمتلك اسهمها مرسى فرج ، وقد أرسل له منذ اسبوع هدية عبارة عن اسهم تاسيس فى شركة الملاحة الجديدة ، التى ستساهم فى عمليات نقل البترول فى البحر الأبيض المتوسط ·

طلب شهدى موعدا مع مرسى فرج ، وذهب لمقابلته فى بيته بحى الفراعنة . وما كاد شهدى يفتح الحديث فى الموضـوع الذى جاء من اجله ، حتى أدرك ان الحـاج ليست لديه اية معلومات · ولكنه كما توقع ، بدا عليه الاهتمام والترحيب بالأمر · فقد أعـاد سؤال شهدى عن تلك المكالمـة التى تمت بينه وبين النائب العام ، وماذا قال له · وكرر السؤال ، واستمع لمـا يقوله شـهدى بدقة وحذر ، ثم انفرجت أسـاريره ، وقال انه كان يتوقع ان يقوم طلعت بهذه الخطوة · وانه قد آن اوانها · ولكنه لم يكد يعلن رايه ، حتى قال لشهدى وهو ينظر فى عينيه نظرات قوية فيها مزيج من الأمر والرجـاء :

ـ اسمع يا شهدى ·· طبعا هناك مشكلة ·· ولكنها بسيطة ومقدور عليهـا ·

وروى مرسى لشهدى ان طلعت متزوج ، وانه أب لبنت توشـك ان تبلغ الثالثة ·

قال شهدى وهو يبتلع ريقه والمشكلة تبرز واضحة أمامـه :

ـ ولكن صفوت بك ليست لديه اية فكرة ·

فقاطعه مرسى فرج بحسم :

ـ ولا داعى لأن يعرف ·· لأن طلعت سيطلق البنت ، وكان الزواج لم يكن · كان طيش عيـال ·· تزوجهـا وهـو فى البكالوريوس ·· لعب عيال ·· لكن منذ اليوم ستكون هـذه الزوجة تحت مسئوليتى انا ·· وهى وابنتها ·· ولا شأن لطلعت بهما · هـذا هو ما قدرته منذ سنوات ·

همس شهدى مترددا :

ـ ولكن صفوت بك ·· يجب ان يعرف ·· بمثل هـذه الأمـور ···

فقاطعه مرسى فرج محتدا :

ـ طبعا سيوف يا شـهدى ·· وأنا الذى سيقول له ··

ولكن ليس الآن ·· بعد ان يتم الطلاق ·· بعد ان تنتهى هـذه الحكاية ·· وسوف انتهى منها الليلة ·· لن احرجك يا شهدى ·· ويمكنك ان تحدد من الآن موعدا مع صفوت بك لاقابله ·· ولكن أترك لى الأمر ·

وافق شهدى ابو اللطف على الامتثال لرغبة مرسى فرج ·· وما كان يتوقع ان يفعل غير ذلك ، لولا انه لمـا عاد الى مكتبـه فى المحافظة ، بدات هواجس تحاصره ، وتثير مخـاوفه · ما أدراه ان مرسى فرج يخفى اشـياء اخرى عن ابنه طلعت · ربما تزوج اكثر من واحدة ، ربما له أكثر من طفل وطفلة · وهو لا يستطيع ان يغامر مع النائب العام فيشترك فى الكذب عليه ، وفى امر يأتمنه عليه ، امر ليس بالهين ، فهو خاص بزواج ابنته ، ومصاهرة ، وزواج سيكون حديث كل الناس ، هل يحتمل عداوة النائب العام ، هل يحميه مرسى فرج أم يتخلى عنه ، ويفقد كل شىء ، انه وضـع محرج ، ولابد ان يجد لنفسه مخرجا منه ·

قضى شهدى أبو اللطف ، ساعات قلقة ، حتى اهتدى لحـل مؤقت ، وهو ان يطلب تحريات خاصـة عن طريق مـدير الأمن والمباحث ، عن المهندس طلعت ، وزوجته ، وأولاده ·· وعلى ضوء المعلومات التى تصـل اليه سوف يتخذ قراره فى عدم ابلاغ النائب العام أو ابلاغه ما لديه من معلومات ·

وهكذا طلب مدير الأمن ، وقال له بعض الحكاية ، وطلب المدير رئيس المباحث الذى كلف احد ضباطه بالتحرى · وكان كل واحد يهمس للآخر بالسر ·· المهندس طلعت سيتزوج ابنة النائب العام · وهو السر الذى استمر الذين يقومون بالتحرى يهمسون به ، حتى وصلوا الى اهم مصـدر للمعلومات فى نظرهم ، وهو سيد العتر · وكان الضـابط الذى استدعاه حريصـا كل الحرص على ان يجمع كل ما يمكنه من معلومات ، لذلك أخبر سيد العتر بخطورة الموضوع ، وانه خاص بزواج ابنة النائب العام ، شقيقة يونس الذى تسوق سيارته ، هو والخطيب المتقدم للزواج ، طلعت ابن مرسى فرج ·

عندما برز سيد العتر فجأة أمام باب فاطمة ، وثب قلبها بين ضلوعها ، ادركت بحدسها انه يحمل انباء سيئة ، وربما ساعد على احساسها بذلك بريق فى عينيه ، وأنه لا يحمل بين يديه شيئا ٠٠ فطلعت الذى اختفى لم يرسل معه ما يسترضيها به ، وهى مضطرة الى ان تسمع ما سوف يقوله ، ولسوف يؤلمها ما يقوله ٠

بادرها سيد بتحية تمتم بها ، وعيناه تبرقان ، تفحصانها . كانه يبحث عن النقطة التى يصوب اليها السهم الذى سيطلقه ٠ يبحث عن نقطة ضعفها ٠ كأنه لا يعرف ان ما يصيبها ، انما يأتى من العيون ٠ نقطة ضعفها هى العيون التى تراها ، فالعيون قد تسحرها ، او تحسدها ، او تحيرها ٠ العيون قادرة على أن تفعل بها كل شىء ٠ احيانا ترى العيون تقتحمها فتشعر بالاهانة او تشعر باللذة ، أما عينا سيد فهما تلمعان وتبرقان بومضات خبث وشر ٠

وها هى تسمع ما يجب أن تسمعه من عينيه ، قبل أن يتكلم بصوته ، وها هو يرفع صوته :

ــ طلعت سيتزوج ٠

أرادت الا تصدقه ، أن تشتمه ، ان تقاوم كل هذا الذى يحدق بها ٠ ولكنها لم تستطع ، كانت تتمنى ان تكون اقوى من سيد وان تظهر له شيئا من قدراتها على مواجهة المصائب والكوارث ٠ ولكنها لم تفعل ما كانت تتمناه ٠ وجدت نفسها تتورط شيئا فشيئا فى اسئلة ملهوفة ملتاعة ٠ وكان واضحا لها أن سيد فى قمة نشوته وهو يواجهها بمعلوماته ، ويبتسم لها ، كأنه صديق او حليف ٠ وها هو يجيب على الأسئلة بافاضة ٠ هذه المرأة التى سيتزوجها هى ابنة النائب العام ، ولكن هناك احتمالا أن يرفضوا قالت لنفسها كيف يرفضون طلعت ، انهم لا يعرفونه كما تعرف اذا اراد شيئا فسوف يصل اليه ، رغم كل شىء ٠ انه لا يتورع عن شىء ٠ أما ما يقوله سيد ان ابنة النائب العام تجهل ان طلعت متزوج ، فهو أمر لا أهمية له ٠ انها تسعى وراء ماله ٠ كما

يسعى طلعت وراء نفوذها ٠ اوشكت فاطمة على الانهيار ، او أن تقع فريسة جنون مؤقت ، وهى تواجه مقارنة ، بين فاطمة ابنة زكريا المنولوجست ، وتلك المرأة ابنة النائب العام ٠٠ ما اسمها ؟!

اجاب سيد انه لا يعرف ، ولكن شقيقها زميل طلعت فى اماركو اسمه يونس ، وهو جاف متعال ، لا يريد ان يكلم أحدا ٠

قال سيد وهو ينظر بقوة فى عينى فاطمة :

ــ ما رايك فى أن أقول له ان طلعت متزوج ٠٠ اعتقد أنه سوف يلغى الزواج ٠

قالت فاطمة وهى تفكر :

ــ واين ستذهب له ؟

قال سيد :

ــ فى فندق سيسل ٠٠ عندما يعود من مصر ٠

قالت فاطمة وهى تسترد كل قواها فى محاولة لطرد اوهام كثيرة تحاصرها :

ــ أنا التى ستقول له ٠

كانت قد قررت الا تستسلم ، وأن تحارب من اجل الاحتفاظ بطلعت ، وكانت تعلم أن لها اعداء ، فى هذا النائب العام وابنته وشقيقها ، وهى لا تعرف على وجه محدد معنى لقب النائب العام ، حتى وسيد يشرح لها أنه الرئيس الكبير للنيابة والشرطة ٠٠ فكانت تتردد لبرهة خاطفة ، ثم تعود وتسأله ، وما شكلها ، وما الذى أعجب طلعت فيها ٠ سوى انها ابنة رجل له اهميته ٠٠ ولكن لماذا يحتاج طلعت الى أن يتصل بمثل هذا الرجل ٠ لماذا يتخلى عنها وعن ابنته ، ما الذى سوف يحصل عليه ، ما الذى يكسبه ؟

قال لها سيد محذرا ، انها يجب أن تعلم ما دامت تصمم على مواجهة الأمر بنفسها ، انها امام ناس اشرار ، لا يتورعون عن القاء الابرياء فى السجن ، وانهم من عالم آخر ــ غير عالمنا يا فاطمة ــ والاقتراب منهم خطر وكله ضرر ، ومعرفتهم لا تجلب الا الخسارة ٠

استمعت اليه فاطمة ، فازداد التحدى فى عزيمتها ..

وهكذا ذهبت تبحث عن يونس فى فندق سيسل . ووجدته ، لأنه كان قد ترك البيت ، وعاد الى الاسكندرية . وهو يشعر بحزن واكتئاب لما رآه فى لهفة ابيه وامه واخته ، على هذا الزواج الذى يعرضه طلعت . ما كان يتصور أنهم قد بلغوا هذه الدرجة من الانهيار ، ومن الخواء ، ومن الافلاس . ولم يتحمل البقاء معهم ، ولم يمانعوا فى سفره ، بل كأنهم رحبوا بأن يبتعد بنظراته واسئلته التى كلها اتهام لهم . كما شعر ابوه انه من الأفضل الا يمانع فى سفره المبكر ، ليكون قريبا من مقر الأحداث ، وقال ليونس وهو يودعه :

ــ عندما تصل الى الاسكندرية ، اتصل فورا بالمحافظ ، واستمع لما يقوله .. وابلغنى به .

همس يونس :

ــ لا اريد ان احشر نفسى فى هذا الموضوع .

فقال الأب غاضبا :

ــ هذا واجبك .. نحو شقيقتك .. لا اريد ان اسمع منك هذه النغمة مرة اخرى .. هل تفهمنى ؟ ! .

ونكس يونس راسه ، لا ينبس بكلمة ، وهو ما تصوره صفوت بك انه استسلام من يونس واقرار منه بذلك .

وكان يونس فى حجرته بالفندق ، عندما دق التليفون ، وقال له موظف الاستقبال :

ــ ان سيدة تنتظره وتريد مقابلته .

وقال الموظف بلهجة غريبة :

ــ ان السيدة تلح فى رؤيته ، ويبدو ان لها طلبا فى النيابة ، وانه لا يدرى ماذا يفعل امام الحاحها . وقد حاول ان يتخلص منها ، ولكنها ظلت واقفة امام الباب ، وطلب من البواب أن يبعدها ، لأنه يبدو من طريقة ملابسها انها ليست من رواد الفنادق ، وقد تكون

امرأة مشبوهة .. لولا أن لهجتها الجادة ، ونوع التحدى والاصرار ، لا يتفق مع هذا الحكم .

وفجأة همس الموظف انها تقترب منه .

استمع يونس بدهشة .. حتى قال الموظف بلهجة مختلفة :

ــ انها تقول انها زوجة صديق لك .. ها هى يا سيدى بجوارى .. تريد أن تخاطبك .

زوجة أى صديق . لم يفهم يونس شيئا .

حتى سمع صوتها يأتيه عبر الأسلاك . صوت انثى ، صوت رخيم دافىء .

ــ أنا امرأة .. الباشمهندس طلعت .

هتف يونس فى أعماقه .. ان هذا مستحيل ، لكنه أسرع بالهبوط ليقابلها .

وجد فى انتظاره امرأة ممشوقة أقرب الى الامتلاء دون أن تفقد قواما رشيقا ممشوقا . تستخدم المكياج بكثافة ، صورة من بنات بحرى كما رسمهن محمد سعيد ، العيون الكحيلة ، البشرة الناعمة ، الوجه الممتلىء ، الشعر الأصفر المصبوغ ، الدندشة ، الذهب فى الذراعين ، الفستان الأحمر ، فوقه بالطو أسود . جمال بلدى ، الوان فاقعة ساخنة ، عينان جريئتان . الصوت دافىء يتسلل الى الأذن :

ــ أنا زوجة طلعت زميلك .. الباشمهندس طلعت ابن الحاج مرسى فرج .

لابد أن يصدقها .. لا يستطيع أن يطردها ، ويتهمها بالكذب ، لابد أن يصبر حتى ينقشع الضباب ، لابد أن يتماسك ، ولا يترك نفسه تتداعى وهو يفكر فيما سوف يحدث فى البيت لشقيقته ولأمه ولأبيه .

قالت وهى تنظر فى عينيه ، توشك أن تهاجمه بشىء ما .. ربما كانت تخفيه . فهكذا بدت متحفزة متنمرة :

ـ هل كنت تعلم أنه متزوج ٠٠ وله بنت ؟
همس يونس :
ـ لا ٠٠
فقاطعته محتدة :
ـ هل صحيح أنه يريد أن يتزوج أختك ؟
قال يونس مستنكرا ، وهو واثق أن كل ما سوف يقوله من الآن فصاعدا هو ما يعبر عن الحقيقة ٠٠ كما كان يجب أن تكون ٠ كما كان يجب أن يفعل أبوه وامه وسارة قبل أن تصعقهم الفضيحة :
ـ من قال لك ذلك ٠٠ لا صلة لأختى به ٠
فاذا بها لا تكترث بانكاره وتكرر السؤال فى عناد وتحد :
ـ صحيح أم غير صحيح ؟
صاح يونس :
ـ طبعا غير صحيح ٠
قالت تواجهه :
ـ سيطلقنى بسببكم ٠
صاح يونس :
ـ مستحيل ٠٠ انه عاقل ٠
قالت بما يشبه ازدراء لما يقوله :
ـ أنت لا تعرفه ٠
ثم أردفت :
ـ تستطيع أن تمنعه ٠٠ اذا كنت لا تريد أن يتزوج أختك ٠
قال ضجرا :
ـ انه لن يتزوجها ٠

قالت وكأنها لم تسمعه ، أو لا تصدقه :
ـ النيابة هى أبوك ٠٠ يستطيع أبوك أن يرفض ٠٠ ينصحه ويقول له ٠٠ كفى فضائح ٠
قال يونس :
ـ كل ما يستطيع أبى أن يفعله ٠٠ هو ان يؤكد لك الا صلة له بشقيقتى ٠
قالت تتفرس فى هذا الوجه الكاذب الذى تتشكك فى كل كلمة يقولها :
ـ ألم تطلب من طلعت أن يطلقنى ؟
صاح مذعورا :
ـ أنا ٠٠ مستحيل ٠٠ مستحيل ٠
قالت فى هدوء تقرر حقيقة لاشك فيها :
ـ أبوك هو الذى طلب ٠
قال بكل ما يملك من طاقة ليعبر ويقنعها بصدق تعبيره :
ـ مستحيل ٠ أبى لا يفعل ذلك ٠
قالت ساخرة فى مرارة :
ـ لى رب يحمينى ٠
رد يونس بلهجة آلية :
طبعا ٠٠ طبعا ٠
ثم رفع صوته قائلا بصوت قوى :
ـ سوف أحضر لك طلعت بنفسى ٠٠ واجعله يقر امامك بالحقيقة ٠
نظرت اليه فى الم ٠٠ كانت تدرك بفطرتها ، ان الحقيقة غالبا ما تكون مصدر الم وهى لا تريد ان تسمع أن أحدا سوف يحضر لها طلعت ، انها لا ترجو ولا تتوسل ، ولا تنتظر عطفا واحسانا ،

طلعت سوف يأتى من تلقاء نفسه ، فلا شأن لأحد به ، ستواجههم جميعا ، لن تتركهم يخطفون طلعت منها ومن ابنتهما .

قالت ليونس :

ــ لست أريد منك شيئا سـوى ان تهتم بشقيقتك وتبعدها عن طريقى .

قالتها بصوتها الرخيم الذى اكتسب قوة ، وهى تشـعر بأن أشباحا تتربص بها ، لها أسماء عجيبة مثل النيابـة ، والنائب العام ، وكانت تشعر ، بأن طلعت يختفى وراء هـذه الأشـباح ، وربما معه أبوه الحـاج مرسى ، وسيد العتر الذى كان يحذرهـا منهم ويقول انهم أشرار .

رفعت صوتها محتدة ، مندفعة نحو هـذا الشر وتلك الأشباح التى تتربص بها ، تتحداها ، تريد أن تصل معها الى آخر المدى .

ــ سوف افضحكم .. يا خطافين الرجال ..

همس يونس مذعورا :

ــ اطمئنى .. ارجوك .. أقسم لك ..

لم يسمح لها ان تندفع ، ان تواصل المسيرة ، فى عينيه ألم ، وربما صـدق ، ولكنها واثقة أنه شرير من عالم الأشرار .

صـاحت :

ــ أنت تكذب .

قال فى ألم :

ــ صدقينى .. لن يحدث شىء مما تقولين .

ما كاد يودعها ، أو يتخلص منهـا ، حتى أسرع يتصل بشهدى أبو اللطف الذى استقبله فى الحـال واستمع اليه وقلبه يدق بشدة، ان يونس يعرف كل شىء . لقد قابلته زوجة طلعت ، وبدأت تثير الفضـائح . ان الموقف يتأزم ولابد من تصرف سريع . بعد أن فرغ يونس من حكايته ، قال شهدى بوقار يحسده عليه أى ممثل ،

ان الأمر من الخطورة بحيث يستدعى التحقق منه . فمن يدرى ، قد تكون تلك المرأة التى قابلها ، تدعى أنها زوجة طلعت . ولابد من تفسير نسمعه اولا من اصحاب الشأن ، قبل أن نتورط فى موقف يسىء الى الجميع .

وابتسم المحافظ قائلا :

ــ انا فى هذا الموضوع واسطة خير .. ولن أكون سببا فى مشكلة أو سوء تفاهم بين صديقين عزيزين ، والدك الذى كلفنى بهذه المهمة الخاصة الدقيقة ، والحاج مرسى ، وهو رجل كبير وله مركزه ، ولا نستطيـع أن ندعى عليه أو على ابنه ما قـد يسىء اليهمـا .

قال يونس وهو يرى بخياله وجه فاطمة :

ــ لكنى أشعر .. أنها كانت صادقة ..

نظر اليه المحافظ يريد ان يسبر اغواره ، يريد أن يعرف الى اى مدى يستطيع أن يواصـل تمثيليته ليكسب وقتا ثمينـا ، يبلغ فيه الحاج مرسى بتطورات الموقف .

وقال شهدى أبو اللطف :

ــ على أية حال .. كل ما أطلبه هو التروى .. سـاعتين فقط أو ثلاثا .. قبل ان أتصل بوالدك .. حتى نتحقق من الأمر .

وأرجأ المحافظ اجتماعاته والغى مقابلاتـه واسرع الى بيت مرسى فرج يبحث معه الأمر .

الفصل السابع

وصل شهدى أبو اللطف الى بيت الحاج مرسى فرج · فوجد أن الأحداث قد بلغت ذروتها· كان طلعت مع والده ، يتفق معه على طلاق فاطمة · وما يفعلونه بها وبابنتها فلما سمع الحاج الأنباء التي جاء بها شهدى وعرف ان فاطمة ذهبت الى يونس شقيق العروسة وابن النائب العام · وقالت له انها زوجة طلعت وعلى ذمته ، ثار الرجل ، وهو عندما يثور ، يهاجم الجميع بلا استثناء ، فهاجم طلعت وسأله كيف عرفت بنت زكريا المنولوجست انه اعتزم الزواج من بنت النائب العام ·· ونفى طلعت انه تحدث فى الأمر مع أحد ، غير يونس شقيق العروسة ، وطبعا تحدث مع النائب العام وزوجته فى بيته ، وهو لا يتصور أن أحدا من هؤلاء هو الذى أخبر فاطمة ·

فصاح الحاج أن أحدا لابد عرف بالأمر ، وان القاعدة الأولى لنجاح اى عمل ، وهى الكتمان ، قد انهارت بسبب خيانه ما ، ولابد ان يعرف مصدرها ، والتفت الحاج الى شهدى أبو اللطف ، الذى كان يشعر بحرج شديد ويحاول ان يبدى دهشته مما يسمعه ، ولكن محاولته فشلت · فقد هاجمه الحاج مرسى وقال له ان كل شىء واضح أمامه ، فبين رجال شهدى من يتجسس على اخباره ، وليست هذه هى المرة الأولى · وهو لا يعرف كيف يشكمهم ،

وخطرهم ليس على الحاج وحده ، بل خطرهم الأول على الرئاسة وهذا هو ما يجب أن يفهمه شهدى والا أخطأ فى حساباته ·

كان شهدى يدرك تماما معنى كلام مرسى فرج ، انه يهدده بتغييره ، وهو يعرف أن الرجل قادر على أن يفعل ذلك · فالشكوك والوساوس تزداد وتتضخم كل يوم · حول ناس اشتراهم الشيوعيون · أو اشترتهم ليبيا ، أو اشترتهم ايران ، وكل يوم يدخل الساحة مشترون جدد ·

واصبح هذا هو التفسير المقبول والوحيد لأى مشكلة تحدث ، سواء عامة أو خاصة ، سواء كانت مشكلة عمال الشحن وتذمرهم الذى أدى الى تكديس البضائع فى الميناء أو مشكلة فاطمة زوجة ابن الحاج ، التى تدافع عن بيتها حتى لا يطلقها زوجها ·

وكان شهدى أعقل من أن يعارض الحاج ·

وكان يعرف أنه لابد وأن يقدم ضحية قربانا يسترضى به ذلك المليونير الغاضب الثائر · انه لن يقبل ان تضيع ثورته هباء ، ولابد ان يقتنع فى الحال أنه سيد مرهوب الجانب ·

قال شهدى أبو اللطف أنه يرى ان الأمر فعلا خطير ، وانه سبق وان قال للحاج ، انه غير مطمئن للعمل مع مدير الأمن ، فهو صديق رئيس الوزراء السابق ، الذى يرسله الرئيس من وقت لآخر برسائل الى الدول الشيوعية ، لأنه على علاقة طيبة بهم · واذا كانت مقتضيات الدبلوماسية تتطلب مثل هذه الصلات ، الا ان أعوان رئيس الوزراء السابق يتوهمون أنه سيعود الى السلطة ، وهو يشجعهم على ذلك · فيعملون على خدمته بكل الوسائل ، وهو لا يشك الآن فى ان مدير الأمن كان وراء ما حدث ، لأنه أخبره بنفسه وما كان يتوقع أن يخونه مدير الأمن ·

قال الحاج وهو يفحص وجه شهدى بنظرات جادة :

ــ أنت يا شهدى الذى أخبرته ·· ؟

همس شهدى :

— نعم يا حـاج ٠٠

فسأله الحـاج :

— لمـاذا ٠٠ ؟

فشرح شهدى مدافعا عن نفسه ، بأنه خشى أن يلجـأ النائب العام الى أحد أعوانه ، ليتصل مباشرة برجال الأمن ويطلب منهم تحريات عن طلعت ، فأراد أن يخبر مدير الأمن ان بنت النائب العام مخطوبة لطلعت ، حتى اذا حدث أى طلب ٠ للتحرى فيخبروه به واختتم شـهدى دفاعه ، بأنه كان لا يتوقع أبدا أن تصل الأمور الى هذا الحد ، باستغلال هـذا الظرف الشخصى لاثـارة متـاعب باسلوب متحط وضيع ٠

وهنا ثار الحاج مرسى على النائب العام الذى يفكر فى أن يتحرى عن ابنه ، فمن يكون هـذا الرجل وهو ليس أكثر من موظف يتقاضى مرتبه من الحكومة ، وهنا تدخل طلعت وقد رأى الهجوم يتجه بعيدا عنه ، فقال أن ما حدث من فاطمة يفرض عليه الآن أن يطلقها ، وهو لن يكتفى بالطـلاق ، فسيضربها أولا علقة لن تنساها وسوف يكسر لها ساقا حتى تقعد كسيحة فلا تعاود حماقاتهـا وفضائحها ، او تلف وتدور على الناس تحكى حكايتها فى كل مكان ، وزاد هياج طلعت وهو يتكلم فاقسم بشرفه انها لو فتحت فمهـا بكلمة واحدة أمام اى مخلوق بعد الآن فسـوف يفقأ لها عينـا او يشوه وجهها حتى تندم طوال حياتهـا انهـا عاشت فى هـذه الدنيـا ٠

فقال شهدى أبو اللطف ، وهو يلتقط أنفاسه ، بعد أن تغير اتجاه العاصفة ، ان العنف لن يفيد مع مثل هـذه المرأة ، وانه من الممكن محاصرتها بطرق أخرى ٠ دون حاجة الى كسر سـاق أو أن يفقأ لها عينا ، وهنا تدخل الحـاج متحدثا بلهجة ساخرة ان شهدى قد إعترف بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا ، لأنه يعتمد على رجال غير موثوق بهم ، فكيف سيحاصر فاطمة وبأية وسيلة هل سيعتمد على مدير الأمن ام ماذا ؟

فقال شهدى ، ان له رجاله الذين يأتمرون بأوامره ٠ أما مدير الأمن فله معه شأن آخر ، وهو يتوسـل الى الحاج مرسى ان يوضح حقيقة هـذا الرجل للرئاسة ، قبل ان يتمادى فى عبثـه وخيانته ٠

فقال الحاج مرسى بهدوء :

— لن يطلع عليه الصباح وهو مدير الأمن فى هذا البلد ٠

واستمع شهدى الى كلمات الحـاج فى وجوم ، وقلبـه يدق بعنف ، وقد استولت عليه رهبة عجز عن اخفائها وهو يردد :

— تمام يا حاج ٠٠ تمام ٠٠ تمام ٠

بينما التفت الحاج الى طلعت وقال : انه يريد منه أن يأخذ الأمر بهـدوء ، والشىء الذى على طلعت ان يقـدم عليه فى كل الأحوال ، هو أن يتم الطـلاق ، لأنه لن يقبل أن تشهر به فاطمـة بنت زكريا وشفيقة ٠

قال طلعت : ان هـذا الطلاق سوف يتم فى الحال ، وضحك بعصبية وقال انه واثق بعد مقابلته للنائب العام وزوجتـه ، انهما لن يفرطا فى عريس مثله ٠

وهنا سارع شهدى ابو اللطف بتاييده ، فقد وجدها فرصة لأن يعبر عن مشاعره نحو الحاج وابنه ، ويقول : ان طاقـة ليلة القدر قد انفتحت للنائب العام اذا قبل طلعت الزواج من ابنتـه ، ولكن الحاج مرسى هز رأسه وقال ان تجربته فى الحياة قد علمته ان هناك نوعا من الناس يبلغ بهم الحمق انهم يهتمون بالمظـاهر الى أقصى حد ، ومن بينهم الأفنديات أمثال عبد الحميد صفوت النائب العام ، وليس غريبا ان يغضب ويعتبرها اهانة لا تغتفر ان يتقدم طلعت للزواج من ابنته الوحيدة البكر كزوجة ثانية له ٠

فاعترض طلعت على كلام أبيه ٠ وقال ان هذا الذى يقوله تفكير قديم لا يتفق مع عقلية الناس فى هذه الأيام ٠ ولكن الحاج رفض أن يستمع اليه ، وقال مقاطعا ان عبد الحميد صفوت تفكيره أيضا قديم ، فهو ليس مثل اولاد هـذه الأيام ، سيبحث عن منفعته

بأية طريقة . فتدخل طلعت مرة أخرى ، وقال بلهجة باترة .. ومن يكون عبد الحميد صفوت ؟ تقول أنه لا يملك سوى المظاهر ، يعنى انسان أحمق مغفل ، ولكنه مهما بلغ حمقه فلن يرفض ما نقدمه له .

وهنا تدخل شهدى أبو اللطف ، وقد وجد أمامه الفرصة لأن يزداد اقترابا من الأب والابن ، وقال بانفعال ان هذا الذى يقوله طلعت صحيح مائة فى المائة ، والرجل كما قال الحاج موظف فى الحكومة .. ومدة خدمته كنائب عام ستنتهى بعد شهور ، غالبا فى يناير أو فبراير القادمين عندما يبلغ الستين ويحال الى المعاش ، وعندئذ لن تكون للرجل اية قيمة فى المجتمع ، ولن يكون معه مال ، وسوف يقبل اليد التى تمتد لمساعدته ، او تتوسط لمد فترة خدمته لسنتين أو ثلاث سنوات . ولذلك هو مستعد أن يراهن على أن عبد الحميد بك صفوت ، بكل مظاهره ووقاره وتزمته ، سوف يرضخ ويرضى لابنته بطلعت ، سواء كان متزوجا ام مطلقا .

تابع الحاج مرسى كلام شهدى باهتمام ، ولعله رحب له . ولكنه اراد أن يمتحن مدى صدقه . فسأل بلهجة من لا يصدق ما يسمعه :

ـ انت تتحدث يا شهدى عن الرجل ، كما لو كان مستعدا لأن يبيع نفسه وابنته .. من أجل أن يبقى فى منصبه .

فارتبك شهدى ، خيل اليه أن الحاج يتهمه هو بأنه على استعداد لأن يبيع أى شىء ليبقى فى منصب المحافظ .

وارتفع صوت طلعت :

ـ هذه هى الحقيقة .. فأنا أشترى البنت .. لأنها البضاعة التى أريدها ..

فقال شهدى مرحبا بتدخل طلعت ومبهورا بالتفسير الذى يقدمه :

ـ البنت جميلة .. وبضاعة ممتازة فعلا .

كان لابد ان يندفع شهدى الى تأييد ومساندة طلعت ، ليكسبه ، ولأنه فى قرارة نفسه يعلم ان الأب فى نهاية المطاف ، ومهما حدث ، لن يتخلى عن ابنه ، وان الطريق الذى لا يخطىء لكسب رضاء الحاج ، هو الوقوف الى جانب ابنه ، حتى لو عارض اباه لبعض الوقت . وهو اسلوب فى التقرب من المليونير مرسى فرج تعلمه شهدى من مبادىء الاستراتيجية التى درسها فى كلية اركان الحرب ، فكان يقول لنفسه اذا كان الهدف امامه هو التقرب من الرئاسة والحصول على رضائها الكامل لينفتح امامه المجال للترقى والتربع على أكبر المناصب والاستيلاء على اكبر نصيب من السلطة والنفوذ . فهذا لا يتحقق كما درس فى علوم الاستراتيجية بالاقتراب المباشر من الرئيس انه يتحقق بصورة أسرع وأفضل عن طريق الاقتراب غير المباشر . ولذلك هو يقترب من الرئاسة عن طريق غير مباشر هو الحاج مرسى فرج صاحب الحظوة والعلاقات الوثيقة بالرئاسة وهو يقترب من الحاج عن طريق غير مباشر وهو ابنه طلعت ، وهكذا كلما وطد علاقاته وصلاته غير المباشرة بأهدافه الرئيسية ، كان اقترابه أسرع نحوها وباقل تكلفة ممكنة ..

ومضى شهدى يقول :

ـ البنت من أصل قوقازى .. عن أمها زهيرة هانم ..

فاذا بطلعت يعارضه بلهجة ساخرة :

ـ لو الجمال وحده هو الذى يهمنى ما شغلت نفسى بهذه البنت ، والجمال أنواع واشكال والوان ، ومهما كان جمال المرأة ، فلابد أن تملها بعد شهر او ستة شهور على الأكثر . انا اشترى هذه البنت ، لأنى اريد ان أعيش حياة افضل مما انا فيه . ستعلمنى كيف اتحرك بين الناس ، لا أقصد هنا .. ولكنى اريد ان أذهب الى اوروبا ، وتكون لى علاقات مالية وتجارية .. وهذا

يحتاج الى تعامل بأسلوب مختلف عن الذى تعودناه هنا فى حياتنا .

كان الحاج يستمع الى طلعت باعجاب ، وقال بصوت قوى :

ربنا يحميك يا ابنى ..

والتفت الى شهدى وقال :

ـ الولد على حق .. ولذلك .. اريد أن أخلصه من الماضى الذى يقيد حركته .. انه مع فاطمة لن يشعر بحرية كما يجب ، لأنها ستكون عبئا عليه . وسوف تتخلص منه الآن .

وجاء المأذون ، ووقع الطلاق ، وكان شهدى أبو اللطف محافظ الاسكندرية شاهدا على الطلاق . ومعه عبد الحميد سائق سيارة الحاج .. وما كاد المأذون يفرغ من مهامه ، حتى نهض طلعت ، واعلن انه سيذهب الى يونس ، ليخبره بنفسه بأنه كان زوجا لفاطمة . وسيطلب منه أن يبلغ والده ، بأن تلك المرأة ، كانت مطلقته ، وانها شىء فى حياته لا اهمية له . ورحب شهدى باقتراح طلعت ، لأنه يوفر عليه الحرج الذى سيواجهه وهو يكذب على النائب العام ، ويخفى عنه ان الطلاق تم الآن فقط .

وقرر طلعت ان يأخذ يونس على غرة ، فذهب الى الفندق ، وتأكد من وجوده فى حجرته ، وصعد اليه بلا استئذان ، واقتحم الحجرة ، ليواجه يونس الذى كان راقدا على السرير مرتديا القميص والبنطلون ، وما كاد يرى طلعت ، حتى قفز مرتبكا ، يتراجع بخطوات الى الوراء ، يكاد لا يصدق عينيه ، وطلعت يصيح فى شراسة نمر هائج :

ـ أين زوجتى .. قالوا لى أنها جاءت اليك .

قال يونس بصوت متحشرج وقد تعطلت قدرته على التفكير :

ـ قابلتها تحت .. لم تصعد الى هنا .

فزعق طلعت :

ـ لا تكذب .. أين أخفيتها .. سأبلغ الشرطة ، سأبلغ النيابة ..

فتوسل يونس فى هلع :

ـ صدقنى .. انها لم تصعد الى هنا ..

فجلس طلعت على حافة السرير ، وابتسم ابتسامة وقحة .

وقال .. تصعد الى هنا .. أو لا تصعد . هذا لا يهمنى .

واستمع اليه يونس ذاهلا ، فتقدم منه طلعت بخطوات ثابتة ، وقال :

ـ انها ليست زوجتى يا مغفل .. أقسم لك انها ليست زوجتى ..

كان يونس ينظر اليه متفحصا .. فاكمل :

ـ كانت يوما ما زوجتى .. ولكنى طلقتها .. ولا شأن لى بها .. وسوف اكسر رجلها حتى لا تتصرف كما فعلت معك هذا الصباح .

همس يونس محاولا أن يفهم :

ـ يعنى انها كانت زوجتك .. ؟

قال طلعت متحديا :

ـ نعم ..

اطلقها كما لو كانت رصاصة يريد بها مقتلا فى يونس .

فقال يونس بصوت خفيض ليخفف من انفعاله .. والمعلومات التى يعترف بها طلعت خناجر تغوص فى لحمه .

ـ كان يجب أن تقول لى .. قبل ..

فقاطعه طلعت قبل أن يكمل .. كان لا يريد أن يترك له فرصة لأن يتهمه .. لا لأنه خائف من يونس ، ولكنه واثق انه لن يقبل أى لوم من يونس .. ولا من أبيه .. وسوف ينفجر ثائرا

لو حدث هـذا ، وسيحطم كل شيء ، ويلغى مشروع الزواج ٠٠ وهو لا يريد ان يصل الى هذه النتيجة ، لذلك ٠٠ لابد ان يمنع يونس من ان يوجه اليه لوما ، او تأنيبا ، لابد أن يظل يونس فى موقف الدفاع ، وهو فى موقف الهجوم ٠ فهذا هو الوضـع الطبيعي لكليهما ، أما لو حاول يونس أن يخرج من منطقة الدفـاع ويتحول الى الهجوم ، فعندئذ سـوف يصعقه طلعت ٠ سـوف ينسفه ، وهو حقيقة لا يريد ان يصل الى هذه النتيجة التى ليست هدفـا من اهدافه ، ولا يريد ان يقول لنفسه ، انه بذل جهودا من بينها السفر الى القاهرة ومقابلة النائب العام وزوجتـه ، وبعد ان انفق أياما وليالي ، وهو يتخيل ويتصور ، ويشتهي ويرغب ، ثم تضيع كل هذه الجهود هباء ٠٠

قال طلعت يفرض نفسه بصوت مرتفع ، وهو يمد كفيه أمام وجه يونس :

ــ انظر ٠٠ ليس فى اصبعى دبلة ٠٠ لا دبلة زواج ولا دبلة خطوبة ٠٠ارجوك لا تسألنى إسئلة سخيفة ٠٠ ولست على استعداد لأن يحقق معى أحد ٠٠

ثم ضحك ضحكة عالية ساخر وقال :

ــ الا اذا كان الذى يحقق هو النائب العام ٠٠ لا ابنه ٠٠
ومد يده يربت على كتف يونس قائلا باستخفاف :

ــ اسمع يا ابنى ٠٠ اطلب والدك ٠ واخبره بما قلته لك ٠٠ ولننته من هذا الموضوع ٠٠

قال يونس بهدوء :

ــ لقد طلبته فعلا ٠٠ وانتظر مكالمته فى أية لحظة ٠

وصمم طلعت على أن ينتظر المكالمـة ، ولكن ما كاد يونس يروى الحكاية ، حتى ثار والده وسمع طلعت أطرافا من ثورة النائب العام « ٠٠ تقول انه متزوج ٠٠ كيف يجرؤ ٠٠ هذه فضيحة ٠٠ » وعبثا حاول يونس ان يقول لوالده ان طلعت بجواره ٠٠ كان مجرد

ذكر اسم طلعت كافيا لأن يشخط الرجل معلنا انه لا صلة له بعد اليوم بهؤلاء الرعاع ٠٠

وكانت كلمة الرعاع هذه ، هي التى وصلت الى اذنى طلعت فاختطف السماعة من يونس ، وصرخ فى عبد الحميد بك صفوت ٠ انه ليس من حق رجل مثله أن يشتم أسياد الناس ٠٠ لأننـا يا عبد الحميد بك ، نشرفك عندما نطلب يد ابنتك ٠

وصرخ طلعت :

ــ اتسمعني يا عبد الحميد بك ٠٠

كان الرجل قد أنهى المكالمـة من جانبه ٠ فالتفت طلعت ثائرا الى يونس وقال :

ــ الرجل لا يريد أن يفهم ٠٠

قال يونس مرتبكا :

ــ انها مسألة تقاليد ٠٠ لا يتصور أن يخرج عليها ٠٠

فصـاح طلعت :

ــ اى تقاليد ٠٠ على حذائى هذه التقاليد ٠٠ من حقى أن اتزوج مثنى وثلاث ورباع ٠ لن يحرم أبوك ما أحله الله ٠٠ وليعلم ان ما كنت سأنفقه على شقيقتك ٠٠ بل وعليه هو وامك ٠٠ لن يستطيع أى زوج آخر لها ان ينفقه فى ألف عام ٠٠ بصراحة إنتم نحس ٠٠ وأبوك عجوز خرف ٠٠ لتعلم ان عروسكم ليست أول ولا آخر النساء فى العـالم ولسـوف ترى أنى سأتزوج سـيدة سيداتهـا ٠٠

كان طلعت ثائرا ، محتدا وكان لا يدرى ماذا يقول ، كأنـه أصيب بضربة على رأسـه افقدته توازنه ، كان غاضبا ، وكان يبتسم ، وكان يدور حول نفسه وهو يتكلم ، ثم فتح باب حجرة يونس ، وخرج بعد أن صفق الباب وراءه ، كما لو كان يريد أن يحطم الحجرة بمن فيها ٠

ولم تصدق زهيرة هانم ما قاله لها عبد الحميد بك ٠٠ وصممت على ان زوجها لم يفهم ، واساء تقدير الموقف ، واساء التصرف ، ولقد كان فى تصرفها هذا شيء من الذكاء غير المتعمد ، لأنها رفضت أن تواجه الواقع الأليم ، وتجاهلت الحقائق ، لعلها تحصل على فترة من الوقت تفكر فيها ، وتجد مخرجا للمأزق الذى وقعت فيه وتورطت فيه ابنتها سارة ٠ وكانت زهيرة تعرف ان سارة قد اسرت بالخبر لبعض صديقاتها وسألتهن اذا ما كانت تقبل الزواج من طلعت ابن المليونير ، أم ترفضه ٠ وكانت فرحة وهى تسمع لهفة البنات على زيجة مثل هذه ، وعجبهن من مجرد ترددها وتساؤلها ٠ فمن يرفض النعيم ، ومن لا يقبل دخول الجنة ، والمال يصنع من طلعت باشرافها جنتلمانا اذا شاءت ، وآن ديلون ، او جون ترافولتا اذا شاءت ، وكانت زهيرة قد بدأت تنسج مشاهد من أفراح ألف ليلة وليلة ، فى فرح الموسم ٠٠ وتشيد قصورا للسعادة والرفاهية ، بعد ان انفتحت لها طاقة ليلة القدر ٠

ولكن كان لابد أن تواجه أخيرا الواقع ، وقد أبلغ شهدى أبو اللطف النائب العام بالحقيقة فى محادثة خاصة بينهما ٠٠ وعرف النائب العام ان طلعت ٠٠ هذا الولد الوقح المجنون دخل بيته ، وهو مازال متزوجا من زوجته ، وانه كذب وقال انها مطلقته فى حين انه طلقها بعد ان اجبره أبوه ومعه شهدى ابو اللطف على أن يفعل هذا ، وقد روعت زهيرة بعض الوقت بهذه المعلومات التى كشفت عن ابعاد الفضيحة التى اوشكوا أن يتعرضوا لها ، عندما تتزوج ابنتهم على ضرة ، وهى لا تعلم ، ويقول الناس ان أباها وأمها باعاها لابن المليونير لقد تعرضوا لكارثة محققة ، بسبب جهل يونس بأمور الحياة ، اذ كيف يتصور عاقل انه يعمل مع طلعت فى عمل واحد ، يجمع بينهما فى الصحراء ، ومع ذلك لا يصل الى علمه أن طلعت متزوج ، أية بلادة ، أى اهمال أية عزلة ضارة عن الناس تلك التى يعيش فيها يونس ٠

ولكن لوم يونس ، والقول بأن سارة نجت من ورطة أو فضيحة ، كان مجرد كلام لا يعبر عن المشاعر التى استولت

على زهيرة هانم وابنتها سارة ، والتى اتضحت بعد أيام ، عندما انتاب سارة وجوم حقيقى ، وخوف من مواجهة صديقاتها بأخبار الغاء مشروع الزواج ، لأن مثل هذه الأخبار تطلق السنة النساء فى الصالونات فى كل بيت فى القاهرة والاسكندرية ، حتى يأتين بالخبر اليقين ٠

ثم هناك امرأة اسمها فاطمة فى الاسكندرية على استعداد لاثارة الفضائح ٠ فما العمل ، وكيف تكون مواجهة هذه الأزمة ٠ وواصلت زهيرة هانم متابعة التحريات التى كان يجمعها النائب العام عن طريق شهدى عبد اللطيف ، وكان مصدرها دائما هو سيد العتر ينقلها عنه المخبرون وضباط المباحث ٠ وكانت لهفة النائب العام على معرفة اخبار فاطمة وابنتهما محاسن ، اهم عنده من اخبار اوكار القنابل والمتفجرات ، والجماعات الارهابية والفوضوية التى كانت ترسل له بين الحين والحين خطابات تهديد بالقتل او نسف سراى النيابة ، او اختطاف اسرته ٠ كل شيء كان فى كفة ٠ وأخبار طلعت فى كفة اخرى ، لأنه كان يمثل له فى لحظة ما الأمل الحقيقى فى الاقتراب من الحاج مرسى صاحب الملايين ، وصاحب النفوذ السياسى بما له من صلات ٠ كانت ستؤدى حتما الى طلب بقائه فى منصبه عامين آخرين على الأقل ٠ ان الأيام تمر بسرعة ، وبعد قليل سيواجه يوم الاحالة الى المعاش ٠ كل لحظة محسوبة عليه ، كل يوم يمر لن يستطيع تعويضه ، وهو اذا أراد أن يبقى على بعض نفوذه ، وان يضمن زواجا ممتازا لابنته ، فعليه أن يتصرف بسرعة وخلال الشهور القادمة ٠ والا فاته القطار كما يقولون ، وعندئذ سوف يواجه فى شيخوخته أيام نكد ومذلة تقصف العمر ، وتجعل نهايته كئيبة ، وكان كل ما كان فى الحياة من أفراح ولحظات سعادة وانتصار هى مجرد اوهام ، وخدعة خبيثة تجر قدميه الى منزلق ، يهوى منه الى بئر المهانة والندم وزهيرة لن ترحمه ، وهى له بالمرصاد ، وسارة لن تغفر له انه ضحى بسعادتها ، انه احيانا يفسر لوم زهيرة له وهى تندد باساءته تقدير الموقف فى تعامله مع طلعت ، بأنها كانت تتمنى لو أنه لم

يغضب ولم يرفض الزواج • وكأن كل المطلوب منه هو أن يحافظ
على المظاهر ويكتم السر ، فلا يدرى أحد أن طلعت كان متزوجا ••
ويمضى فى تنفيذ المشروع •• ليته فعل ذلك • لقد ابتسم له الحظ ،
ولكنه رفضه • وربما عاقبته المقادير ويرفض الحظ أن يبتسم
مرة أخرى لمن لم يبادله الابتسام •

وجاء يوم تحدث فيه صفوت مع زوجته ، عن أخبار غريبة
وصلته بأن طلعت سوف يتزوج من بنت تنتمى الى الأسرة المالكة •
وما كادت زهيرة هانم تسمع هذا الخبر ، حتى استولى عليها
انفعال كبير ، ورفضت أن تصدق ما يقوله زوجها واتهمته بأنه
ضحية من يخدعونه ، لأن طلعت كان جادا فى عرضه بأن يتزوج
سارة ، واشاعة زواجه من فتاة أخرى • هى نوع من المناورة
المكشوفة ، وحرب أعصاب ، يطلقها طلعت ، فهو يحب سارة ،
ولن يتزوج غيرها • هذا هو ما تحدثها به غريزتها الأنثوية ، وهذه
أشياء لا تفهمها الا النساء • وزهيرة واثقة ان طلعت سوف يعاود
الكرة ويتقدم لسارة ، لولا ان عبد الحميد بك ، لا يعرف كيف
يتصرف ويونس ابنها ، هذا الخيبة التى لا مثل لها ، لا يريد ان
يتدخل ، ويأتى بصديقه ليتزوج شقيقته سارة • وزهيرة هانم
لن تنتظر ، ولن تقتنع بخيبة الرجال وعجزهم فى التصرف • وخاصة
ان بعض الهواجس تنتابها عن احتمال أن يفقد طلعت اتزانه بعد ان
ينفد صبره ، وييأس من موافقة عبد الحميد صفوت على زواجه
من ابنته ، فيتزوج أية فتاة أخرى ، لن تكون بكل تأكيد امرأة
يحبها ، لأنه لا يحب سوى سارة • وأقدمت زهيرة هانم على خطوة
جريئة فطلبت ابنها يونس فى التليفون لتسأله عن حقيقة ما يجرى ،
وما الذى سمعه من طلعت واليس هناك احتمال لأن يأتى معه الى
القاهرة فى الاجازة القادمة ، ولم يعجبها ان قال لها يونس ان طلعت
لم يأت الى العمل ، وانه متغيب منذ فترة ، وانه سمع انه سيستقيل
من الشركة • وطالبت زهيرة زوجها بأن يأتى لها بأخبار طلعت
وسر تغيبه عن عمله • ولم تقبل محاولات عبد الحميد صفوت التهرب
من اجابة طلبها ، ولم تفهم ما يقوله من انه لا معنى ولا تفسير

لأن يستمر فى تعقب طلعت بالتحرى عنه ، كانت زهيرة ، مصممة
على مطاردة طلعت ، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة عنه •

ولقد كانت تريد أخبارا عن فاطمة وابنتها ، ضحيتى الرغبة
فى الزواج من سارة • فما ألذ أن تتقدم على أشلاء ضحية ،
وما أروع ان تشعر أن هناك بشرا تضيع حياتهم من اجل ان تبقى
حياتك : ويعانون ويشقون من أجل أن تتمتع وأن تسعد وكانت
احيانا تقول لنفسها ان طلعت الذى اقدم على الطلاق مرة ، لن
يكون مأمونا • وقد يطلق سارة بعد ان يتزوجها ، ثم تطرد هذه
المخاوف التى تعرقل نشوتها ، وقد تؤجل هذه المخاوف لتثيرها فيما
بعد ، اما الآن فهمها الأول ان يركع طلعت ، وأن يقول : ان الضحية
التى اجهز عليها كانت قربانا للزواج من سارة • كم هو جميل
ان يكون هناك ثمن باهظ يدفع لارضائها وللزواج من سارة
ابنتها • وكم هو جميل لو تم المشهد بكل طقوسه ، وتم الزواج ،
وبعد ذلك تكون أمامها فرصة ، لتعيد التفكير وهى مستريحة البال ،
فى تفاصيل أخرى لابد من مراجعتها ، وان كان أمرها هينا ومقدورا
عليه ، ولن يعجز عن مواجهة هذه التفاصيل زوج يملك الملايين ،
وعلى استعداد لأن يقدم اى ضمانات مطلوبة منه حتى لا يتكرر منه
تصرف خطير كالطلاق ، سيقبل حتما ان يتعهد بدفع مؤخر صداق
مناسب ، ربع مليون أو نصف مليون على الأقل • بالاضافة الى
شقة فاخرة ، أو فيللا فى مكان مناسب ، تطل على النيل وسيارة
فاخرة ، واثاث يشتريه من فرنسا او ايطاليا • وتأمين على الحياة ،
ووديعة باسم سارة فى البنك • كل هذا من الممكن تحقيقه •
لو تحرك معها زوجها النائب العام • ان عجرفته وكبرياءه الكاذب ،
كانا سببا فى هذا التلكؤ الذى ترجو الا يطول فقد آن الأوان
لأن يعود طلعت الى سارة هذا العاشق الولهان الذى ضحى بكل
نساء العالم وطلق زوجته من اجل أن يتزوج سارة •

كل هذه الأحلام ، انهارت فجأة ، عندما فوجئت سارة بصديقة
لها ، تتحدث معها فى التليفون ، وتسألها فى خبث عن أخبار طلعت ،

ثم تنقل اليها نبأ وصـول دعوة لأبيها وامها لحضـور حفل عقد قران المهندس طلعت فرج نجل رجل الأعمال مرسى فرج على الآنسة ميرفت مهيب ، حفيدة النبيل مختار مهيب وكريمة السيد عـلاء مهيب صاحب مطعم الياقوته الحمراء افخر مطاعم القاهرة ٠

القت سمارة بنفسها باكية بين أحضان امهـا ، ان البنـات يسخرن منها ٠ وطلعت يتزوج من فتاة اخرى ، وأباها لم يفعل شيئا بنفوذه ٠٠ او ربما يستطيع ان يفعل شـيئا ٠ فهو النائب العام ٠ ولو اراد لوجـه الاتهـام الى مرسى فرج فى الف تهـمة وتهمة ٠٠ وعليه ان يتدخل فورا لانقاذ الموقف بسلطته الجبارة ٠

وعاد الأب الى البيت لتقول له زهيرة ، ان طلعت يرسـل بطاقات الدعوة الى حفل عقد قرانه ٠٠ ومد عبد الحميد بك صفوت يده فى صمت الى جيبه ، واخرج بطاقة الدعوة التى وجهها طلعت اليه ٠٠ واصفر وجه زهيرة ٠٠ وهمست وهى تطحن أسنانها من الغيـظ ٠

ـ الكلب ٠٠ انه يتعمد الاهانة ٠٠

فقال عبد الحميد بلهجة متعالية ٠٠

ـ هذا ما يجب ان نتوقعه من الرعاع ٠٠ انهم لا يهينون غير انفسهم يا زهيرة ٠

الفصـل الثـامن

لم تحضر عائلة عبد الحميـد صفوت فرح الموسـم الذى اقامه الحاج مرسى فرج احتفـالا بزواج ابنه المهندس طلعت من سـليلة المجـد والشرف الآنسـة ميرفت مهيب حفيدة النبيـل مختار مهيب ، وكريمة رجل الأعمال علاء مهيب صاحب مطعم الياقوتة الحمراء ٠ ولقد شـهد الرئيس وعائلتـه الحفـل الذى اقيم بحـدائق انطونيادس بالاسكندرية ، كما حملت الطـائرات الى مصر كبار الشخصيات من جميع انحاء العالم جاءوا تلبية لدعوة المليونير مرسى فرج ٠

وكان بينهم كبار رجـال البترول ، واثنان من اهم تجـار السلاح فى المنطقة ، وممثلة هوليود الشقراء الفاتنة « ساندرا فورد » ومصمم الأزياء الباريسى « شارل ديجا » واشترك فى احياء الحفل المطرب الأسبانى « الفارو » والمطربة الايطالية « ايمانويلا » وقامت بزفة العروسة الراقصة « نوسة » ٠

واستمع يونس الى ما جرى فى الحفـل من الخبير الأمريكى مستر كلارك ، وهما جالسان أمام خيمته سـاعة الغروب ٠٠ وكان كلارك لا يكاد يصدق ما رآه ، ولقد شرب كميات هائلة من الشمبانيا فى صحة طلعت العريس ، تكفى لأن تحتفظ للشـارب بحـالة من النشوة تستمر لأكثر من عام ٠

وقال كلارك فجـأة :

ـ كنت أظن ان الذى بينى وبين طلعت صداقة حقيقيـة

وانى افهمه تماما ، ولكنى اعترف لك انكم ايها المصريون تكشفون فجأة عن اشياء لا يتوقعها احد ولا يفهمها ٠

كان يونس يستمع اليه ، وهو يراقب البحر الهادىء ، وقد اكتسى الأفق بلون أحمر حزين ، فهمس ٠ كأنه لا يريد ان يزعج بصوته أحزان الأفق :

ــ ما الذى لا تفهمه ؟

فقال كلارك :

ــ كنت لا أتوقع ان يطلق طلعت زوجته ، وبمجرد كلمة صدرت منه أمام المأذون فى بيت ابيه ٠

وتوقف كلارك عن الكلام فقد راى يونس يهز راسه ، فتوهم انه يستنكر ما يسمعه أو يتشكك فيه ٠

وقال كلارك مستأنفا حديثه :

ــ انا لا اخترع ما اقوله ٠٠ طلعت اعترف لى بكل شىء ٠٠ هو الذى كشف لى عن شىء فى شخصيته كنت لا اتوقعه ٠

ونظر كلارك فى عينى يونس ، يريد ان ينقل اليه ٠٠ انه يعلم كل ما حدث ، فأشاح يونس بنظراته بعيدا ، ورأى فى الأفق وجه فاطمة وعينيها الكحيلتين ، وكاد أن يسمع صوتها الدافىء ، بينما تنظر اليه نظرات ريبة ، وهى تعلن أنها ستحافظ على زوجها ضد عدوان عائلة عبد الحميد صفوت ٠ مسكينة فاطمة ، تركها طلعت كما لو كانت متاعا مستهلكا ، لم يعد فى حاجة اليه ، كأنها روبابيكيا ، مسكين أيضا طلعت ، انه يبحث عن حياة جديدة ، كما لو كانت حياته الماضية عارا لابد أن يتطهر منه ، يتمنى لو انسلخ من ماضيه ، لو انسلخ من عاداته ٠٠ لو انسلخ من جلده ، وتحول الى انسان آخر ، يعيش بعادات جديدة ، وها هو يدفع ثمنا باهظا لهذا الشىء الذى يلهث وراءه بأسنانه واظافره ، فالثمن الحقيقى الذى يدفعه هو تضحيته بفاطمة ، وتجاهله العجيب لابنته منها ، ترى هل يكفى هذا الثمن ليحصل على ما يريد ٠

وابتسم كلارك وقال ، كأنه يشارك يونس فى خواطره :

ــ لقد حكى لى طلعت عن رفضكم لزواجه من شقيقتك ٠

وبدا عليه التردد قبل أن يسأل :

ــ هل استطيع ان اتكلم معك فى هذا ؟ ! ٠٠ ام تريد منى ان اغلق فمى ٠٠ لا تتردد فى ان تصارحنى بما تريده ٠

قال يونس محتفظا بهدوئه :

ــ ما الذى تريد أن تسأل عنه ؟

قال كلارك :

ــ أريد ان أعرف ٠٠ هل رفضتم زواج طلعت لأسباب دينية ٠٠ ام لتقاليد خاصة تحافظون عليها ٠

قال يونس فى غير فهم :

ــ ماذا تعنى ؟

فقال كلارك :

ــ اعنى ٠٠ هل لديكم هنا ٠٠ مثلما يوجد فى الهند ٠٠ نوع من التفرقة بين الطبقات على اساس دينى ، كأن تعتبرون واحدا مثل طلعت من طبقة المنبوذين ٠٠ لا يصح الزواج منه ٠٠ اعنى أنه محرم عليكم وعليه ان تتصلوا برابطة زواج ؟

ارتبك يونس ، وهو يتذكر امه فى قمة غضبها بعد ان تأكدت أن طلعت سيتزوج فعلا بنت صاحب المطعم ٠٠ وكيف تحدثت عنه كما لو كان فعلا من المنبوذين او من المصابين بالجذام ، وتحول طلعت فى نظرها الى ابن ميكانيكى ، وعروسه الجديدة الى ابنة طباخ ٠ ثم كان ذلك المشهد الذى لن ينساه ، وامه تخاطب والده ، وتطلب منه أن يصدر اوامره بالقبض على مرسى فرج ، لأن كل الناس تعرف أنه لص ، وانه مهرب ، وانه يدفع الرشاوى ، كانت زهيرة هانم قد فقدت سيطرتها على نفسها ، وكانت تريد أن يثبت زوجها النائب العام انه قادر على مواجهة هؤلاء السفلة الذين يزعمون انهم من علية القوم ، وهاجمته ، لأنه عاجز عن التصرف ، لأنه ليس جديرا بمنصبه ، لأنه لا يملأ هدومه ، ويتهاون فى كرامته ٠ ولم تسكت زهيرة ، حتى وزوجها يصيح فيها انها لا تفهم ماذا تقول ، وأن شهورا قليلة امامه قبل أن يخرج من

منصبه ، ويفقد كل شيء · بدت وكأنها لم تسمع هذه الكلمات ، كان الرجل يكذب ، ويراوغ ليبرر تهاونه ، وصاحت فيه ·· انه خائف من كلب حقير ، بينما لو قال عنه انه شيوعى ، فيستطيع ان يقبض عليه ويودعه فى السجن فورا ، وهل يكون رجلا كان يعمل ميكانيكيا سوى واحد من طغمة الشيوعيين ·

طافت هذه المشاحنات فى صور خاطفة براس يونس ، فقال وهو يغطى ارتباكه بطيف ابتسامة يخص بها كلارك ويحجب بها تلك المشاهد التى تطوف برأسه :

ــ لا ·· ليس الأمر كذلك ·· لا توجد تفرقة دينية ولا منبوذون ·

فقال كلارك :

ــ تصرفات طلعت هى التى جعلتنى اتساءل ·· انه يريد ان يتستر على نفسه ·· ان مليونيرا مثله فى بلادنا ، يصنع ما يريد ولا يشعر بالخجل من اى تصرف يقدم عليه ·· بل كل ما يصنعه ، حتى لو كان شاذا يصبح مصدر زهو واعتزاز له ، لأنه لا يفكر فى أن يتخلص من طبيعته ، حتى لو كانت شاذة او غير مقبولة من المجتمع ، انه لا يقلد احدا بالعكس يتصرف بوحى من ذاته ، وبثقة بالنفس ، ويتمتع بقوته التى تتيح له ان يحقق رغباته حتى لو كانت شاذة · الذى ادهشنى فى طلعت هو انه حائر رغم قوته ، يستخدم ثراءه فى تقليد الآخرين ، فى تقليد شخصيات تراها فى الأفلام ·· ما الذى يريد أن يبرهن عليه ·· هل تفهم ما أعنيه ؟

كان كلارك يتكلم بسرعة وانفعال ، واختتم كلامه قائلا :

ــ لقد صارحته برايى ·· قلت له أنت تتخلى عن اجمل ما فيك ·

فقال يونس :

ــ انه يريد أن يسافر ·· ويحلم بمشاريع فى الخارج ·

فاكمل كلارك :

ــ نعم ·· هذا هو ما قاله ·· وهو يتوهم ان هذا يتطلب منه أن يتزوج امراة ·· مثل ···

وتردد كلارك لحظة خاطفة قبل ان يكمل :

ــ اعنى مثل شقيقتك ·· وهذا غير صحيح ·· ان هذا لن يساعده على أن يتفاهم معنا ·· لقد كنت اتفاهم معه وهو كما هو ·· فلماذا يعتقد أن علاقته بنا سوف تكون افضل عندما يتزوج امراة تجيد لغة أجنبية !

وضحك كلارك ضحكة عريضة وقال :

ــ طبعا ان مثل هذه الزوجة نرحب بها كزبون ممتاز يستهلك بضاعتنا ·· ملابس أمريكية واوربية ·· وسيارات كاديلاك ·· واشياء من هذا القبيل ·· ولكن لا صلة بين هذه الأمور ، وعمليات استثمار الأموال واقامة مشاريع ·

كان يونس يتابع مرة أخرى وجه فاطمة فى الأفق الدامى وقال كالمخاطب نفسه :

ــ ترى ماذا تفعل تلك المسكينة ؟

فسأله كلارك بدهشة :

ــ من تعنى ؟

فقال يونس مستيقظا من هذا الذى يراه كحلم غريب :

ــ تذكرت زوجته التى طلقها ·

فقال كلارك :

ــ انه مصمم على أن يأخذ ابنته ·· ويعطيها لأبيه لتتولى تربيتها احدى شقيقاته ·

فسأل يونس :

ــ هل تقبل ؟ ·

فأجاب كلارك :

ــ ربما يتوقع إنها ستضطر الى القبول امام حاجتها الى المال ·

ثم ضحك وأردف قائلا فى حماس واضح :

ــ ولكن من المؤكد انها شخصية قوية

ونظر كلارك الى يونس ، وعيناه تلمعان ، واعتدل فى جلسته معلنا انه سيقول كلاما مثيرا .. وهتف :

ـ أنت لم تسمع بما حدث فى الحفل .. انها قصة الموسم .. كيف فاتنى ان احكى لك ما حدث .. كانت الحراسة شديدة طبعا ، بسبب وجود الرئيس والشخصيات الكبيرة .. الا ان الهمس كان يدور بين المدعوين .. بأن السبب الحقيقى فى تشديد الحراسة انهم كانوا خائفين من هجوم تقوم به فاطمة على الحفل .. ويشهد العالم مشهدا بينها وبين رئيسكم وهى تشكو ظلم طلعت لها ولابنتها .. ولقد سرت هذه الاشاعة ، حتى أن بعض أصدقاء مرسى فرج ، قالوا : ان الشيوعيين المتحالفين مع المعارضة ، هم الذين يشنون هذا الهجوم لاحراج الرئيس . ولم أصدق هذا الكلام ، تصورت أنه أمر مبالغ فيه ، حتى جاء أحد رجال سفارتنا ، وهو صديق اعرفه منذ كنا فى فيتنام ، وفتحت له زجاجة شمبانيا وسألته عن سبب تأخره ، فقال لى انه غير مستريح لبعض ما يحدث فى الاسكندرية . فقد فرض المحافظ حصارا على عدة مواقع غير حديقة انطونيادس ، ومن بين هذه المواقع بيت زوجة سابقة لطلعت ، يقال انها مشتركة فى مؤامرة . وان أحد المخبرين مكلف بمنعها من الخروج من بيتها .

وتوقف كلارك عن الكلام ، وحدق فى يونس وسأله :

ـ هل تصدق شيئا من هذا .. هل هى خطر على الأمن .. هل هى من كبار المشتغلين بالسياسة .. أو زعيمة بين رجال العصابات ؟ .

فضحك يونس ، وهو يتذكر امه من جديد ، وقال وهو ينفى خاطرا جنونيا ان اباه قد يستغل هذا فى الأمر بالقبض عليها أو على مرسى فرج :

ـ هذا تخريف .

فصاح كلارك :

ـ انه جنون .. انهم يفكرون كما لو كانوا فى مستشفى مجاذيب .

قال يونس :

ـ تقصد كما لو كانوا المجانين .. فى المستشفى ؟

فقال كلارك :

ـ طبعا .. فلست اتصور انهم الأطباء .. ومن المستحيل أن يكونوا عقلاء .

رغم الضحكات والابتسامات والتعليقات الساخرة ، شعر يونس باكتئاب يزحف على نفسيته بعد هذا الحديث ، ولازمه الاكتئاب طويلا بعد غياب الشمس وقدوم الليل . وكان يتذكر فاطمة على فترات متقاربة ، وكأنها موجات تتردد على ذبذبات معينة فتؤثر فى عقله واعصابه . وكان يلازم تذكره لها ..

خواطر تزعجه بأن عائلته .. شقيقته وامه وأباه كانوا على نحو ما سببا فى هذا الشقاء الذى اصاب فاطمة .

كيف يتجاهل قسوة امه ورغبتها فى مطاردة فاطمة ، والاصرار على تتبع اخبارها ، كما تطارد الحيوانات الجائعة فريستها الجريحة . كيف يتجاهل استقبال أمه وشقيقته لنبأ الطلاق وكأنه مصدر سعادة وانتصار ، ودليل على ان سارة لها مقامها العالى ، فهى الهة صغيرة ، يقدم لها العابد الولهان قربانا آدميا فى صورة امرأة مذبوحة او امرأة مطلقة ، فالأمر سيان . كانت مشاعرهم بعيدة عن العدل ، هل هو يخطىء عندما يفكر فى العدالة ، أليس هذا هو الهدف الذى يسعى اليه أبوه .. العدل .. العدالة .. التحقيق لتطبيق القانون بالعدل .. أليس هذا هو مصدر فخره ، انه يشعر بنوع من الحصانة ، وانه يمتلك احتراما لا شك فيه للنفس ، لأنه ينتمى الى اسرة قضائية ، ولأن أباه رجل عدالة .. ولكن ما واجهه فى اسرته ، يكاد يهزأ بكل هذا الذى كان يعيش به . نظرات فاطمة التى كانت تستريب فيه .. تشعره الآن بأنه عريان وكاذب ، بأنه انسان ضائع لا اهل له . انه لا يستطيع أن

يتخلص من شعور بالذنب لا يستطيع أن يهرب ويتخلى عن مسئولية ما تورط فيه اهله ، ان طلعت لم يتزوج سارة ، ولكن هـذا لم يغير من الموقف شيئا • انه مذنب ، وعائلته ليست كما كان يتوهم عائلة لها امتيازها بما يمثله الأب من مثل عليا • انهم ذوو أطمـاع مثل بقية الناس ، فى الجاه والثروة والنفوذ ، انهم يزعمون انهم قدوة للناس • وهـذا غير صحيح ، فما يرتكبونه يلاحق يونس بمشاعر الاحساس بالذنب التى توشـك أن تعصف بكل ما كان يتمسك به او يتعلق به كسبب من اسباب وجوده •

وجاء سـيد العتر الى المعسـكر ، ليعود الى الاسـكندرية بيونس فى اجازته ، كان يركب سيارة فولفو لونها أحمر براق ، وقال ليونس ان طلعت يريد أن يراه ، وانه ينتظره الليلة بفندق فلسطين ، وانه مسافر غدا الى اوربا مع زوجته الجديدة ، وواصل سيد حديثه طوال العودة ، عن طلاق طلعت من فاطمة ، كان حديثا وقحا ، وكان يونس يتفرس فى وجه سيد وهو يتحدث ، فيرى وسامته قد تحولت الى دمامة ، بل خيل الى يونس ان سيد له وجه نسناس شرير ، وكان يتحدث عن فاطمة متحررا من اية قيود ، وكان طلعت يسافر مع زوجته الجديدة ليتركها لاطماع سيد • الذى قال ليونس وابتسامة صفراء تبرز اللؤم فى ملامح وجهه ، ان بنت الأفيونجى ارادت ان تكون سيدة ، ولكنها لا تصلح لشىء ، ولو كانت سيدة حقا لاستطاعت ان تجمع ثروة ، ولكن طلعت تركهـا وهى يا مولاى كما خلقتنى • كانت معها نقود تركها طلعت فى الدولاب ، ولكنه عاد اليها بعد الطلاق وضربها وأخذ منها النقود ، حتى لا يكون تحت يدها سـوى النفقة الشهرية التى سيرسلها لها ، وبذلك يضمن خضوعها له ، ولكن الى متى ، حتى تتخلى عن محاسن •

كان يونس يستمع اليه فى وجوم ، كانه يعـانى من كابوس لا حيلة له فى الخروج منه • وها هو سـيد يتحـدث كوحش عن فريسة يطمع فيها • وسمع سيد يقول له باسما :

ـ الم تلاحظ انى أركب عربة جديدة •• ما رايك •• هل تشتريهـا ؟

نظر اليه يونس مترددا ، يجد صعوبة فى ان يدخل مع سيد فى حديث ومعاملات وشراء وبيع • ولكن سيد واصـل كلامه غير مكترث بتردده ، وقال له :

ـ ان صاحبها يريد ثمنا معقولا ، وانها فرصة ، وقد جدد لها المحرك واعاد طلاءها •

فتمتم يونس :

ـ دعنى افـكر •

قال سيد •• انه ينصحه بأن يقرر بسرعة ، قبل أن تفلت الفرصة ، ثم قال متشفيا :

ـ كما ضاعت الفرصة من فاطمة •

لم يجب يونس ، ولكنه قال لنفسه ، ان سيد يزداد جرأة ووقاحـة ، وانه لابد ان يوقفه عند حـده ، بالا يعطيـه فرصـة للاستمرار فى الحديث ، فيتشاغل عنه ، ولكن سيد مضى فى ثرثرته وقال ان مصير فاطمة هو ان تتزوج اذا اسعدها الحظ بواحد قادم من ليبيـا ، وان منيرة العالمـة هى الوحيـدة التى تستطيـع أن تسـاعدها •

همس يونس مرغما :

ـ والبنت ؟

فهز سيد كتفه ، كانه يدهش لاقحام الطفلة فى هذا الحديث باعتبار أنها مشكلة تستحق الاهتمام وقال باستخفاف :

ـ البنت تذهب الى أى بنى آدم •

سأل يونس قلقا :

ـ تذهب الى بيت جدها ؟

قال سـيد :

ـ تذهب الى من يريد ان يأخذها •

شعر يونس بالخوف ، سرت قشعريرة باردة فى بطنـه • وانتابه ذلك الاحساس بأنه يشترك فى جريمة •

وتشجع سيد بأسئلة يونس رغم اقتضابها ، ورغم انه عاد الى صمته ، فسأل يونس بلهجة فيها نوع من الألفة لم يتعود عليه :

— الم تلاحظ بنفسك ان فاطمة هذه .. لا تصلح زوجة لطلعت ؟

قال يونس ببرود :

— ما ادراني بهذا ؟

فقال سيد العتر ، وهو لم ينتبه بعد الى ما طرا على نفسية يونس :

— الم ترها يا باشمهندس .. الم تذهب اليك فى الفندق .. لابد انك عاينتها .

وظهرت الابتسامة الشريرة على وجهه ، وبرقت عيناه .

فقاطعه يونس بجفاء :

— ارجوك .. انا لا افهم هذا الكلام .. انها سيدة محترمة .. وهى زوجة زميل لى .

فقال سيد بانفعال :

— لا هى محترمة .. ولا هى زوجة لزميل سيادتك .. انها منذ الآن .. امرأة ستدور على حل شعرها .. وانا أعرف ما الذى سيحدث لها .

قال يونس بصوت باتر :

— ارجوك كفى .

كانت لهجة يونس متعالية غاضبة ، الى الدرجة التى اسكتت سيد العتر ، وجعلته يحنق على يونس ، ويود لو هجم عليه وصرعه . ومع ذلك فهو ليس فى حاجة الى ان يفتك بهذا الشاب المغفل لأنه يحتاج اليه . ويستغفله ، ويكفى أنه يركب هذه العربة التى سرقها ، والاسكندرية كلها تراه وهو يقودها وداخلها ابن النائب العام ، وقبل أن يأتى بها الى المعسكر ، كان كل من يراه راكبا السيارة يقول له أنها سيارة المهندس يونس عبد الحميد

صفوت . ولسوف يبيعها له او حتى لأبيه ، الذى يركب سيارات الحكومة . ولكنه بعد شهور قليلة سوف يخرج من عمله ويحتاج لسيارة خاصة به . وما أسهل أن يدبر سيد العتر باسم النائب العام اوراقا للسيارة ورخصة لها ورقما جديدا للموتور دون ان يتدخل احد لفحص السيارة والكشف عن مصدرها الحقيقى . انها صفقة حقيقية يحصل منها على الآلاف . ينفق بعضها مع فاطمة فى شهور من المتعة ، قبل أن تستولى عليها منيرة وتتصرف معها كما تشاء . على أية حال فليصبر على هذا البلاء الذى اسمه يونس . وربما اخطأ عندما تحدث أمامه عن فاطمة ، فهذا امر لا صلة به ، وهو لن يفهمه ، ولا داعى للاشتباك معه حتى تتم الصفقة ، او على الأقل يستغل ركوبه فى السيارة حتى يتم الصفقة معه او مع ابيه او مع اى مخلوق يشتريها .

وصلا مشارف الاسكندرية ، صامتين ، وقطع سيد الصمت يسأل يونس مرة ثانية عن رأيه فى السيارة . فأجاب يونس باقتضاب :

— انها فى حالة جيدة .

قال سيد :

— انها لك .. او لسعادة البك الوالد .. وفى اللحظة التى تقرر فيها .. ساتركها معك .. اما مسألة النقود فلا عجلة بشأنها .

شعر يونس بوطأة الاغراء ، انه فى حاجة الى مثل هذه السيارة ، وحاجة أبيه أشد ، وربما كانت هذه هى الفرصة التى يبحث عنها . ولكنه لا يكاد يفهم هذه الحرية التى يتحدث بها سيد العتر ، لا يتردد امام المال .. لا يتعجل النقود ، لا يشعر بهموم المال ، بينما والده يتحسس طريقه فى الحياة معتمدا على مرتبه . وتصور أنه حصل على كنوز الأرض عندما استطاع أن يحصل لابنه على وظيفة مرتبها بضع مئات فى الشهر . هل يقبل سيد العتر التقسيط .. هل لدى والده العشرة آلاف التى يطلبها سيد للسيارة .

قال يونس كأنه يخاطب نفسه :

ــ ساخبر والدى ٠

فهتف سيد :

ــ انها فرصة لن تعوض ٠

وانتعش سيد ، بما لاحظة على يونس من ارتباك أو خجل ، فعاودته وقاحته ٠٠ وقال وهو يشير الى مطعم فى الطريق ٠ انه توقف عند هذا المطعم عند مجيئه الى المعسكر واكل جمبرى بخمسة عشر جنيها ٠٠ وانه سيدعو يونس الى هذا المطعم عندما يعود به الى المعسكر فى الأسبوع القادم ٠

دق قلب يونس بشدة ، كان يكتم انفعالاته ، هذه هى المرة الأولى فى حياته التى يواجه فيها دعوة من رجل على هذا المستوى الاجتماعى البسيط ، ما كان ليخطر بباله ، ان سائق السيارة ، اى سيارة ، ممن تعود على رؤيتهم يقفون فى احترام لوالده ، ويسرعون بفتح الأبواب ، ويعاملون كخدم ، ينقلبون الى انداد ، يريدون عقد الصفقات ، ويوجهون الدعوة الى تناول الطعام ٠

ووصلت السيارة الى فندق سيسل ، فهبط منها يونس وصعد الى حجرته لتغيير ملابسه ، بينما انتظره سيد ليذهب به الى فندق فلسطين ٠ وكأنه مازال سائقا ، مازال خادما ، ولكن لا شىء يظل كما كان ، كل شىء يتغير ، ويتحول ، وعلى يونس أن يقرر ٠٠ هل يدخل فى مفاوضات مع سيد العتر ، ويشترى السيارة ، ويرجوه ان يقبل تقسيط الثمن ٠ ام يتجاهل هذه الصلة التى يتورط فيها مع سيد العتر ، ويحتفظ بوضعه الاجتماعى كما يتصوره ، ويريد أن يحافظ عليه ، فيحرم نفسه من فرصة شراء السيارة ٠٠ ويتحمل مذلة التنقل من مكان الى مكان ، وما يصاحب ذلك من اهانات ، واهدار للكرامة والطاقة ٠٠ فليؤجل كل هذا ٠٠ فسيارة سيد العتر تنتظره لتذهب به الى طلعت فى فندق فلسطين ٠

الفصل التاسع

ضحك طلعت وهو يجذب يونس من يده يدعوه الى فنجان قهوة معه فى الكافتيريا ٠٠ كانت عيناه متقدتين بلمعة حادة ، وهو يتكلم بحيوية زائدة ، كما لو كان يشعر ان الكلام وحده لا يكفى للتعبير عن الذى يريد ان يقوله ٠ لم يترك ليونس فرصة لان يتقوقع داخل نفسه ٠٠ قال له :

ــ أولا اريد ان اتاكد انك غير غاضب منى وصافى يالبن ٠٠ لا اريد يايونس ان يكون ما حدث سببا لانقطاع الصلة بيننا ٠٠

قال يونس وقد غلبته حيوية طلعت :

ــ طبعا ... طبعا ٠٠

فقال طلعت ساخرا :

ــ لا تقل طبعا طبعا ٠٠ وكان شيئا لم يحدث لأن الذى حدث كان كفيلا بأن يباعد بيننا ٠٠

قال يونس مرتبكا :

ــ لا اتصور هذا

فقال طلعت بمرح يبلغ حد التهور

ــ لا تتصور ماذا ياروح أمك ٠٠ هل نسيت أنى تقدمت للزواج من شقيقتك ٠٠ وأنكم رفضتم لانكم مجانين ٠٠ الآن وبعد ان انتهى كل شىء ٠ اريد أن اقول لك كلمتين ٠٠ أولا ٠٠ أنا لست غاضبا منك ٠٠ وثانيا أريد أن تفهم انى عندما تقدمت اليكم كنت جادا ٠٠ لا اعبث ٠٠ كنت أريد أن اتزوج شقيقتك

لاجعل منها ملكة .. ولاطلب منها ان تنظم لى حياتى .. فى بيت اشتريه فى سويسرا بعيدا عن عيشة الفقر والتخلف والحياة الصعبة التى تقصف العمر ..

كان يونس يبتسم .. تضاقت عينا طلعت وسأله :

ـ لماذا تبتسم .. ؟

قال يونس :

ـ لانك بعد ان قلت صاف يا لبن .. تعود الى الموضوع ..

فقال طلعت بانفعال .. ولكنه يسيطر عليه بابتسامة :

ـ طبعا اعود الى الموضوع .. يا ابن الكلب .

واتسعت ابتسامته ، وسطع المرح فى عينيه ، وبدا انه مسرور من شتيمته ليونس الذى شعر بها كمبادرة للتقرب منه ، فطلعت لا يشتم الا الأصدقاء ويغدق عليهم اقذع النعوت والألقاب . ولابد ان يتحمل يونس ما كان لا يتصور انه يطيق تحمله ومضى طلعت فى حديثه ، وقد اكتسب صوته نبرة حنونة ، كانه يبث اسراره لصديق عمره ..

ـ انا سئمت يايونس هذه الحياة الراكدة .. سئمت المعسكر ، والحفار .. والبترول ، سئمت الصحراء وبيتى ، وسئمت ان ارى خلقتك المهذبة البليدة كل صباح .. اريد ان انتقل من عالم الى عالم .. لا تقل لى انى مجنون .

وتوقف طلعت لحظة .. كانه يتذكر شيئا ما ، ثم قال :

ـ مستر كلارك يظن انى تغيرت .. ملعون ابوه .. كيف أتغير .. هل ذهابى لاوروبا يغيرنى .. هات لى تسعين اوروبا ومائة امريكا .. واطلقنى عليهم .. ساجعلهم يتكلمون بلسان عربى .. صدقنى .. انا لايهمنى شىء .. لست مثلكم تعودت على الكلام المهذب ، وحركات النسوان ، انا جدع .. واعجبك .. اقسم لك انى لو نجحت فى مشروعاتى ساشترى بيتا فى سويسرا واقيم مسجدا فى نفس البلدة التى اشترى فيها البيت ..

وضحك طلعت فجأة ضحكة عالية .. وسأل يونس :

ـ هل اقتنعت .. ؟

فسأله يونس بدوره :

ـ بماذا ؟

قال طلعت وعيناه تقبضان سخرية :

ـ ان تزوجنى شقيقتك

فابتسم يونس .. محيرا .. لا يدري كيف يجاريه فى هذا الهزار ، وقد داخلته شكوك بعيدة او غامضة ان طلعت ليس هازلا تماما . وانه لم يطلب رؤيته لمصالحته كما يزعم .. بل قد ينتهى الأمر فى اية لحظة الى ان يهاجمه وقد يفكر فى الاعتداء عليه .. وسب عائلته .. وانتبض قلب يونس .. انه يواجه فى كل حركة يخطوها احتمال اساءة من نوع غريب لها .. ورأى طلعت يبتسم فى خبث ويمد يده ويمسك بيده اليمنى فى قبضته ، ويعتصر اصابعه ويقول :

ـ هذه خدمة اقدمها لكم ..

همس يونس يريد أن يتحاشى غضبه :

ـ أنت حقا عجيب فى هزارك ..

قال طلعت :

ـ ومجنون .. وابن كلب .. هل صدقتنى ..

واكمل بلهجة جادة :

ـ ليتك تفهمنى يايونس .. انا ولد جدع .. اريد ان احيا بالطول .. واحيا بالعرض .. لا اريد أن اعيش فى قفص مثل أبيك .. ولا أريد أن أعيش كما لو كان ما أملكه جاءنى بضربة حظ .. فارتعد ليل نهار خشية ان يذهب ما جاء بضربة حظ مضادة .. بصراحة انا نفسى مفتوحة ولا يهمنى ابوك ولا ابويا ..

وسكت طلعت يبحث عن كلمة تاهت منه .. ولكنه عدل عن البحث ، وسأل يونس وهو ينظر اليه فاحصا :

— لماذا لم تتزوج يايونس ؟
اجاب يونس :
— لم افكر ..
فقال طلعت :
— غريبة .. الا تشتهى .. الا ترغب .. انك بغير امراة تصبح لا شىء .. الا تتخيل امراة تعجبك .. تشتـــهيها .. تغتصبها ..
قال يونس :
— صدقنى .. لست هكذا ..
فقال طلعت بصوت قوى واثق :
— انت كاذب .. الا اذا كنت شاذا ..
وضحك طلعت وهو يساله :
— هل انت شاذ .. ؟
قال يونس بارتباك :
— لا ..
فساله طلعت فى دهشة :
— اذن ماذا بك .. اتريد ان يفحصك طبيب .. ؟
قال يونس مقاوما ارتباكه بلهجة يغلب عليها الانفعال :
— كل ما فى الأمر أن تربيتى مختلفة ..
فنظر اليه طلعت فى ضيق .. وردد باحتقار يريد اظهاره بعد ان سمع اجابة لا يتوقعها . اجابة لا يستريح اليها ..
— تربية مختلفة .. تربية شواذ .. تربية نسوان ..
قال يونس يدافع عن نفسه ، وهو يعلم أنه يستفزه ، ولكن ماحيلته ؟
— ان زوجتك الجديدة .. سوف تربى أولادك فى احســـن الاحوال مثل تربيتى ..
نظر اليه طلعت مذهولا .. وحدق فيه ، كما لو كان يفكر

فى قتله ، وقد تشنجت عضلات وجهه .. ثم انفرجت أساريره ، وانقشع التجهم الذى بدا عليه ، واتسعت ابتسامته وقال فى مرح مفاجىء :
— صدقت .. يا ابن الكلب ..
قال يونس :
— مستر كلارك .. يرى انك اخطأت .. وكان يفضل ان تواصل حياتك مع زوجتك أم البنت ..
قال طلعت محتفظا بمرحه .. لا يشعر بأى حرج :
— لا ياسيدى .. لا .. هى التى هاجمتنى .. وارادت ان تفضحنى .. ألم تأت اليك فى الفندق ؟
همس يونس :
— كانت تدافع عن بيتها .. عن ابنتها ..
قال طلعت بضيق :
— غبيـــة ..
— أردف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة ..
— لن نشغل أنفسنا بها ..
وضايقه أن يرى الاهتمام فى وجه يونس ، خيل اليه ان يونس يصطنع هذا الاهتمام بمطلقته وابنته متعمدا اغاظته متعمدا أن يأخذ موقف المعارض مصرا على أن يكون دائما على النقيض منه .. لقد ترك فاطمة وطلقها .. فأصبحت محل اهتمام يونس ..
ورفع طلعت صوته متحديا :
— لا أدرى لماذا تحشر نفسك فى هذه المسائل ..
قال يونس :
— أنا لم احشر نفسى .. حاولت فقط أن أبرر أو اشرح سبب مجيئها لزيارتى فى الفندق .
نظر اليه طلعت مغيظا .. لابد ان يرد عليه .. ولكن يونس أدهشه بقوله :

— انا قلق يا طلعت ..

سأله طلعت

— ماذا تعنى ؟

قال يونس :

— سيد العتر .. أخشى أن يضايقها ..

فشحب وجه طلعت وسأل بانفعال مكتوم :

— ماذا فعل .. هل فعل شيئا .. ؟

قال يونس محتفظا بهدوئه ، رغم انه يتحـــدث عن قلقه ومخاوفه :

— انه يتحدث عنها بطريقة لا تعجبنى .

سأل طلعت بلهفة :

— ماذا قال ؟

قال يونس :

— لا شىء مهم ..

فضاقت عينا طلعت وقال :

— لا تخفى عنى شيئا .. اعرف انه وغد .

قال يونس :

— انها الشماتة التى يظهرها .

حدق طلعت امامه لحظة .. يرى شيئا لا يرغب فى رؤيته ، وعاد يتكلم كما لو كان يخاطب نفسه — ابنتى ستذهب الى بيت جدها .. لابد من هذا اما امها فالله وحده يعلم ماذا ستفعل .. انى لا استطيع ان اضمن تصرفاتها .. ولكن ما شانى بها الآن كل ما يهمنى هو البنت .. فاما ان تأتى امها الى بيت ابى .. وتعيش فيه .. وهذا اذا كانت عاقلة .. او تترك البنت وتذهب الى حيث تريد ..

همس يونس فى تأثر واضح :

— لماذا يا طلعت .. ؟

فاذا بطلعت يقول بهياج مكتوم حتى لا يسمع الناس من حوله ما يقوله :

— تسألنى عن اى شىء .. اليس من حقى ان اطلق .. وان اتزوج ؟ .

وصوب الى يونس نظرات حانقة وسأله :

— هل كنت تفكر فى الزواج من واحدة مثل فاطمة ؟ .. امثالها تعاملونهن كخادمات سرير .. تأخذون متعتكم بلا ارتباط أو مسئولية .. اما انا فتحملت مسئولية رغباتى .. ولا تخدعنى وتقول انك بلا رغبات .. انت فى الحقيقة انسان عاجز .. انت تتجاهل رغباتك لأنك عاجز عن تحقيق ما تريده لقد جاء وقت كنت استطيع فيه أن افعل بفاطمة ما اشاء .. دون ان اتحمل اى شىء والآن اريد أن أعيش حياتى .. ونحن مستعدون ، ابى مستعد لايوائها .. للانفاق عليها ..

قال يونس قبل ان يكمل :

— أنت تفسد حياتك .. فأنت تترك ماهو لك .. وتريد الهرب من هذا البلد .. مع انك الذى يستطيع ان يبقى .. انت الذى يعرفه الناس .. ويعرفون كيف يتعاملون معه .. انت ابن البلد ..

قال طلعت ساخرا :

— لا ياسيد .. انا فى نظركم ابن كلب .. ولكنى سأثبت لكم واحدا واحدا انكم انتم الكلاب ..

فسأله يونس فى دهشة :

— تثبت لمن .. من الذين تريد ان تثبت لهم .. من نحن الذين تتحدث عنهم ؟

قال طلعت وهو ينظر اليه شذرا :

— أنت وأمثالك .

فقال يونس مبديا دهشته :

— هل تكرهنى يا طلعت ؟
فقال طلعت بسرعة :
— لا .. لا اكرهك .. ولكنى احتقر امثالك ..
فنهض يونس قائلا :
— لا معنى لبقائى ..
فامتدت اليه يد طلعت .. وامسكت به من كتفه بقوة .. وجذبه الى مقعده قائلا :
— اقعد .. يعنى اقعد ..
كان صوته هادرا وعيناه تطلقان نظرات مزمجرة ، ومع ذلك فابتسامته الساخرة لا تفارق شفتيه . كانه يهزل ، وتدفقت الكلمات من شفتيه ، والسخرية تتوارى شيئا فشيئا ، فتحل مكانها نبرة عصبية ليس فيها تلك الثقة التى يظهرها فى مثل هذه اللحظات .
واستمع يونس اليه ، وهو يتحدث عن زوجته الجديدة .
— هل تظن انى اتركك قبل ان ترى زوجتى .. وتتعرف عليها .. انها من نفس الطينة التى ولدت أنت منها .. بل هى من طينة أحسن .. لأن جدها كان من النبلاء .. بينما سمعت أن جدك كان يتاجر فى المواشى المسروقة ..
فقاطعه يونس :
— جدى كان فى القضاء ..
قال طلعت هازئا :
— اعنى جدك الكبير .. هذه حقيقة معروفة ..
فتح يونس فمه ليتكلم .. فسارع طلعت يمنعه .
— لا تقل شيئا .. فالكل نصابون .. واجدادهم من نفس العينة .. اليس جد الأسرة المالكة التى تنتمى اليها زوجتى .. دخاخنى .. انتم الذين تبالغون فى المظاهر .. والفشر .. وادعاء انكم من اصل وفصل ولو سألتنى لماذا اخترت زوجتى ؟ .. فالاجابة سهلة .. اخترتها لانى معها انا دائما فوق وهى تحت .. هى الجارية

التى قبلت ان تتزوجنى .. وهى على استعداد لان تلعق حذائى من اجل نقودى .. وسوف تبقى زوجة لى حتى ازهق منها .. وعندئذ اطلقها .. او احتفظ بها .. وقد اتزوج اجنبية .. فرنسية او نمساوية شقراء ..
وفجاة دق بكفه على المائدة ، حتى كاد يقلب كوب ماء امامه وقال :
— الم تك اختك افضل .. يا ابن الكلب .
قال يونس منزعجا :
— حقا .. انت مجنون
فقال طلعت :
— لا .. لست مجنونا .. ولكن اذكر هذه اللحظة .. اذكر انى قلت لك .. انه سيأتى يوم واحصل فيه على شقيقتك .
قال يونس منفجرا :
— انت مجنون — وفاجر .. وعاقبتك لن تكون سليمة .. فالدنيا ليست كما تتصور ..
فقاطعه طلعت محتدا :
— بل هى هكذا .. واكثر من هكذا .. وان اكون فاجرا خير الف مرة من ان اكون مسكينا عاجزا .. محنطا مثلك .
همس يونس وهو ينهض ..
— اتق ربك .. ولن أسمح لك ..
فزمجر طلعت وقد وقف يمنعه من الحركة ..
— تسمح لى ! وهل امثالك قادرون على السماح بشىء ..
وفوجىء يونس بابتسامة ترسم على وجه طلعت ، وهو يهمس له كما لو ان الحديث الذى بينهما ، كان حديث مودة وصداقة ..
— هاهى .. قادمة ..
والح طلعت هامسا :

ـ هيا قل ما رايك فيها .. وعاد يلح وهو يلكز يونس ..

ـ قل بسرعة .. ما رايك .. ؟

ولكن يونس لم يفتح فمه بكلمة .. وهو يرى تلك المـــراة القادمة ، الملونة ، المزركشة ، وجهها حاد القســمات ، وجه شركسى فيه جموح لو جنون شعرها أصفر ، وجه جميل طويل كوجه فرس ، لها عينان واسعتان ، فيروزتان ، لها جاذبيـــة باردة جاذبية المرمر والرخام . خيل ليونس أن مثل هاتين العينين يصعب عليهما أن تريا شيئا خارج صاحبتهما ، كانت صــامته ، نظراتها المعلقة ، تغوص فى أعماقهــا ، عندما اقتربت هب مع مقدمها عطر نافذ ، حريف ، ونظرت بعيدا ويونس يهمس بكلمات مجاملة وتهنئة ، ولم تسمح له أن يتكلم كثيرا ، فقد التفتت فى سأم الى طلعت ، وقالت بصوت غير مسموع كلمات لم يتبينها يونس ونظر طلعت الى يونس معتذرا ، وقال بصوت خشن :

ـ نحن مضطران الى ان نتركك الآن يايونس

ولم تنتظر المراة حديث طلعت ، ولم تهتم بتحية يونس ، تحركت الى خارج الكافتيريا ، فتابعها يونس بنظرات هادئة ، لا تفصح عن شىء ، بينما ارتبك طلعت ، وهتف ينادى الجرسون واسرع يخرج نقودا من جيبه ، فسقط بعضها على الأرض فمد يده يلتقطها ، ولاحظ يونس أن على جبين طلعت عرقا خفيفا .. وتامله وهو يقذف بالنقود للجرسون ، وهو يقول فى سره ، مسكين طلعت، كان يريد أن يقول لى هذه الزوجة الجديدة ملك يديه ، وانها مجرد متاع يتمتع به ، وجارية خاضعة له ولكن هذا غير صحيح بالمرة .. لقد كان يخدع نفسه ، لانه واضح انها التى تأمر ، وتتحرك فى ثقة ، واضح أن طلعت لا يملك امامها الا الانصياع .

كان طلعت يهمس الآن وقد تغيرت لهجته تماما ، يكاد يتوسل اليــه ..

ـ هه .. ما رايك ؟

قال يونس فى برود :

ـ لا اعرف ..

ـ ساله وهو يجذبه من يده :

ـ لا تكن سخيفا .. اليست جميلة .

قال يونس :

ـ نعــم ..

ساله بلهفة اكبر :

ـ بنت ذوات حقيقة .

قال يونس وهو يكتم ضحكه :

ـ نعــم ..

قال طلعت بزهو :

ـ لا تستطيع أن تنكر هذا ..

قال يونس مستسلما :

ـ بكل تاكيد .

قال طلعت وهو يكافح لاستعادة وقاحته :

ـ واجمل من اختك ..

قال يونس باسما :

ـ طبعا ..

فضربه طلعت على كتفه فى مرح .. وقال :

ـ ملعون ابوها ـ كلها أيام وسوف ترى ماذا انا صانع بهــا ..

ثم اردف بلهجة عملية :

ـ آسف يا يونس .. كنت اتمنى أن اقضى معك وقتا اطول .. ولكن انت تعلم .. ثم السفر غدا ..

وهجم طلعت على يونس يعانقه . ويضغط على صــدره بشوق وحرارة .. وهو يردد .

ـ أريد ان اكون صديقا لك .. حقا هذا هو ما أريده ..

واغفر لى حماقاتى .. ولا تغضب مما قلته .. وانت لن تفهمنى حتى تتزوج ..

ثم هزه بكلتا يديه ، وادرف :

ــ هل تريد ان ابحث لك عن عروسة يا ابن الكلب .. ؟

وانطلق يجرى .. تاركا يونس ينظر اليه ، وهو يختفى من باب الكافتيريا وشىء من العــــاطفة او ربما الفهم ، او ربمــا الاحساس بنوع غريب من الالفة .. لها مذاقها الخاص ، يتسلل اليه ..

كان من الصعب ان ينسى يونس تلك اللحظات التى قضاها مع طلعت ، وهذا الحديث المحموم بما فيه من مشاحنات ومصادمات ومصارحات وشتائم وعواطف صداقة ومحبة .

فى الصـــباح ، جاء سيد العتر الى الفندق ، يحمل معه خطابا مغلقا ، كتبه طلعت ليونس ، واوصى سيد بأن يحمله اليه ، وفتح يونس الخطاب وقرا ..

اخى وحبيبى يونس

تحياتى واشواقى . انت على حق . البنت محاسن تشغلنى واخشى الا ترضى امها بالذهاب الى بيت ابى . فكرت طوال الليل ، فلم اجد غيرك الجأ اليه ــ ارجو ان تسأل عن البنت ، وتحاول اقناع امها بالذهاب الى بيت ابى . لا تهمل هذا الموضوع ارجوك . لان احدا غيرك لن يهتم بما يحدث . حتى انا .. لانى أب فاشل ومجنون وفاجر كما تقول . ولا اعرف غيرك يستطيع التصرف بما اعهده فيك من شــــهامة وجدعنة يا يونس يا ابن الاصول . اما سيد العتر فراقبه واذا لعب بذيله فاطلب من ابيك ان يقبض عليه ، او يهدده . فهو جبان ولئيم .. سأرسل لك عنوانى وتستطيع ان ترسل لى اى اخبار عن طريق مكتب الحاج .. سلامى وقبلاتى اخوك طلعت .

الفصـــل العــاشر

جاء يزورها سيد العتر . ثعبان يتلوى ، ينفث عواطفه او ســمومه ، يصــور لها البحر الهائج العاصف بحرا من العسل والطحينة ، يتحدث عن طلاقها كمعجزة خلاص ، وابواب سعد تفتحت .

قال لها ان منيرة تسأل عنها تريد ان تزورها ، فمنذ علمت بطلاقها ولا يغمض لها جفن ، لانها تريد ان تطمئن على احوال ابنة زكريا ، قالت لسيد ان لفاطمة وحشة ، وهى تريد ان تلقاها ، لانها لن تتخلى عنها ، وهى تسأل اذا كانت الظروف تسمح بحضورها ، لانها تعلم ان هناك مشاكل خاصة بالنفقة ، وبحضانة البنت ، وهى لا تريد ان يكون حضورها سببا فى اية مشكلة يثيرها الحاج مرسى وابنه .

استمعت فاطمة الى سيد ، فخافت منه ، وخافت من كلامه ، وخافت ان تظهر له خوفها ، لانها واثقة انه ينتظر لحظة ضعف ليهجم ويلدغها . كانت كلمات سيد تحاصرها ونظراته تحوم حولها، ومنيرة هناك يتربص شبحها بها من وراء سيد ، انها تعرف ماذا يريد ، وماذا تريد منيرة ، وكلاهما شرير ، لن يتردد فى ارتكاب اى شىء ، ولن يتورع فى الاقدام على اى شىء ، وسوف تدافع عن نفسها ، وهى تعلم انه لن يكون دفاعا سهلا ، وربما اضطرت الى قتل سيد ، او ربما ضـــحت بروحها ، ولابد ان تدافع عن محاسن ، ولن يمسها سوء ، ولن يخطفها سيد ، ولها رب اسمه الكريم ، لابد ان ينقذها من هذه الشرور ، فرغم كآبة الواقع

وبشاعة ما تراه يحدق بها ، ويضيق من حلقات الحصار حولها ، الا
ان شعورا قويا فى اعماقها يحدثها أن الدنيا فيها خير ، وان كانت
لا تتبين من اين يأتى ، وهى واثقة أن الذى يهب لها ولابنتها الحياة
حتى هذه اللحظات ، لن يحرمها من امل ومن رحمة ، ولن يتيح
لمنيرة أن تستولى عليها ، ولن يسمح لطلعت أو أبيه ان يحرمها من
ابنتها .

كانت سيد العتر مازال يحدثها عن منيرة ، وكيف انها وعدت
بأن تتكفل بكل شىء لترعى ابنة زكريا وحفيدته . فتذكرت آخر
لقاء مع منيرة ، عندما جاءت لتعزيها فى وفاة والدتها . وكان لقاء
محيرا ، لأن شفيقة أمها كانت لا تحب منيرة ، ولابد أن منيرة كانت
تعلم ما كان يسلقها به لسان شفيقة ، فقد كانت شتائمها
وصيحاتها ولعناتها مسموعة من الحارة ، ويتناقلها الحى ..

فلماذا تجرأت منيرة وجاءت ، أتريد ان تتشفى فى وفاة
غريمتها ، أم هى تؤدى واجبا لابد منه نحو ابنة زكريا ، أو هى
تنفى عن نفسها الاتهام المعلق بانها كانت السبب فى موت زكريا .
أو لعلها فضولية تريد ان ترى البيت الذى تعيش فيه فاطمة ،
وتحسد العز الذى تتمتع به ، وتحسد الطفلة الصغيرة التى
ولدتها . انها جاءت لواحد من هذه الأسباب ، أو من أجلها كلها ،
ولكن من المستحيل ان تكون قد جاءت لأنها حزينة فعلا على وفاة
شفيقة . وهى بالمثل لن تجىء اليوم وهى حزينة لطلاق فاطمة ،
بل هى سعيدة ، وتريد أن تستغلها . سوف تطلب منها أن ترقص
لتطوف بالافراح ومعها الراقصة ام البنت حفيدة الحاج مرسى ،
وابنة طلعت . ولتقتنى من وراء ذلك المزيد من أساور الذهب التى
احاطت بذراعيها السمينتين عندما جاءت تعزيها ، فخطفت أبصار
المعزيات اللاتى يسمعن عنها ويتتبعن اخبارها .. وجلست بينهن
كتلة من اللحم فوقها طيات من طبقات الشحم ، وكرات ضخمة
على صدرها وبطنها وعجزها وفخذيها ، تدخن السيجارة ، تلو

السيجارة ، وتبادل السيدات نظرات صريحة جرئية . ومع ذلك
تأثرت برؤيتها عندما زارتها تلك المرة ، ! لانها ذكرتها بأبيها ،
فمهما كان ، كلاهما ارتبط بالآخر ، وعلاقة ابيها بمنيرة كانت اقوى
من علاقته بأمها فى سنواته الأخيرة . وقد تكون منيرة هى النهاية
والمصير الذى لابد منه آخر الامر . ولكنه مصير تفكر فيه ، تماما
كما تفكر فى الموت ، مصير يداهمها ، يفرض نفسه عليها ، فاذا
فعل ، كان معنى ذلك أن حياتها انتهت ولم يعد لها وجود . انها
لن توافق على رؤية منيرة ، والحماية التى تفرضها عليها ، معناها
ان تبتلعها ، ان تخضعها لكل ما تريده أن تشدها الى هاوية ،
منيرة وحدها التى تعرف قرارها .

قاومت فاطمة ان تصرخ فى سيد ، وأن تطرده من البيت ،
لو فعلت سوف تستفزه ، وستفتح له باب الهجوم والعدوان على
مصراعيه ، الثعبان لا يسرع بالهجوم الا اذا شعر بالخطر يحدق
به ، وفيما عدا ذلك فهو يتحرك نحو هدفه فى كسل لا يخلو من
شعوره بالنشوة . وهذا هو ما يفسر الارتياح الذى يكسو وجه
سيد ، لابد انه يقول لنفسه انها راضية ، وانها تلين ، وسوف
تستسلم ، ولابد انه يسأل نفسه فى هذه اللحظة اذا كان الوقت
مناسبا ليمد يده ، الى صدرها ، أو لعله يهجم عليها ايذانا بمحاولة
استعادة محاولات الماضى . بين اصابعه وجسدها ثلاثة اشبار ،
لعله يظن انه يستطيع أن يقطعها فى ثوان .. ولكنها ستثبت له
أن ما بين اصابعه وجسدها سنوات وسنوات ، وسوف تصرخ ،
وسوف تجرى الى المطبخ ، وتمسك بالسكين ، ولن تتردد ، ولن
يهمها اذا ما قتلته او انتزع منها السكين وقتلها ، لانها لن تتوقف
عن مهاجمته ، لن تفكر الا فى تدميره ، ستكون فى اية حركة منه ،
نهايتها أو نهايته . اما كلامه فليس عليه جمرك ، فليتكلم كما يشاء ،
وليحلم كما يشاء ، ولو لبعض الوقت .. فهى تشترى أياما او
ساعات او ربما لحظات .. قبل أن تقع الواقعة ، ويهجم هذا

الثعبان . هاهو يسألها متى تذهب معه الى منيرة . منذ برهة كان يسألها متى تزورها منيرة . كيف الخلاص منه . أمكن ان تجد الخلاص . أتهرب وتترك هذا البلد ، ولكن الى اين ، انها لا تعرف سوى الاسكندرية ، ولن تطيق الحياة بعيدة عنها ، كان ابوها يطفش ويغيب ان يتوه . وكان يغنى ، وكان احيانا يرتدى الطربوش الاحمر الذى يقول ان الناس كانت ترتديه أيام زمان . ويمشى متمايلا متخايلا ، فيردد الذين يرونه كلمات اعجاب .. فهو نجف وهو ورد وهو السطه وهو مملكة ، ولكنها لا تستطيع ان تطفش وتتوه مثله . ولا تستطيع ان تهرب وحدها كما كان يفعل ابوها .. لابد ان تأخذ معها محاسن اينما ذهبت . تحملها على كتفها وتذهب ، ولكن الى اين .. اتذهب لتخدم فى بيوت الناس ، مستحيل ، وهى لن تدخل بيت الحاج مرسى ، لانها تعلم عن يقين انهم سيعاملونها كخادمة ، كما كانوا يفعلون فى الماضى .. يتصدقون عليها ويسمحون لها بان تكنس لهم البيت . لن تواجه هذا الذل ، لن تستسلم لهذه الهزيمة ، لن تترك عيونهم تفترسها وهى ذليلة ، يتفرجون على من كانت زوجة ابنة الحاج ، مطلقة خادمة ، لا حياة لها ، الا بالشفقة والاحسان .

قالت لسيد ، ان يخبر منيرة ، انها على حق اذ تسأل قبل زيارتها ، لأن الحاج يريد ان يأخذ ابنتها ، وهى لا تريد ان يجد مبررا ليسلب الحضانة منها ، أو يحرمها من النفقة ، لا تريد ان يقول : ان من حقه أن يأخذ محاسن ، لأن منيرة اخذت فاطمة . انها لن تقابل أحدا ، ولن تخرج من البيت ، حتى تجد مخرجا لهذه المشكلة ، وأدرك سيد العتر على الفور انها كانت تخدعه عندما تظاهرت باللين والاستسلام ، أو لعله تسرع فى استنتاجه . ولاحظت عليه وجوما مفاجئا . وكف عن ثرثرته ، ولأنه ثعبان له حاسة خاصة مثل كل الثعابين ، لابد أنه ادرك أن عليه أن ينتظر ، وانها ليست مهيأة بعد للرضوخ . فأغفل ما يفكر فيه ولم يمد يده ، ولم

تلمسها أصابعه . وانصرف بعد أن قال انه سيعود . وكانت واثقة انه سيعود ومعه منيرة . رغم انها راوغته ، رغم انها قالت له انها ليست فى حاجة الى نقود . وانها لا تريد أن ترهق منيرة بأى طلب .

سيغيب سيد بعض الوقت ، حتى تشعر بالوحدة ، وعندما تحتاج الى أنيس ، وعندما تفتقد الحنان ، وعندما تنعزل عن المشورة ، وعندما لا تجد احدا تكلمه ، وعندما يتلكأ وصول النفقة ، وعندما بجوع جسدها وعندما تزداد مخاوفها وتتسع شكوكها .. عندئذ سيعود ، ويعاود هجومه .

وعندما سمعت جرس الباب يدق ، عصر ذلك اليوم ، دق قلبها ، وايقنت ان ساعة الامتحان قد دنت ، هاهو سيد أو منيرة او كلاهما ، فقد مضى حوالى اسبوع منذ اختفى سيد . ذهبت الى الباب ، وهى ترى بخيالها مكان السكين فى المطبخ ، فهى تتوقع المصائب ، وتتوقع انها ستكون فى حاجة الى كل لحظة فى ذلك الصراع الوشيك الذى ستواجهه ، صراعا بين الحياة او الموت ..

وفتحت الباب ، لتجد امامها أخر من كانت تتصور رؤيته ، كان أمامها يونس عبد المجيد صفوت ، ابن النائب العام . كان يقف شاحب الوجه ، معتذرا وجلا ، يقدم رجلا ويتأخر خطوتين . ولم تكن اقل منه ارتباكا ، ومع ذلك كانت لقدر منه على ان تلقى بكلمات ترحيب لابد منها .. أهلا بك ، تفضل .. كلمات مجاملة تتطاير فى الهواء ، كلمات يكتنفها الغموض ، تتحسس شيئا لاتعرف كنهه ، تداعب أملا لا تدرى ما هو ، ولكنه موجود فى رأسها ، وفى صدرها ، أمل موجود بكل تأكيد ، لانه يضغط على انفاسها .. امل تقطع بانه متصل بطلعت .. جاء ليقول لها ان طلعت سيعود ، لا شك انه يحمل انباء من طلعت ، والا لماذا يجىء مثله الى هذا البيت . كان يتحدث بصوت عصبى يوشك ان ينخرط فى بكاء .

ما الذى يقوله ، انه يسالها اذا كانت تريد شيئا . ويسالها عن ابنتها ، لماذا يسال ، ما الذى يريده ما الذى يدبره ، هاهو يذكر طلعت ، يقول ان طلعت هو الذى طلب منه المجىء قبل أن يسافر الى الخارج ، سألته وهى تحاول أن تزيح هذا الشىء الذى يضغط على صدرها ، متى يعود ، اجاب لا اعلم . أيتحدث عن طلعت آخر غير الذى تعرفه . أيتحدث على طلعت الذى أراد أن يتزوج شقيقته . طلعت الذى يطلب منك أنت ان تسال عن ابنته وكأنك قريبه . طلعت الذى تعرفه هى ، شخص آخر ، يرتبط بها منذ زمن بعيد ، كان يعيش معها فى حارة ، وكان أبوه اسطى ، وكان يعرف كيف يعامل الناس ، وكان يحـــترم اباها . ويقلق عليه ، ويحفظ الود ، يرعى الجيرة .

لم تعد تفهم ما يقوله يونس ، لعلها لا تسمع جيدا ، ولعلها ترفض ان تسمع ، ولعل الأصوات التى تتدافع فى رأســـــها تشغلها عن سماع ما يقوله .. ولانها بالتأكيد كانت مصممة على ان تسمع النبأ الوحيد الذى ترضى أن تســـمعه ، وهو أن طلعت سيعود ، وهو نادم ، وهو على شوق اكبر من ان يقاومه ، اما غير ذلك من كلام فلا اهمية له . وهذا الرجل الذى أجلسته على مقعد ، يتحدث بكلمات لا معنى لها ، يخرف ، يهذى ، وهى على اية حال واثقة انها لو ارهفت نفســـــها لتفهم شيئا مما يقوله ، فستكتشف انه يكذب ، ويخدع ، وانه اكثر شرا ولؤما من سيد العتر ومن منيرة ، ومن كل اولئك الذين اختطفوا منها طلعت ، وباركوا خيانته لها . ان هذا الرجل جاء ليقول لها ان طلعت قد انضم الينا ، اصبح واحدا منا ، وانه لا يريد أن يتعامل معك الا عن طريقنا .

ولكن صوت يونس فرض نفسه وهو يقول منفعلا :

ــ سأكون بجانبك . لن اتخلى عنك .. وسأساعدك فى اى شىء تطلبين .

كيف يساعدها ، وهى تريد أن تدافع عن نفســـها ضـــده ، وضـــد أمثاله .

انه قادم من العالم الذى ابتلع طلعت ، ذلك العـــالم الآخر الطريق الذى يسير فيه الناس فلا يعودون ، انها قادرة على السيد العتر ، قادرة على منيرة ، لأنها تفهم ما يقولونه ، تدرك ما يدور فى رءوسهم ، تعرف أفكارهم وخلجاتهم ، وتكاد تتنبأ بكل ما يفعلونه خطوة خطوة . اما هذا الوغد ، فهو يتكلم بلغته الغريبة ، من طرف انفه . متعاليا ، كلامه يهبط عليها من مكان بعيد ، وبعد ذلك ، يريد أن يساعدها ، يريد أن يمنح وان يعطى ، يريد أن يتسلط ، ان يتجبر ، أن يصنع من نفسه لها . ماذا تقول له ، اتطلب منه الا يتدخل . اتصارحه أن صوته ، مجرد صوته ، يبعدها عن طلعت ، يؤكد لها أن سدودا تقوم بينهما . اللعنة عليه ، قبل أن يأتى كانت ماتزال تحلم بأن تحدث معجزة ، كانت تتوقع خيرا يأتى . كانت ماتزال تثق فى ان شيئا ما سوف يحدث ، فتنفرج هذه الغمة . انها ترضى بطلعت لو عاد . ترضى به زوجة ثانية ، أو جـــارية ، ترضى به خادمة ، ترضى به بأى وضع يشاء . ولكن هذا الرجل لن يكون أبدا الوسيط الذى يحقق لها شيئا مما ترضاه .

لابد ان يونس ادرك انها خائفة ، لا تثق فيه ، ولابد أنه شعر بأن حديثه معها لا يجد قبولا من جانبها ، وأنها تعامله بصبر وتحفظ ، والخطأ ليس خطأها ، انما العيب فيه ، وهذا التحفظ من جانبها يزيد من احساسه بالذنب ، يؤكد على ما فيه من الم . قال لهـــــا :

ــ اذا كنت فى حاجة الى نقود .. اى خـــدمة للبنت .. أرجوك .

وتوقف عن الكلام لاهثا .. وهى ترقبه بدهشة . ثم تهدج صوته قائلا :

ــ أرجوك .. ساعدينى ..

وتلفت حوله فى تأثر :

ــ هل أستطيع ان أرى محاسن ؟

قالت له فى توجس :

ـ نائمة ..

قال معتذرا :

ـ آســـف ..

وقال بكل ما يمكله من صدق ، وكان فوق ذلك يتألم :

ـ كنت اتمنى أن أراها ..

انه يلح ، وهو الآن اكثر تحررا ، واقل ارتباكا .. والانفعال الذى يلون صوته ، يمنحه قوة ، وقدرة على الاقناع ، وقد امتلك قدرا من الحرية ، جعله يشعر مع الألم ، بشعور جنين بالاعجاب بنفسه ، شعور لم يعرفه من قبل .

ونهض ، وما كاد يقف ، حتى وثب قلب فاطمة .. وارتطم فى صدرها ، واوشكت أن تتشبث به . فجاة وجدت نفسها تريد أن تمسك به ، أن تجبره على البقاء . فجاة ، شعرت بالخوف من الوحدة التى ستعود اليها . روعها أن تراه يقف ، وفهمت كلمات الاعتذار ، وكلمات الاستئذان فى الانصراف ، وهى تتحفز حتى لا تترك الفرصة تضيع فى غمار مشاعر الكراهية والنفور التى تعانى منها نحو يونس ، وكل ما يمثله لها . لاشك انها محتاجة اليه ، وهى تريد حماية رجل قوى يصد عنها اخطارا تدرك عن يقين انها مقبلة ، ولن يفل سموم سيد ومنيرة ، لا سموم يونس . هذا ضد ذاك ، وليأكل كل منهما الآخر ، ليس امامها الا ان تكون قوية صامدة أمام الاثنين ، حتى يحترقا .

كانت تبحث الآن عن عينى سـيد فى عينى يونس .. فلم تر غير شعاع غريب ، وخيل اليها للحظة أنها سبق وان رأت هذا الشعاع من قبل ، ولكن اين .. لا تدرى ..

كان واقفا ينتظر ان تتقدم الى الباب ، وكان يسأل نفسه .. هل تورط فى شىء ، أيجب أن يعتذر مرة أخرى ، هل اخطأ فى

مجيئه . وفوجىء بها تقول له بصوت رخيم حنون ، لاشك أنها لم تتحدث به من قبل ، وكأنه يسمعها لأول مرة ، وكانت تقول :

ـ محاسن فى حاجة الى من يسأل عنها

قال لها وقد حسم أمره ، كأنها أنقذته من بحر عاصف :

سأزورها عندما أعود من أماركو .

فسألته وكأنها تعاتبه :

ـ ومتى تعود ؟

وقبل ان يجيب . قالت ، لانها كانت تعلم مواعيد الاجازات :

ـ ستأتى بعد ثلاثة اسابيع .

ادرك من صوتها ان هناك شيئا يقلقها .

قال لها باهتمام :

ـ ماذا .. هل هناك شىء ؟

همســـت :

ـ لا شىء ..

فجأة وجد نفسه يقول لها :

ـ هل يضايقك سيد العتر ؟

ما كاد يذكر الاسم ، حتى وثب قلبها دهشة ، ووجدت نفسها تقول بشجاعة وكان ذكره لاسم سيد العتر قد بدد سحره ، وابطل مفعول أعماله الشريرة :

ـ انا قادرة على ان اوقفه عند حده .

قال فى هدوء :

ـ أنا واثق من هذا .

فسألته :

ـ ولكن كيف عرفت ؟

اجاب فى ارتباك :

ـ مجرد احساس .

وانهارت على الرغم منها . نظرت اليه فى هلع ، وانفجرت فى البكاء .

وهمس :

ــ ماذا حدث .. كونى صريحة معى .

واصلت البكاء .. انها تبكى لانها توشك ان تستريح ، توشك أن تطمئن .. وسمعته يقول :

ــ اعلم انك لا تثقين بى .. تعاملينني كغريب .

نظرت اليه بين دموعها فرأته يتوسل اليها :

ــ جربى .. لست شريرا .. اقسم لك ان الدنيا بخير .

اتجربه ؟

اتعامله كبنى .. آدم .. كواحد من البشر .. كانسان له قلب انسان . أتدخل عالم هذا الرجل الذى يتحدث بكل الطيبة والرقة . اتثق فى هذا الوجه الوسيم الحزين . أتثق فى هذا الصوت الحنون الحزين . اتتعامل مع نظرات هاتين العينين الحزينتين . اتقبل .. اترضى .. أتصدق انه من الممكن أن يحمل كل هذه الأحزان من أجلها .. هذا الانسان يقف خلفه نائب عام وحكومة وسلطة . هذا هو مبعوث من العالم الذى اختطف رجلها من بيتها ، من العالم الذى فيه نساء ساحرات خبيثات .. وهو يدعوها لان تدخله فى التجربة .. وهى منهارة ، تنزلق فى طريق تمهده الدموع تنهمر من عينيها ، فتجعل اندفاعها اكثر سهولة وليونة وراحة .. وبعد لحظات سوف تصل الى النقطة التى تفتح فيها فمها فتتكلم ، وعندئذ لن تقف عند كلمتين أو ثلاث . سوف يحدث شرخ فى جدار ، وسوف ينهار سد ، وسوف تتدفق منها مشاعر ، وسوف يحدث اختلاط بين عالمها وعالمه ، وهى لا تدرى ماذا يحدث بعد ذلك .

كان مازال يلح عليها ، أن تمنحه فرصة ، وأن تقول له عن متاعبها ، أن تشركه فى همومها . أن تعامله برفق ولا تحتقر وجوده ، وتظلمه .

رفعت راسها ومن بين دموعها صوبت اليه نظرات لوم .. آخر ما تبقى لديها من نظرات اللوم والكراهية .

وسألته بحدة :

ــ تقول .. تريد مساعدتى ؟!

قال :

نعم ..

سألت بحدة اقل :

ــ اصدقك ؟

قال :

ــ نعم ..

اطرقت براسها . كانت تسقط فى دوامة بلا قرار ، وتدور وتغوص ، وتدور وتغوص ، وحاولت أن ترفع راسها ، وهى غير واثقة انها تستطيع ان ترفع الراس ، فتلتقى عيناها بعينيه ، لتواجه ، لتتحداه ، لتحزم أمرها وتتخلص منه ، او تتشبث به . لتقبل ان يخدعها أو تخدعه هى ، او تخدع نفسها وتصدقه .. بذلت جهدا فوق الطاقة ، كانت هناك قوى رهيبة غامضة داخلها ، تصارع ، وتمنعها من ان ترفع راسها ، وأن تراه .. كان مشوارا صعبا مرهقا مضنيا ، كيف حققته .. وقطعت راسها ذلك الشوط الشاسع بين انخفاضه وارتفاعه . انها لا تدرى ، ولكنها رفعت الراس فى النهاية ، وواجهت عيناه بعينيها .. وقد اختفت الدموع ، أو لعلها جفت فجأة ، وهاهى تراه من جديد ، بكامل وعيها ويقظتها ، وهاهى تتكلم :

ــ اتستطيع أن تحمينى ؟

مازال يقول .. نعم .. كل ما عنده .. نعم ..

قالت بسرعة .. تصدر أوامرها ، تطالب ، تمارس حقوقا تطلق بلا حدود :

ــ لابد ان تحمينى من سيد العتر .. انه يطاردنى .

وحكت له . كل ما فعله سيد ، وكل ما تتوقع أن يفعله ، روت له ما كان لا يتصور أنها ستروبه له ووجد نفســه وقد تحول الى مســرح حرب ، بين مخاوف غامضــة تهاجمها مخاوف واضحة ، مخاوف ســاذجة ، كان اخطر ما فيها هو غموضــها ، تتراجع امام مخاوف اكبر وابشع ، ولكنها رغم وضوحها لا تثير فى نفســـــه خوفا حقيقيا ، لأنه سيقف الى جانبها ، مهما كان الأمر .

وسالته بعد ان استمع الى حكايتها :

ــ هل تستطيع ان تفعل شيئا ؟

قال بهدوء :

ــ اطمئنى ..

ثم أردف :

ــ لن يضايقك سيد بعد الآن .

نهضت ، كانت تريد اعداد طعام له .. لماذا لا يأكل .. ؟ اعتذر .. لا يستطيع ان يقضى كل هذا الوقت معها .. الوقت يمر ، وهى امرأة ، وصراحتها وتجاربها ، وحكايتها تكشف عن أنوثة تفرض نفسها ، ولا يستطيع أن يتجاهلها ، وتذكر للحظة ، طلعت وهو يسأله ساخرا .. الا تشتهى .. الا ترغب .. وتذكر طلعت وهو يتهمه بالعجز .. أو الشذوذ .

لم يستطع ان يشرح لها ما بداخله .. ولكنها كانت أكثر جراة منه .. لأنها تصر :

ــ ابق .

وهى تراه ينظر فى ساعته . فتردد :

ــ انتظر .. ســــوف تستيقظ محاسن الآن . لا تتركها وحيـــــدة ..

انها تتكلم بلا ضابط ، كلماتها سريعة حاسمة ، تتكلم وكانها لا تريد أن تسمع ما تقوله . الكلمات تختلط بالأمنيات ، تختلط بالانفعـــــالات ، وتخرج رغما عنها ، ودون أن تفكر فيها ، أو

تستوعبها وتدرك مغزاها ، أو تراجع ماذا يكون لها من رد فعل « هذا الرجل الذى يستمع اليها » .

كانت كلماتها تتضخم فى صدره ، وتثقل عليه بأحمال باهظة ، فقال بعصبية :

ــ لابد أن أذهب .

وقالت بسرعة وبغير تفكير :

ــ طيب .

كانت أفضل الكلمات .. بعد أن واجهت وجوده كرجل ، وتوقعت أن يقدم على شىء .. وأن يحميها من سيد .. وهو على أى حال ، ليس مثل أولاد الحارة ، وهو كرجل يبدو غريبا .. باردا ، غير مهتم ، أهكذا الرجل عندهم ــ أهذا هو السبب فى أن نســـاءهم ترضى بالزواج من طلعت .. هذا الرجل مربوط بسلاسل ، ولكنه يشعرها بالاطمئنان .. ولسوف تدخله التجربة . فاذا لم يأت سيد العتر يطرق بابها ، يكون قد صدق فيما قال .

الفصل الحادى عشر

استمع سـيد العتر الى تهديد يونس بخوف حقيقى ، وزاد من خوفه انه لم يتوقع ان يخاطبه يونس بهذه اللهجة عن فاطمة . بل لم يتوقع اى ذكر لفاطمة ، وكان ينتظر عندما طلبه يونس ، ان يفاتحه فى شراء السيارة ، فذهب اليه فى الفندق وهو يتوقع أن يعود بجيوب دافئة مليئة بالنقود ، فيذهب الى فـاطمة وهو على أتم استعداد ، ليظهر لها فى اية لحظة أن معه من النقود مثل طلعت ، وانه أحسن من طلعت الذى غدر بها كما غدر بسيد ..

كانت كلمات التهديد تخرج من فم يونس بصوت هادىء ، واثق ، لو اقترب سيد من فاطمة ، أو حاول أن يمس شعرة من راسها ، فلن تقوم له قائمة .

رأى سيد العتر ، السـلطة ، والنيابة العامة ، فى هيئة يونس ، وصوته ، وسمته ، كان السلطة جزء من شخصيته ، وكان لا مفر من ان يذعن ، أن يستسلم ، أن يركع ، ويتوسـل فى هلع يجيد التظاهر به ، كما تعود أن يفعل اكل من تبدو عليه علامات السـلطة .. انهم يحبون اذلالك ، مزاجهم ان تلعق احذيتهم ، وان تمرغ راسـك فى التراب امامهم ، عندئذ ينتفش صـدر الواحد منهم ، وترتسم عليه ابتسامة رضا .. وتمتلى عيناه بنشوة ، ويرتفع كتفاه فى محاولة دائمة لأن يرفع راسـه ، بينما تغلظ رقبته ويميل مختالا الى جانب .. وهو يثنى ركبته اليمنى او اليسرى قليلا .. هكذا يراهم جميعا ، وسوف يرى نفس الشىء فى يونس بعد قليل ، وبعد أن يقدم له الجرعة المناسبة من الذل والمسكنة .

ارتجف صوت سيد من الهلع وهو يسأل :

ـ هل شكت لك ؟

لم يجب يونس عن السؤال ، لن يسمح بأسئلة واجوبة .. لن يتعامل الا من مكانه الطبيعى ، كما يجب أن يتعامل مع هذا المجـرم .

ردد يونس ما يقوله فى برود .

ـ لا تقترب منها .. وكفى .

ردد سيد بسرعة :

ـ أقسم لك .. ليس لى بها صلة .

فأشار يونس بيده وهمس :

ـ كفى .

كان يونس يدعوه باشارته الى مغادرة الفندق .. وهاهو يتحرك ببطء نحو الداخل فى اتجاه المصعد .

ولكن سيد لن يتركه .. سار خلفه خطوتين ، فلما رأى يونس يتوقف ، ويشير له ، سارع يقول فى ذلة :

ـ سيادتك لا تأمر بأى شىء .

قال يونس بسرعة :

ـ لا ..

فابتسم سيد وانحنى براسه ، وقال :

ـ سعادتك لم تقل لى شيئا .

فسأله يونس بدهشة :

ـ عن أى شىء ؟

اتسعت ابتسامة يونس وقال :

— عن السـيارة ..

واخرج مفاتيح بحركة سريعة من جيبه ، وهو يقول بلهجة طبيعية حارة :

— سـيارة سـعادتك .

الوغد يعرف انه يخترق تحصيناته ، يهاجم دفاعاته ، وهو يهاجم بسلاح قوى ، سيارة قوية . وثمن بخس بالنسبة لها ، وبالتقسيط .. لماذا يذكر السيارة الآن ؟ ، ايكون يريد ان يقول له : ان السيارة فى كفة وفاطمة فى كفة اخرى .. اهذا هو رده على ما سمعه من تهديدات ، اهذا هو ما يواجه به الكلمات الآمرة التى أطلقها من واقع ايمانه بضرورة حماية تلك المراة ، والدفاع عن كرامتها وحقها فى الحياة .

اهو يبالغ ويشطح به الخيال ، وهو يسمح لهذه الخواطر ان تتدافع فى مخيلته ، اهو مجنون لا يرى الواقع ، ويفهمه بطريقة شاذة غير مقبولة من الناس . لماذا اصبحت مواقف الحياة معقدة ، فيها كل هذا الاضطراب والخلط والانفعال والتفاعل ، لماذا ضاع الصفاء ، واختفى الوضوح ، وارتبكت الرؤى والمشاهد . انه يتمنى لو اخذ هذه السيارة ، فهى فرصة قد لا تعوض ، واذا لم ياخذها ، فهو واثق أن اباه لن يتردد فى شرائها ، فهو يذكر كلمات حزينة له همس بها فى أذنه ، عندما طلب منه ان يرى ما العيب فى العربة النصر التى اشتراها منذ عشر سنوات ، صحيح انت مهندس بترول ، لكن لابد لك دراية بالسـيارات .. اختك هى السبب فى تعب المحرك ، وأمها تشجعها حتى تتخلص من هذه السيارة واضطر الى شراء اخرى ، ولكن كيف أشتريها وأنا ابيع كل عام فدانا مما ورثته عن ابى . لن اترك لك شيئا بعد مماتى ، سوى الكرامة واسم عائلة حافظت على تقاليدها فى اقامة العدل فى البلاد .

ثم هذا الرجاء الذى نطق به الاب .. لو اسـتطيع ان أشترى سيارة مناسبة معروضة للبيع بعد اسـتعمال بسيط ، سيارة دبلوماسى مسافر مثلا .

لم تاخذ هذه الخواطر اكثر من ثوان قبل ان يقول لسـيد بلهجة قاطعة :

— لا افكر فى شراء هذه السيارة .

وانطلق مبتعدا ، وقبل ان يصل الى المصعد ، وجد درجات السلم امامه ، فارتقى الدرجات ، حتى يتخلص بسرعة من سيد ، الذى ادرك فى تلك اللحظة فقط مدى خطورة التهديد الذى يوجهه له يونس . انه لم يفعل مثل الآخرين ، وتجاهله ، وهذا يعنى انه سيحاربه ، وانه عدو له ، فلياخذ حذره ، وليبتعد عن فاطمة حتى ينجلى الامر ، ويفهم سر هذا الرجل ، الذى لا يتعامل مثل بقية الحكام مع انه ابن احد الحكام .

وكان هذا بمثابة دعوة لسيد العتر ، لان يتتبع اخبار فاطمة عن كثب ، وان يلاحظ ان يونس عندما عاد من « اماركو » فى اجازته التالية ، لم يسافر الى القاهرة ، وتردد على بيت فاطمة مرتين فى ثلاثة ايام ، البنت فاطمة تصرفت بسرعة ، هكذا فكر سـيد العتر ، واختارت بديلا لطلعت ، اختارت ابن النائب العام ، شعر سيد ببعض الزهو رغم هزيمته . فهى لم تفضل عليه اى انسان ، واذا كانت قد نجحت فى الاستيلاء على يونس ، فهذا النجاح هو الذى يحميها ، ما يونس نفسه فلا اهمية له ، ولا ابوه ، لان امثال هؤلاء لهم ايام يزهون فيها ، ويتفشون ، ويجعجعون ، ثم يختفون ، وتستطيع ان تبصـق على ذكراهم بلا ادنى خوف او وجـل ..

ولم يبتعد سيد عن الواقع كثيرا ، وهو يتخيل ما يحدث بين فاطمة ويونس ، كل ما فى الأمر انل تعجل الأمور ، وسبق الاحداث ، وتنبأ بما سوف يقع قبل ان يقع .

فعندما عاد يونس الى بيت فاطمة ، كانت محاسن هى محور اللقاء ، وقد اشترى لها لعبة ، دبة سمينة كبيرة ، ولم تمض دقائق حتى كانت فاطمة تساله اذا كان يريد يغسل وجهه ، فقد فاجاها انه قادم لتوه من الصحراء ، وذهب الى دكان اللعب ،

وجاء الى بيتها مباشرة ، وبعد أن خرج من الحمام وجدها تسأله اذا كان يريد شبشبا ، أو يريد أن يخلع سترته ، وكانت تسأله وهى تتحرك ، واختفت ، وعادت ومعها الشبشب ، وتركته مع محاسن ، وانشغلت عنهما .

خيل اليه ان مرضا ينساب الى عقله ، البيت رطب ، والستائر مسدلة ، والجو يدعو الى النعاس ، رغم ان أصوات الشارع تأتى من بعيد ، وحاول ان يتذكر بصعوبة شيئا. اشبه بعمليات حساب تدور فى رأسه ، ولكنه يفتقد القدرة على التركيز ومعالجة تلك المعادلة التى ترتسم فى ذهنه دون أن يتبين رموزها بوضوح ، وشعر ان هذا المرض جديد تماما عليه ، وانه فى حالة مختلفة تماما عما كان عليه فى اية لحظة من لحظات حياته ، وانه على ابواب مجهول ، ولا بأس بهذا المجهول ، ولا مانع أن يتعرف عليه ، ويقبل هذا التغيير المفاجىء ، وهذا الشعور بالنعاس والوخم ، وهذا الطفلة التى تجر الدبة ، وتتشقلب معها ، وتبتسم له ، وتعبس ، وتجذبه من سترته ، وهذه الحجرة التى تضمه مع البنت ، بينما اختفت الأم ، بعد أن قابلته بترحاب ، وكرم ضيافة ، ونعومة وانوثة ، ايكون هذا هو الشيطان .. ثالثهما : أهو يستسلم لخدر اطلقه ابليس .. أهى لحظة ضعف يمر بها . الانسان اضعف من أن يكون قويا فى كل لحظة ، ولكنه لا يستطيع أن يضعف فيخذلها . أول سؤال القاه عليها . كان عن سيد العتر وهل ضايقها ، فقالت له بعينين فيهما شكر واعتراف به ، أن سيد اختفى تماما ، ولم تر خلقته . ولا يستطيع أن ينكص عن وعوده بحمايتها ، وما تفعله الآن ليس اكثر من محاولة تبديها لتشكر له وقوفه الى جانبها .. لا يجب أن يترك المرض يتطور ، والشيطان يتهور ، هاهى ذكرياته تعاوده ، هاهى حساباته التى يجريها فى عقله تطل عليه ـ معادلة الجبر برموزها تتضح ، ولكنها تتراجع ، وتهرب بسرعة ، فقد ظهرت عند باب الحجرة .

وابتسامة تضىء وجنتيها . انها تتحرك ، نشيطة ، مطمئنة ، تقدم له القهوة ، وكأنها تقدم مشاعر صداقة ، فكل ما تفعله ينساب فى عروقه ، ومحاسن جالسة على الأرض ، والدبة بجوارها ، يتدحرجان فوق السجادة ، حتى ترتطم بقدميه ، وهى تنهرها . هذه الطفلة هى ثالثتهما ، وليس الشيطان ، طالما تفرض هذه الطفلة وجودها فلن يحدث شىء ، وطالما هى هناك على المقعد الآخر ، تبعد عنه حوالى مترين .. كل سنتيمتر له اهميته . انه جزء من تلك العملية الحسابية أو المعادلة الجبرية التى يريد أن يستوعبها ، كل زاوية ، أو سنتيمتر او ملليمتر ، أو جزء من المليمتر ، الى متى تستمر الحسابات ، اى شعور آخر يهاجمه الآن هو ذنب لا يغتفر هو مسئولية ، أو مصير . انه لن يتحول الى سيد العتر ، ولن يرتكب جريمة ، لن يتورط ، ولن يستغل ضعفها ، ومع ذلك ، انها تفجر داخله من المشاعر ما كان ليستطيع ان يشعر بها ، لولاها ، بلحمها وعظامها ، بشعرها المنسدل على جبينها ، بعينيها السوداوين الابنوسيتين ، كل ما كان يراه قبيحا ، بذيئا ، شهوة أو غريزة ، يتغلف باغلفة ناعمة ، ويتدفأ ، وينتعش ، ويتمطى ، ويتوثب ، وكأنه يعود الى طفولته هل يتقدم منها .. يغازلها . هل يترك العنان لهذه الرغبات الصبيانية التى تتصاعد داخلل . انها رغبات لذيذة ، وهو لا يشعر بانه يخطىء أو يرتكب ذنبا ، أو فعلا حقيرا .

انتفض واقفا ، عليه أن يقاوم فكل هذا الذى يجول برأسه ، يدفعه دفعا الى أن يتقدم منها برفق ، ويجذبها من يدها ، ويحيطها بذراعيه ، ويحتضنها ليتقدما معا نحو حجرة النوم ، بعيدا عن هذه الطفلة التى تلهو بالدبة ، بعيدا عن كل شىء .

ولكنها حجرة نوم طلعت .. الحجرة التى تركها طلعت ، أهذا هو ما سوف .. يقدم عليه .. أن تشويه البقايا التى تركها

طلمت ، النفاية .. بقية الطعام .. هاهي الحسابات تتضح ، والرموز تكشف عن معانيها الحقيقية .

تمتم بعد ان وقف ، بكلمات سريعة ، لابد ان اعود للفندق . لابد ان استريح ورفض ان تدعوه لطعام ، ورفض أن يسمع اية كلمة . ولم يهتم كثيرا بأن يراقب وجهها الذى بدت فيه علامات دهشة وغضب وعدم فهم وكتم انفاسه ، او هكذا خيل اليه ، حتى وجد نفسه يقطع الطريق الضيق فى اتجاه طريق الحرية بسياراته المسرعة الصاخبة الزاعقة ، ومن بعدها سور النادى من خلفه اشجار واشجار .. ووقف على الرصيف مبهوتا وقد داهمه خاطر غريب .. اذ تمنى لو لم يكن بشرا ، تمنى لو كان خالقه احياه شجرة مثل تلك الأشجار .

انقضى يوم ، لا يذكره ، ولا يستطيع أن يحدد ما جرى فيه ، يوم ابله ، يوم غبى ، شاهد فيه فيلما سخيفا لم يفهمه ، وقرا صحفا لم يفهم سطرا واحدا من سطورها ، وكان يتذكر بين ساعة واخرى ان من واجبه ان يتصل بامه فى القاهرة .. او يسافر اليهم ، ثم ينسى ما كان يتذكره ، ولا يفعل ما كان يتصور انه لابد ان يفعله .. فى اليوم التالى ، ذهب يزورها ، وفى هذه المرة استطاع ان يفرض على مشاعره اشكالا متعددة ، استجابت لها كلها ، فى الابتسام الذى يتحول الى ضحك وقهقهة ، والشعور بالاسترخاء ، والحديث الجاد عن مستقبل محاسن التى حصلت على نصيبها من علبة الشيكولاته : ثم انسحاب سريع مفاجىء ، لانه مرتبط بموعد لا يستطيع ان يتخلى عنه . وتركته وهى اقل دهشة ، واكثر فهما ، ولا ذرة غضب تحس بها نحوه . كانت تتنبه الى انه مختلف ، وانه جدير بأن تراقبه ، وأن تتفرج عليه ، وأن ترى هذه السيطرة التى يمارسها على انفعالاته ، عندما يقهقه ثم يتوقف ، عندما يلقى الدعابة ، نتطلق لاساريرها ولانفاسها ومشاعرها العنان ، وكأنها تعانق الدنيا بالمرح الذى تقبل عليه ،

فاذا به يهدأ ، ويتماسك ، ولا ينفلت عياره . وكان ما تراه وتراقبه ، يزيد من اطمئنانها ، ويزيد من حريتها التى لم تتعود أن تسيطر عليها ، واستراحت عندما وثقت به وايقنت أنه سوف يسيطر ولن يتهور فيما قد تندم عليه ، فمهما تقاربت العيون ، ومهما تلامست الأيدى صدفة ، ومهما تلون الصوت او تهدج بين همس ، او لهاث او تنهد او صياح او صخب ، الا انه يحافظ على ما بينهما ، وان كانت لا تفهم ما هذا الذى بينهما .

وهكذا تركها ، ليعود فى اجازته التالية ، وصداقتهما تبحث عن ذاتها فيما يقولان ، ويتصرفان ، حتى لو كانت محاسن ترتد فى غرفتها . ولا ثالث معهما ، الا هذا التماسك الذى يمنع الانهيار .

اوشكت ذات مرة ان تقول له ، وهى تقدم له كمثرى لياكلها وتهمس : تذوقها .. طعمها حلو ..

انها هى ايضا حلوة . واكملت على الرغم منها فى سرها ، وبهمس اوشك ان يكون مسموعا .

— تذوقنى ..

سمع يونس غمغمتها ، ولكنه لم يتبين سوى هذه الغمغمة التى تشبه الفحيح ، أو التأوه المكبوت ، صوت كله انوثة وحلاوة .

ومرت لحظات صمت ، كان ياكل فيها الكمثرى ، وانفاسهما ترتفع ، وكأنهما يعقدان بينهما حوارا من الشهيق والزفير . حوارا بالصدر والرئتين ودقات القلب ، وليس حوارا باللسان ، والصوت الذى تسمعه الاذن . بل أصبح الحديث بالصوت المسموع نوعا من السخف ، فقد وصلا على مشارف تلك اللحظات التى تعطل فيها الكلمات كل فعل ، وقد تحرج الكلمة ، وقد تربك ، وقد تجرح ، وقد تفسد ، فليس من السهل انتقاء الكلمات التى تعبر عما بينهما ، فهو غير محدد الكلمات ، وليس هناك أوضح لهما من هذا الصمت يتبادلان فيه كل ما دار فى نفسيهما من هواجس ، بصراحة كاملة ،

لا يخشيان شيئا ، وليسا بحاجة الى مزيد من أى شىء ، غير هذا الذى اصبح قائما بغير كلمات .

وكانت مطرقة براسها ، فكما لا تحتاج الى سماعه ، لا تحتاج الى رؤيته ، وهى تنهل من هذا الذى بينهما ، وتتوقع منه المزيد ، وهو لا ريب آت ، وشعرت به يقترب ، فزادت راسها انخفاضا ، كانت واثقة ان يديه ستلمسانها الآن ، اية لحظة . فلما لمست اصابعه كتفها ، ارتجفت ، وانكمشت فلما احتضنها ، شهقت ، وبكت بين ذراعيه .

وادرك يونس فى تلك اللحظة ، ان كل شىء قد تغير فى حياته .

كانت عيناها مغلقتين ، وكانت تدفس جسدها فى صدره ، وكان يشعر انها مستكينة تماما له ، ولكن عقله بدأ ينشط ، وتتسرب اليه الكلمات فى صورة اسئلة .

هل هى حقا تريده ؟

هل ستقبل ؟

الن تقاوم ؟

الن تثير فضيحة ؟

اهى نزوة يتورطان فيها ، ثم تثور ضده ؟

اهو يضعف ؟

ولكن الأسئلة .. توارت بنفس السرعة التى ظهرت بها ، انقشعت كسحابة شاردة اخطأت طريقها فى سماء صافية ، ليس بها نسمة سوى انفاسها تتلاقى مع انفاسه ، وظمأ ، وكل الأنهار تجرى الى البحر ، والبحر ليس بملآن .

وفى ذلك اليوم ، كانت زهيرة هانم تعانى من اهمال ابنها بواجباته نحوها ، ولا تدرى كيف تفسر غيابه عنها لأكثر من شهرين ، دون أن يستأذن ، وكانت قد طلبت من زوجها ان يتصل

بالولد فى موقع العمل . وبالفندق ، ولكن الاجابة كانت واحدة ، انه غير موجود .

ولما عاد يونس الى الفندق فى تلك الليلة ، قالوا له انه لابد ان يتصل بوالده بمصر فى الحال ، ولكنه لم يفعل ، حتى جاءته المكالمة فى منتصف الليل وسمع صياح ابيه ، وصياح امه وكذب عليهما ، وقال انه يلبى دعوة اصدقاء . اى اصدقاء ؟ زملاء قدامى من الجامعة .. من هم ؟

لا تعرفهم يا أبى ..

وسمع امه تلومه . انا لا اطلب منك شيئا يايونس ، هكذا بدأ الموال ، انها تتمنى ان يكون احسن الناس ، ودون ان تاخذ منه ، دون ان تطلب منه ، كما تريده صداقته ، وان تمنحه حبها ، لأنه لن يجد حبا مثله ، قالت كأنها ترى ، كأنها تعرف تفاصيل ما تجهله ، كأنها سمعت حديث فاطمة معه .

— هل اريد ان اراك لأنى اطلب منك حماية او مساعدة .. اريد ان اراك لأعطيك أمومتى التى يستحيل أن تجد مثلها عند أى امرأة اخرى .

وفجأة سألته :

— هل السبب امرأة ؟

قال بسرعة :

— لا ...

قالت وكأنه اجاب بنعم :

— كل حب أخذ وعطاء . واى بنت تعرفها .. ستطلب منك أكثر مما تعطيك .. حب البنات فى هذه الأيام .. كله تعب وقرف وناس تتسلق على اكتاف بعضها بعضا .

قال مرتبكا :

— اطمئنى يا أمى ..

قالت :

— بصراحة لست مطمئنة .

واصدرت اوامرها :

— يجب أن أراك غدا .

قال :

— حاضـــــر .

ثم تراجع بسرعة نادما

— سأحاول .

قـــالت :

— لا .. ســـوف تأتى

— حاضـــر .

وفى اليوم التالى ، لم يســـــافر الى امه ، وذهب الى لقاء ناطمة . وقالت زهيرة لزوجها :

— يجب أن تعرف حقيقة ما يحدث لابنك .

انها واثقة الآن ، ان الولد قد تورط مع امراة ومثـــل هذا الاستنتاج لا يحتاج الى ذكاء ، يكفى أن قلبها يحدثها بالخطر ، وهو خطر فى حدود انها تجهل المراة التى اختارها . وشكوكها الآن كثيرة ، والظواهر لا تطمئنها ، لأن هذا الغياب والـــــكذب المفضوح ، والوعد بالمجىء الى القاهرة ثم عدم اســـتطاعته ان يلبى نداءها له ، والذى وعد بتنفيذه ، كل هذا يعنى انه وقع فى كمين امراة ، ولو كانت بنت عائلة ، من بنات الأصول والعائلات الكريمة ، ما استطاعت ، وما خطر لها ، أن تمنعه عن اهله ، وتدفعه الى الكذب .

انها ليست متزمتة ولا يفجعها ان يفكر يونس فى الزواج ، وكانت بينها وبين نفسها تشعر ببعض القلق عندما تراه لا يهتم بالبنات مثل بقية الأولاد . ولكن هاهى تطورات مفاجئة تحدث . ولن تجد لها تفسيرا حتى تراه ، وبصارحها . أو يأتى لها صفوت بالتحريات التى لابد أن يطلبها ليعرف مع من يختفى يونس مع أى

امراة ، وفى اى بيت . لتخـــوض معـــركة لا تحتمل التلكؤ أو التســـويف .

ولم تفلح الأقراص المهدئة فى تخفيف الضغط النفسى الذى تعانى منه زهيرة ، ولاحقتها الخواطر متفرقة مبعثرة تشـــتت افكارها وتحرق اعصابها ، وحدث انها كانت مستلقية فى فراشها بين اليقظة والنوم . عندما رات فجاة فى خيالها يونس مع امراة ذلك الرجل الذى اراد الزواج من سارة يوما ما .

وما كاد هذا الخاطر الجنونى يهاجمها ، حتى انهارت كانه كارثة وقعت بالفعل ، وايدها قلبها وهى تتذكر آخـــر مرة رات فيها يونس ، وكيف كان مهموما بسبب نذالة طلعت ، وكيف انه يحمد الله ان سارة لم تتزوجه ولم يرتبطوا به لانه وحش غادر ، مغرور بقوته أو ثرائه ، لا يتورع عن اى شىء . كانت لهجـــة يونس غير طبيعية ، ويهاجم طلعت كما لم يهاجم احدا من قبل . وكان يتكلم بحماس ، وينصح ، ويتخذ لهجة الواعظ حتى أن زهيرة سألته وقد شعرت بانه مهتم بمصير المطلقة وابنتها .

— اهى جميلة .

فأجاب تلك الاجابة التى أطمانت لها فى ذلك الوقت . اذ قال بدهشـة :

— لا ادرى يا امى . لم التفت اليها .

الآن قد حانت له الفرصـــــة ،ليلتفت اليهـــا . والمراة استحوذت عليه ، سيطرت على ابنها الذى حملته فى بطنها ، واعطته لحمها وروته بدمائها تلك المراة تخدع ابنها ، روحها ، مصـــدر كل ما يهمها فى حياتها كيف تجرؤ مثل هذه المومس ان تاخذه منها فى اجازته .

ولم تنتظر زهيرة ان ينقل لها صـــفوت اخبار تحرياته . قالت له انها واثقة ، ان يونس يتردد على تلك المراة . وان عليه أن يتصرف بسرعة قبل أن يتحول الأمر الى فضيحة .

ولم يصدق النائب العام ان ابنه يجرؤ على ان يرتكب مثل هذا التصرف المسرف فى تهوره . فيونس عاقل ومهذب ، وهو يعرف عنه انه على خلق ، وانسان مسئول ، يحترم نفسه ، انه يعلم ابن من هو . ويعلم الظروف التى يعيش فيها ابوه . ويعلم ان الشهور الأخيرة من خدمته توشك ان تنتهى ، واى شىء يمس سمعته من قريب او بعيد كفيل بانه يحطم احلامه فى ان تمد له الحكومة مدة خدمته مكافاة له على ما يبذله من جهود مضنية فى متابعة تحقيقات الجرائم السياسية ، التى تنتشر كالوباء .

ولم تفهم زهيرة هذه الحجج التى يسوقها زوجها ، وهى لا تسمع اى كلام يذكر فيه ان عمله كنائب عام . له مدة محددة ، ينتهى بعدها . فمثل هذا الكلام لا ينسجم مع الواقع الذى تعيش فيه . ولا يتفق مع السلطة التى يملكها زوجها ، وما يمارسه من مسئوليات ، تنشر اخبارها الصحف .. وتتابع نشرات الاخبار فى التليفزيون والاذاعة تحركاته حيث يذهب ، وتمتد اليه الأيدى ممسكة بالميكرونونات واجهزة التسجيل فى انتظار كلمة او تصريح منه ، هل من المعقول ان مثل هذا الرجل . لا يملك ان يستمر فى منصبه ونفوذه . هل ياتى يوم وينتهى كل هذا الذى يعيش فيه . لو صح هذا ، لما كان له نفوذه . ولما اهتم به احد . ولذلك هى تسمعه فى ضجر ، لتقاطعه بالسؤال عن الحقائق كما تراها .

وباعتبار ان اول هذه الحقائق انه النائب العام دائما فهل يعقل ان يقبضوا على ابنه فى بيت تلك المراة المومس ، والتى قد تكون نتحت بيتها لمن يلعبون القمار ، او حولته الى غرزة حشيش . ولا يصح ان تؤخذ الأمور ببساطة ، ويقال ان يونس شاب صغير .. وقد يكون من حقه ان يلعب بعض الوقت ، وان تكون له نزوات فهى فى نهاية الأمر تجارب فى الحياة ، قد تمنحه خبرة ، وتوسع من مداركه ، وتفيده عندما يكبر ويدخل الدنيا الحقيقية فيكون زوجا وابا لأولاد . ان هذا مرفوض بالنسبة ليونس ، لأنه ابن النائب

العام ، ولو حدث شجار ، مجرد شجار فى بيت تلك المراة ، وكل شىء جائز ، فهى الطامة الكبرى . لابد ان يتصرف صفوت بسرعة ، قبل ان يحدث مكروه من هؤلاء الأوباش السفلة .

وامسك صفوت التليفون ، وطلب شهدى ابو اللطف محافظ الاسكندرية وحدثه بصراحة . ابنى اختفى . اخشى ان تكون امراة هى السبب نعم يونس .. انه وديع ومهذب كالبنت . اعمل معروف ، وتصرف كوالده . تحرى الأمر بمنتهى الهدوء . واخبرنى .

انتقل الطلب من المحافظ ، الى رئيس المباحث . الى المخبر الذى كان لابد وان يتصل بسيد العتر .

نعم يونس يذهب فى اجازته الى بيت تلك المراة فاطمة مطلقة ابن الحاج مرسى فرج ، انه يكاد يعيش معها . يقضى اجازته معها ويخرج معها وابنتها ، كما لو كانا زوجين . لا يقيم الليل فى بيتها ، ولكنه عشيقها بكل تأكيد . ومن يدرى ، لعله تزوجها زواجا عرفيا ، فلقد هدد سيد العتر بألا يقترب منها ، حتى يضمن عدم معرفة احد من بيت الحاج مرسى فرج بصلته بفاطمة .

وهكذا عرف سيد العتر ، ان هناك تحريات عن سلوك يونس ابن النائب العام . وان هذه التحريات متصلة بعلاقته بفاطمة .

كيف فاته . ان هذه العلاقة ، سوف تغضب النائب العام ، وسوف تغضب الحاج مرسى فرج وسوف تحرك الجميع ضد هذا المغفل اليائس يونس الذى يتصرف على هواه ، ولا يتصرف مثل بقية من ، امتلكوا السلطة . واقتاتوا حتى التخمة ، من متعة اذلال الناس .

وادرك سيد العتر ان الأبواب قد انفتحت أمامه .

الفصل الثانى عشر

قال عبد الحميد صفوت بصوت متحشرج :

ــ زهيرة .. ابنك يقضى أجازته مع تلك المراة .

فصاحت الام بشراسة ..

ــ قلبى قال لى . قبل ان يقول لى احد .

ثم صرخت :

ــ هل هذا يصدر عنك يا يونس . مستحيل .. ماذا جرى لعقلك .. ؟

وبحلقت فى زوجها بعينين محتقنتين ، وقالت كأنها تخاطب شخصا لا تراه .

ــ هات لى ابنى .. لابد ان يأتى الى هنا فى الحال .

قال عبد الحميد :

ــ سأطلبه ..

قاطعته صارخة قبل ان يكمل :

ــ سـافر له

فقال عبد الحميد والالم يعتصر صدره :

ــ سيأتى يا زهيرة لا تخافى .

فزمجرت ..

ــ سافر له ولا تقل أن وراءك اعمالا .. لن اسمع منك ان لديك اجتماعات وتحقيقات . ابنك فى خطر . وهو اهم من كل تحقيقات النيابة ..

فصاح الرجل يائسا ..

ــ كلنا فى خطر . هل هناك تهديد لسمعتى اكثر من هذا ؟

فواصلت زهيرة زمجرتها :

ــ سافر فى الحال قبل ان تندم . قبل أن يأتى يوم يرفض فيه أن يعود الى بيته .

فقال عبد الحميد محاولا طرد أشباح تحوم من حوله :

ــ لن يصل الأمر الى حد العصيان .

فصاحت :

ــ لا ياسعادة البيك . انه يصل الى اكثر من العصيان .. فما الذى يربطه بنا بعد أن يستمرىء الحياة مع مومس .

تراجع عبد الحميد مذعورا هامسا :

ــ زهــيرة ..

كان يريد ان يلومها لانها سمحت لكلمة مومس أن تأتى على لسانها . ولكنها لم تكترث باحتجاجه المكبوت ومضت تقول فى اصـرار :

ــ نعم مومس .. اليست هذه هى الحقيقة .. اسمع يا عبد الحميد .. أطلب نقله من هناك .. أبحث له عن عمل فى القاهرة فورا .. وعندما يعود .. سوف أزوجه فى أسبوع واحـد .

وتلفتت حولها . كانت تختنق ، وتبحث عن هواء تستنشقه . واكملت وهى تستدعى طاقات جديدة من الغضب .

ــ عندما تصل الى الاسكندرية .. أطلب من المحافظ أن يقبض على تلك المراة .. لابد ان تتدخـل .. هل انت فاهم يا عبد الحميد .. مثل هذه المراة لن يردعهـا الا اظهار العين الحمراء لها .. لابد أن تخاف .. وتدرك أن محاولاتها مع يونس سوف تنتهى بالقضاء عليها .

همس عبد الحميد مهموما :

— يازهيرة ارجوك . لا تفقدي أعصابك فتزيدي الموقف سوءا ..

فرفضت زهيرة ، اعتراضه ، ورفضت ان يناقشها ، يعدل فى اقتراحاتها ، لان اى تراجع و تلكؤ من جانبه سوف يقوض دعائم هذا البيت ويكرس المصيبة التى لابد من دفعها .

لم ينم احد فى بيت النائب العام فى تلك الليلة .. احيانا كانت زهيرة تزفر هواء حاقدا جارحا وتقول :

— المرأة التى تركها صاحبه .. يأخذها هو ..

وكانت لا تكمل ، ولا تفصح عن الصوت الذى يتردد فى اعماقها ، وقد فشلت اقراص المهدئات فى اخماده .

وسافر عبد الحميد صفوت الى الاسكندرية ، وكان لسفره المفاجىء اثره فى ترديد اشاعات عن تطورات جديدة فى قضا[يا] اوكار القنابل والمتفجرات وتلقى المهندس يونس مكالمة عاجلة فى المعسكر .. ان والده ينتظره لأمر هام ، وقبل ان يصل سيد العتر بسيارته الجديدة ، ليعود به الى الاسكندرية كان يونس قد قرر بينه وبين نفسه ان والده قد عرف بامر علاقته بفاطمة . لم تكن لديه اسباب واضحة لهذا التوقع . ومع ذلك غمره شعور قوى بان هذا الاستدعاء المفاجىء ، ينبىء بالعاصفة ، وان عليه يستعد لهـا ..

وفى طريقه الى الاسكندرية ، كان يقلب كل الاحتمالات ، وانتهى الى ضرورة ان يواجه والده وامه باقوى ما لديه ، وهو الحقيقة . انها فى حاجة اليه ، وهو يريد ان يحميها . ويشعر بمسئولية نحوها ، وهى لم تخدعه ، ولم تهدده كما تتوقعون وبعد ان يواجههم بالحقيقة ، سوف يذهب اليها ، ويقضى معها بقية اليوم ، وسيفاجئها بحضوره ، وسيشترى لها طعاما ، وسيشترى لعبة جديدة لمحاسن ، وسيبرر لها مجيئه بانه شعر

وحشة كبيرة ورغبة جامحة فى ان يراها وان يعانقها ويغيب فى عناقها .

ودخل يونس على ابيه فى مكتبه بالنيابة ، وللوهلة الأولى تيقن من صدق حدسه ، وعرف ان الصراع مقبل لا ريب فيه كانت نظرات والده غريبة ، وكانت على وجهه اسارير متجهمة ، بالغ فيها ، حتى انها كانت تثير الابتسام فى ظروف اخرى ولقد كادت بالفعل ابتسامة ما ان ترتسم على وجه يونس فى مواجهة نظرات الاب وتجهمه ، لولا انه لا يدرى سر هذه الابتسامة التى تريد ان تفرض نفسها عليه فى هذا الموقف الحرج .. فقاومها .

كان وجه عبد الحميد صفوت يفيض بشىء ما ، ما هو ؟ يرى يونس النيابة العامة بمظاهرها وسطوتها فى وجه ابيه . هذا لو كان من الممكن ان تكون للنيابة ملامح ترتسم على الوجه ، ربما كانت لكل سلطة ملامحها ، وهو على اية حال واثق ان الرجل الذى امامه ينظر اليه كمجرم ، لا كابن ، كانت كلمات عبد الحميد صفوت ، خالية من الحنان ، او الرعاية ، او الحب ، كان يتهم ويهاجم ، وينتظر من يونس ان يدافع ، وان يعتذر ، وان يتراجع خائفا مرتعدا ، بينما يونس يرفض ان يدافع ، وقد ركب رأسه عناد صلد ، فهو لن يتعامل مع النائب العام . واذا لم يعترف هذا النائب بانه اب ، فلماذا يتعامل معه . هل يثور عليه ، هل يكاشفه بما يشعر به ، ولكنه سوف يحتاج الى جهد غير عادى ليجد الكلمات التى يعبر بها عن كل هذه المعانى المختلطة المتشابكة ، بين سلطة النيابة وسلطة الأب ، بين النائب العام ، وبابا ، بين اتهام المجرم ورعاية الابن . بين طبيعتين مختلفتين للتعامل ، نائب عام يتحدث عن المظاهر ، يتعامل مع ابن يتحدث بمشاعر يرى انها الصدق . ما الذى يستطيع ان يقوله بوضوح ، فيفهمه هذا الرجل أمامه ، هذا الأب الذى يحتمى وراء لقب وسلطة . ان اية محاولة للافصاح عما يريده ستورطه فى موقف سخيف ، وستسقط به فى

فراغ غير محتمل كل ما يملكه يونس ، وهو ان يتكلم ، كما لو كان يخاطب نفسه ، فى حجرة خالية ، غير مكترث بانفعالات هذا الرجل امامه ، وغضبه وصياحه ، وان يتحدث محاولا ان يقول الحقيقة ، مع انه فى الحقيقة لا يعلم ما الذى يحدث . نعم هناك شىء ما يحدث بينه وبين فاطمة ، ولكن ما هو ، شىء يتجمـــع ويتشـــكل .. يفصح عن نفسه فى علاقة حية ، دافئة ، لها لحظات ، ولكنه لا يدرى ما الذى سوف تنتهى اليه فى اية لحظة قادمة . بينه وبين فاطمة .. كلمات واصوات تخرج من الصدر متدفقة ، ونظرات ، وانفاس ، وتلامس ، وصمت ، وضحك ، وجوع ، ودلال ، وانانية ورجولة ، وانوثة . واشياء كثيرة ، تافهة او غير تافهة ولا يستطيع ان يتنكر لها او يجد سببا لان يحدثه هذا الرجل فى ضرورة ان يتخلص منها . كيف يتخلص من لحظات لا يعرف حدودها ، بدات منذ وقت لا يستطيع تحديده ، منطلقة الى مستقبل لايستطيع تحديده ، لم يفكر حتى الآن ، لا هو ولا هى ، فى تحديد اى شىء ، وها هو هذا الرجل . النائب العام . يريد منه ان يحدد تلك اللحظات ، ايريد تحديدها ، ام قتلها ، ايســتنفر عنها ، ام يسعى الى ابادتها ومحوها من ذاكرته ، وبترها من حياته . الذكريات ، واللحظات فى حيـاة الانسان ، ليست اقل اهمية من اعضاء الجسم ، هى اللحم والعظم والدم والاعصاب للنفس ، هى نسيج الذات ، لو بتر هذه الذكريات، لو قضى على هذه اللحظات ، فلابد أن تصيبه عاهة ، أو يموت .

عندما سمع الرجل يقول له ، انها امراة ساقطة وجد نفسه ينهض ، ويرفض أن يسمع صياح الرجل . وفتح الباب وخرج ولم ينتبه حتى راى سيد العتر الذى جاء يجرى باسما ، يساله اذا كان والده قبل ان يشترى السيارة .

نظر اليه يونس فى غير فهم وتمتم كأنه يسمع كلاما غريبا

ـ أبى .. ماله ابى ..

فلما تبين ان سيد العتر يحدثه عن السيارة التي يريد بيعها ، قال بغير اكتراث وهو يتذكر بصعوبة ان الرجل الذى خرج من مكتبه هو والده الذى يتحدث عنه سيد العتر .

ـ عندك فى الداخل .. اعرض عليه الأمر بنفسك ..

واسرع يونس بخطاه ، فلحق به سيد العتر يساله اين هو ذاهب ، ومتى يعود الى المعسكر . فقال يونس واجما :

ـ باكر ..

فساله سيد العتر وهو يصوب اليه عينين فاحصتين :

ـ هل تريد أن اذهب بك الى اى مكان الآن ؟

قال يونس بسرعة وهو يبتعد :

ـ لا ...

فتابعه سيد بنظراته وهو واثق انه ذاهب الى فاطمة ، ثم عاد ادراجه الى مبنى النيابة ، ودخل مكتب سكرتير النائب العام ، متظاهرا بانه يسال عن المهندس يونس ابن سعادة النائب .. وابدى دهشته لانه خرج من عند والده دون ان يخبره او يطلب منه توصيله ، ودخل السكرتير على النائب العام ، وعاد مسرعا ، يطلب من سيد العتر المثول أمام سعادة النائب .

صوب عبد الحميد بك صفوت نظرات قاسية الى سيد العتر ، وساله بلا مقدمات :

ـ انت سائق سيارة المهندس ؟

أجاب سيد وهو يتراجع فى رهبة يجيد اظهارها :

ـ نعم ياسعادة الباشا .

فسأل عبد الحميد بلهجة جافة :

ـ كيف لم يجدك ؟

اجاب سيد فى خوف :

ـ انا انتظرت داخل الســيارة امام باب السراى ياسعادة الباشا ..

فسأل عبد الحميد بسرعة :

ــ هل عاد الى الفندق على قدميه ؟

قال سيد مظهرا التردد :

ــ لا اظن انه ذهب الى الفندق ياسعادة الباشا .

صاح عبد الحميد هادرا :

ــ لا تظن .. ما معنى هذا ..

قال سيد بلهجة من يتضرع :

ــ يا سعادة الباشا .. هو يذهب الى بيت المهندس طلعت فرج .. كلما جاء الى الاسكندرية .

وانتظر سيد .. ولكن عبد الحميد صفوت .. كان ينظر اليه فى جمود .. فاكمل ..

ــ انه يذهب ليطمئن على أولاد المهندس

سأل عبد الحميد بصوت بارد :

ــ وهل ستذهب اليه هناك ؟

قال سيد :

ــ لا ياسعادة الباشا .. انه يمنعنى من الذهاب هناك ..

فهز عبد الحميد صفوت رأسه ، وهمس وهو يشير بيده لسيد أن يختفى من أمامه .

ــ طيب ..

ولكن سيد تلكأ . فلما رفع عبد الحميد عينيه ، يستفسر عن سر بقائه ، وجده يبتسم فى خنوع ويحدثه عن السيارة التى أعجب بها البيك الصغير .. وكيف أنها رخيصة ، ومثلها لن يقل ثمنه عن سبعة عشر الفا ، وأن البيك الصغير لا يريد أن يتخذ قرارا بشأنها ، قبل أن يعرف رأى سعادة الباشا والده .

اهتم عبد الحميد صفوت بهذه المفاجأة . وطلب من سيد أن ينتظره ليرى السيارة ، وخطر له ، أن هذا مبرر قوى ، لان يطلب حضور زهيرة لتساعده فى مواجهة يونس ، بعد أن تبين أن الولد غير

قابل للتفاهم ، وأن تلك المرأة قد سممت أفكاره وسيطرت على عقله ، حتى أنه لم يعد يعرفه . لن يقول لزهيرة أنه فشل مع يونس ، يكفى أن يثير اهتمامها بالسيارة الجديدة وعليها أن تواجه يونس بنفسها .

واتصل عبد الحميد بالمحافظ ، كان يريد أن يعرف منه تفاصيل أكثر ، عن المعلومات التى وصلته عن تردد يونس على مطلقة المهندس طلعت ابن المليونير مرسى فرج فاذا بالمحافظ يقول له ، انهما مدعوان لتناول الغداء على مائدة مرسى فرج فى بيته ، لان هناك كلاما هاما يريد ان يقوله الحاج فرج النائب العام ، وكان لابد ان يذعن عبد الحميد صفوت ويلبى هذه الدعوة ، التى ما كان يقبلها لولا الورطة التى أوقعه فيها ابنه .

واتصل عبد الحميد بزهيرة ، التى قالت له : انها سوف تأتى لابنها ، قبل أن تأتى لمشاهدة السيارة فواضح أن عبد الحميد لم ينجح مع ابنه ، وبدليل أن يونس ليس معه وهو يتحدث معها بالتليفون . وواضح أن هذه الدعوة الى الغداء فى بيت الحاج مرسى ، وراءها احتمالات كثيرة ، ليست مطمئنة ، وأن كان احد هذه الاحتمالات ، كما خطر لزهيرة ، وأن لم تفصح عنه ، أن يكون طلعت قد طلق زوجته الجديدة أثناء سفره ، ويريد أن يعود نادما ليطلب يد سارة . انه احتمال خرافى ، ولكنها لا تستطيع أن تمنع ظهوره لها ، كحلم أو أمل فى معجزة . ولكنها أعقل من أن تتحدث عنها ، أو تشير اليها من قريب أو بعيد .

وكان عبد الحميد صفوت ، اكثر طيبة ودماثة من ابنه ، وهو يتحدث مع سيد العتر عندما ركب معه السيارة ليجربها ، وذهب بها الى بيت مرسى فرج ، وقال لسيد انه سيفكر فى الأمر . ولنه سيتخذ قراره عندما تأتى الهانم زوجته غدا من مصر ، ورحب سيد بأن يذهب لمقابلتها فى محطة مصر حيث تصل فى القطار

القادم من القاهرة الساعة العاشرة صباحا . وسوف يذهب بها مباشرة الى فندق سيسل .

واستقبل مرسى فرج النائب العام بالعناق والقبلات ، وكان معه شهدى ابو اللطف المحافظ . ولم يضيع مرسى وقته فى المجاملات ، فقال لعبد الحميد ، انه يريد ان يتحدث معه عن ابنه يونس ، وانه صاحب مصلحة فى هذا الحديث ، مثله تماما ، لان الامر يخص حفيدته محاسن ، ومطلقة طلعت . وروى مرسى للنائب العام كيف تزوج ابنه من فاطمة . وكيف كان قراره بقبول هذا الزواج ، حتى لا يرتكب طلعت اثما يندم عليه . وتحدث من فاطمة ، كما لو ان عناية السماء ترعاها ، وتعوضها عن عذاب كبير لاقته من ابويها ، واشقائها الذين تركوها وحدها وكانها مقطوعة من شجرة . .

وسال الحاج مرسى ، ضيفه النائب العام فجاة :

ـ هل يفكر ابنك فى الزواج من فاطمة ؟

فاحمر وجه عبد الحميد صفوت ، رغم انه تعود الا يظهر مشاعره ، وان يحتفظ بهدوئه ووقاره فى احرج المواقف ، ولكنه شعر أن السؤال فى حد ذاته اهانة شديدة ، ولجا الى سعال عصبى يكسب به بعض الوقت ، ويبرر ذلك الانفعال المرتسم على وجهه الساخن . قرر أن ينحنى للعاصفة وان يتجاهل الاهانة ، لان مصدرها شخص جاهل من الرعاع ، خدمته المقادير ومنحته ثروة ووقاحة ، ولكنه لبس نداله ، ولن يكون يوما ما من طبقته .. واكتفى بان همس :

ـ طبعا .. مستحيل ..

« فوجىء عبد الحميد بقلق او حزن يرتسم على وجه الحاج مرسى ، وسمع صوته هادئا ولكن عاليا بعض الشىء ، وهو ينصحه الا يعارض مثل هذا الزواج اذا اراده ابنه . وانه يتحدث بصدق وخوف من الله سبحانه وتعالى ، ولانه لو حدث هذا

الزواج . فلن يتدخل ويطلب حفيدته من امها ، اما لو استمرت العلاقة على ما هى عليه ، فلابد ان يتدخل وينزع حفيدته من امها ، وهو امر يتردد قبل ان يقدم عليه مضطرا .

صاح عبد الحميد :

ـ هل معقول ان تتصور زواجا مثل هذا . ان امه تموت لمجرد ان يخطر ببالها شىء من هذا .

وتوقف عبد الحميد صفوت مروعا من لهجته ، ومن لفظ امه الذى نطق به ولكنه ما كان يستطيع ان يقول غير ما قال ، وها هى كلمات محبوسة فى صدره تنطلق بالرغم منه ، ان هذه المراة افسدت يونس ، ولابد من تصرف يوقفها عند حدها ، وهو يريد ان يساعده المحافظ على انقاذ ابنه ، كما يريد مرسى فرج أن ينقذ حفيدته .

فقال مرسى فرج انه واثق ان شهدى أبو اللطف سوف يفعل كل ما فى استطاعته لمساعدته . وان عليه من جانبه ان يبعد ابنه عن فاطمة . وهى على اى حال امراة لا حول لها ولا قوة ، وليست بالخطورة التى يتصورها ، فقد عرفها منذ كانت طفلة ، وهو يعتبرها على نحو ما . احدى بناته ، لولا أنها تتمرد ، وورثت بعض جنون ابيها ، ولقد كان يريد ان تاتى بابنتها الى بيته ، وتعيش فى حماه ، ولكنها تابى ان تترك بيتها .. ولا شك انها تطمع فى زواج آخر مثل زواجها الاول ، وضحك الحاج مرسى وهو يقول

ـ البنت تعرف كيف تصطاد الرجال .

فصاح عبد الحميد صفوت :

ـ تصطادهم جميعا .. الا ابنى انا ..

فقاد الحاج باسما :

ـ اترك الولد ياعبد الحميد يتصرف بنفسه ..

فسكت عبد الحميد ، وهو يقول فى سره : ان مرسى فرج

يعامله بلا كلفة .. وكأنه يعرفه منذ سنوات وانه ما كان يتوقع يوما ما ، ان ترتفع الكلفة بينهما حتى لو تزوج ابنه من سارة .

وغادر عبد الحميد بيت مرسى فرج ، بعد ان استمع الى وعود شهدى ابو اللطف بأن يتصرف على النحو الذى يجعل فاطمة لا تفكر فى رؤية يونس .. بل تخشى ان يخطر ببالها اسمه .

وما كاد يختلى مرسى فرج مع شهدى ابو اللطف .. حتى قال مرسى : انه غير مستريح لحماقة عبد الحميد صفوت . الرجل له مخ ناشف ، وهو لا يريد ان يفهم ، وقد تؤدى عقليته الجامدة الى اسوا العواقب لابنه . وعلى العموم فهو ينصح شـهدى ابو اللطف الا يتدخل بين الولد وفاطمة ، واذا كان له طلب فهو أن يحصل على حفيدته ويبعدها عن امها التى تعيش فى الحرام وهو لا يريد ضجة ولا مشاكل .

فقال شهدى ابو اللطف : انه سوف ينتظر عودة يونس الى المعسكر ، ثم يرسل لها ضابطا عاقلا ، سوف يهددها ، دون ان يسمح لها بأن تحتج أو تفتح فمها بكلمة ، وسوف يضطرها ذلك الى ان تلجأ الى الحاج لحمايتها ، عندما تكتشف ان يونس لايستطيع ان يفعل شيئا للدفاع عنها . بل سيجد من أبيه رغبة فى الخلاص من فاطمة بأية وسيلة .

قال الحاج انه موافق تماما على هذه الخطة ، وسوف يعمل على توفير كل أسباب الراحة لفاطمة بعد ان تأتى له طواعية ومعها حفيدته ولكنه لا يضمن بعد ذلك أن تتحمل فاطمة طويلا البقاء فى بيته ، لأنها متمردة ، وقد تقدم على اى تصرف خاصة بعد أن تستقر وتستريح . فمثلها يركب رأسه ويفكر فى المغامرة والمخاطرة اذا ما استراح لأنها لن تتحمل راحة لم تتعود عليها ، على اية حال ، لاداعى لاستباق الأحداث . لينتظر شهدى بعض الوقت . ومن يدرى . فقد يصمم يونس على البقاء مع فاطمة والزواج منها . وهو احتمال كبير . قد يحل كثيرا من المشاكل .

فقال شهدى ضاحكا :

ـ الا مشكلة الأب .. عبد الحميد بك .

وضحك الحاج مرسى فرج .. موافقا ..

وعاد عبد الحميد صفوت الى الفندق ، وانتظر فى حجرته عودة يونس ، وكان انتظارا ثقيلا . واجه فيه ماضيه وكأنه لا صلة له به ، وفكر فى الوقت القصير الذى يتناقص بسرعة مخيفة ، ليصل الى يوم الاحالة على المعاش قبل ان ينجز ما كان يجب ان ينجزه . ان تتزوج سارة زواجا تستحقه ، أن يرى ابنه فى وضع اجتماعى مرموق وله عمل يكسب منه ما يؤهله لأن يكون اسرة ممتازة فى المجتمع ، وان يواجه الفصول الأخيرة من حياته بما يليق به من تكريم ، وان يشترى سيارة له قبل ان تختفى سيارة الحكومة . وان يعترف صاحب السلطة فى البلاد ، بأهميته للأمن فاما ان يمد خدمته ، او يفكر فى ان يدخله الوزارة أو فى اسوأ الظروف يستعين به مستشارا له فى الرئاسة . ان الأيام تمر ، وشيئا من هذا لم يحدث حتى المحاولة التى بذلتها زهيرة للاسراع بتزويج سارة ، بعد ان تزوج خطيبها طلعت من بنت علاء مهيب . انتهت بفشل سريع ، حتى أن زهيرة ترفض ان تذكر هذه المحاولة فكأنها لم تتم ما الذى يعنيه كل هذا . اهو الموت يقبل بعلاماته ومقدماته ولكنه موت له مذاق خاص . موت انهيار ، موت انحلال موت ضعف ومهانة . كان الخطيب الذى فكرت فيه زهيرة ليحل مكان طلعت ، هو المهندس سمير الساحر ، من عائلة الساحر المعروفة بعراقتها . عمتل صديقة لزهيرة .

ولكن ابوه المستشار منير الساحر . جاء يملى شروطه ، جاء يسأله ان يعين سمير فى شركة اماركو ، لانه سأل فعرف ان مهندسين مصريين اثنين فقط ، يعملان بها . احدهما ابن مرسى فرج المليونير والثانى هو يونس ، ابنك يا عبد الحميد بك .. طلب منير ان يتوسط عبد الحميد فى تعيين ابنه دون أن يذكر شيئا عن

تقدمه للزواج من سارة . كان واضحا أنه يشترط لكى يتقدم ابنه لطلب يد سارة ، ان يقدم له النائب العام بصفته والد العروسة ، وبصفته المستفيد من زواج ابنته ، تلك الوظيفة فى أماركو .

قال عبد الحميد لزهيرة .

— سمير الساحر هذا .. لا يملك شيئا يازهيرة .. وهو يتصرف كأى محتال . أنه يريد أن نعينه وما يدرينى أن بعد تعيينه يستمر فى مشروع زواجه .

قالت زهيرة :

— انه يبحث عن عمل مناسب فى كل مكان .

قال عبد الحميد :

— وهو يريد ان يتخذ من التلويح بالزواج فرصة للحصول على وظيفة بمرتب كبير . انها صفقة .. بيع وشراء يازهيرة .

ورغم ذلك ، كانت زهيرة تريد ان تزوج سارة .. يكفى ان تثق فى جدية العريس ، ولكنها بعد ان تحدثت مع عمة سمير بصراحة ، اكتشفت انها لا تستطيع ان تثق فى نوايا العريس . اعترفت بأن وعودهم ملتوية ، وكلماتهم غير صـــريحة .و انها خائفة منهم . ونسيت زهيرة هذا الحادث ، وكأنه لم يكن ، محته من ذاكرتها تماما . اما عبد الحميد فهو يرقب الايام ، ويتساءل فى كل ليلة ، هل يستطيع ان يزوج سارة ، وهو النائب العام . أم أن الفرصة ستضيع . وعندئذ عليه أن يرضى بنوعية اقل من الشان ، اقل فى المركز والمستوى الاجتماعى والثروة . أم لعله يخسر كل شىء .. بفضيحة مدوية كتلك التى يوشك أن يفجرها يونس . من يتزوج سارة ، وشقيقها متزوج من مطلقة طلعت ، كان أبوها منولوجست . ويقال انها مومس . من يرضى أن يكون خال اولاده زوجا لمومس ، واولاد خـــال أولاده أولاد مومس .

لم يحضر يونس حتى بلغت الحادية عشرة والنصـــف .. وتداعى جسد عبد الحميد . فترك رسالة لابنه . الا يغادر الفندق فى الصباح قبل أن يراه . ولان والدته قادمة من القاهرة .

وجد يونس الرسالة فى انتظاره فى استقبال الفندق . ولم يدهش كان يعرف ان لقاءه الأول مع أبيه ، هو مقدمة لهجوم آخر . وان موجات بعد موجات من الهجمات سوف تلاحقه . وخير أن تأتى فى الغد من أن ينتظرها ، وخير له أن يحدد بسرعة موقفه من ذلك البيت الذى كان ينتمى اليه ، والذين يريدون ان يملوا عليه شروطهم ، وان يجعلوا منه عبدا لارادتهم . عبدا لجنون أبوى ، أو جنون أموى ، يريدون ان يتحولوا الى غيلان . فاما أن يهادنهم ويقرأ عليهم السلام ، ويرضى بسلامهم ، واما ان يقضوا عليه .. فلولا سلامك لأكلنا لحمك قبل عظامك . لولا استسلامك ، لالقيناك فى الجب المسحور .

دخل حجرته ، وهو يشعر بان سحابة معتمة تريد أن تغلفه وتختطفه من كل ما يريد أن يحياه . توشك ان تهبط من ســـقف الحجرة فتخنق أنفاسه ، وتعتم بصره ، توشـــك ان تقتله .. وحاول أن يطرد هذا الاكتئاب الذى يتســلل اليه .. حاول أن يستعيد تلك اللحظات التى قضاها مع فاطمة . حاول أن يقول لنفسه ، الا شىء سوف يحدث فيضربه . لأنه مهما كان الأمر ، فهو بين أهله ، وهو لا يواجه عدوا ، بل يواجه أباه وأمه . وهم لن يرضوا بقتله لن يقتلوا النفس التى تشعر الآن بانها تحب فاطمـــة ..

الفصل الثالث عشر

وصلت زهيرة هانم الى الفندق ومعها ابنتها سارة فى السيارة التى يقودها سيد العتر ، واعجبتها السيارة . فهى كالجديدة تماما ، ليس بها خدش ، ومقاعدها مكسوة بقطيفة حمراء جديدة ، وثمنها معقول ، وسألت زهيرة هانم السائق سيد العتر وهى تتأمل وجهه الوسيم الذكى ، اذا كان يعمل فى النيابة ، فاجابها بانه يؤدى خدمات للنيابة والمباحث بين وقت وآخر، ولكنه مستقل عنهما .

فهو يشرف على عمليات نقل وصيانة سيارة خاصة بشركة اماركو . وهو الذى يشرف على تنقلات البك الصغير المهندس يونس . وكادت زهيرة ان تساله عن الاماكن التى يتردد عليها يونس ، وبيت تلك المراة التى تخدع ابنها . ولكن السؤال تحول الى اتجاه آخر ، عما اذا كان سيد يقبل ان يعمل سائقا للسيارة فى خدمة صفوت بك . بعد ان يتم شراؤها . فقال سيد فى مرح ، انه دائما فى الخدمة ولكن سائقا مثله سيكلفها الكثير ، فهو يحصل على دخل لا يقل عن اربعمائة جنيه فى الشهر فلماذا لا توفر هذه المصاريف ، وتقود السيارة بنفسها ، او تعتمد على الهانم الصغيرة — يقصد سارة التى تجلس بجوارها — ولم تجب زهيرة هانم ، فقد ادهشها ان يكون ما يحصل عليه سيد شهريا يقارب ما يحصل عليه زوجها النائب العام . واحست بشىء من الرهبة ممتزجة بحسرة .

لانها تكتشف كل يوم ، كل ساعة ، انها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بمركز المتفوق المترفع الذى يبهر الناس ويفرض عليهم الرهبة والخضوع ، بينما الفقراء واصحاب المهن البسيطة والمراكز الدنيا يحصلون على امدادات لا تنقطع من المال والقوة حتى اوشكت الحواجز ان تسقط . فيهجم الدهماء ويكتسحون كل شىء . انها فى حاجة الى ملايين او مليارات ، لتستعيد حصونها وقلاعها ، ومواقعها المنيعة التى لا يجرؤ على الاقتراب منها احد . ولولا نفوذ زوجها وسلطته ، لتعرضت لأخطار لا نهاية لها من هجمات هؤلاء السفلة .

وهاهو سائق هذه السيارة يخاطبها بلهجة مرحة ، وكأنه ند لها ومن مستواها الاجتماعى ، وكانت سارة تسال سيد العتر عن بعض مميزات السيارة عندما قالت لها زهيرة بالفرنسية ، الا داعى لأن تتحدث مع الرجل بهذا الاهتمام والتبسط .

سألتها سارة بالفرنسية ، عن سبب اعتراضها على حديثها ؟

فقالت لها زهيرة ، انها لا توافق على التبسط مع امثال هؤلاء الخدم ، ولأن الاهتمام الزائد بالسيارة ، سوف يشجعه على رفع الثمن الذى يطلبه .

فضحكت سارة ، وقالت لامها انها تكثر من الريب والظنون بالناس . ولكنها امتثلت لرغبات أمها ، وكفت عن الحديث مع سيد العتر .

ووعدت زهيرة هانم ، بان يتخذ زوجها قراره النهائى بشأن السيارة فى نفس اليوم . وانطلقت الى داخل الفندق ومعها سارة ، وكان عبد الحميد صفوت فى انتظارها بالجناح الذى يقيم فيه ، وقال لها ان يونس مازال يتلكأ فى حجرته ، وانه اتصل به منذ اكثر من ساعة وطلب منه ان يشاركه الافطار ، ولكن الولد يبدو انه مكسوف من مواجهته مرة ثانية . فرفضت زهيرة الانتظار ، ومضت الى حجرة يونس واقتحمتها . كان يرتدى ملابس الخروج ،

وبقرأ الصحف . فهجمت عليه زهيرة تعانقه وتقبله ، ومن وراءها سارة تنتظر دورها لتحية شقيقها . وبعد لحظات تغير الموقف تماما ، فتحولت زهيرة الى سيدة جامحة ثائرة ، تمارس كل سلطات الأم التى تملك كل شىء يخص اولادهـــا . وهى تعلن ان تلك الحشرة التى تريد ان تعترض طريقها ، سوف تنال ما تستحقه ، فقد جاءت من الحضيض ، ولابد ان تعود الى الحضيض ، هذا امر مفروغ منه . اما هذه الغفلة التى انتابت يونس ، فأمرها هين ، انها أخطاء تذكرها به عندما كان طفلا يتبول على نفسه . فتمسح له جسمه وتنظفه وتعطره وترشه بالبودرة .. انها تفعل الآن نفس الشىء ، تمسح القاذورات .. وتبعد عنه شرور تلك المراة وقاذوراتها .

اتخذ يونس موقفا مغايرا لذلك الذى كان مع ابيه . عرف من البداية الا فائدة من مناقشتها ، وكان بينه وبين نفســه يتعجل نهاية هذا اللقاء ، ليذهب الى فاطمة . ويطمئنها ، وهو لا يتصور انهم يريدون ايذاءها بسببه .. فهذا الذى تهدد به امه ، هو مجرد انفعالات غير عاقلة . ومع ذلك سوف يواجه اباه ، ويطلب منه ان يعده بالا يسىء اســـتخدام سلطاته فى امور شخصية ، لا دخل لها بعمله كنائب عام .

هل من المعقول ان يلقوا القبض على فاطمة ، وتدخــل السجن ، لمجرد انه على علاقة بها .

وامسكت زهيرة بيد يونس ، وسحبته معها الى جناح ابيه الذى قابله صامتا . ماذا يفعل فى هذا المأزق الذى يفرضــونه عليه ، لم لا يتركونه وشـأنه ، يتركونه لأخطائه ونزواته ، انه كبير ، تخرج من الجامعة ، وليس طفلا مازال يتبول على نفسه كما تريد ان توهمه امه ، انه مهندس له عمـــل ، يريد ان يفكر لنفسه ، ويشعر بنفسه ، لا يريد احدا يفرض عليه المشـــاعر او الأفكار . ان امه تريد ان تسحق فاطمة تحت اقدامها لتنقذه

منها .. كأن فاطمة عقرب سام . هل تتصور أمه انه مازال جنينا فى رحمها . ما اغرب هذه الشخصيات التى تحيط به فى هـــذه الحجـــرة .

ابوه وامه اللذان اخرجاه الى الدنيا ، وسارة شقيقته ، ما الذى يريدونه ، ما الذى يمثلونه ، النفوذ ؟ الجاه ؟ السلطة ؟ المال ؟ ايقول لهم انه عثر فى فاطمة على شىء مختلف . شىء لا يفرض نفسه ، ولا يجد نفسه يتفرج عليه . انها تقدم له ، ما يتوه فيه ، ما ينسى به انه وحده يتفرج على الآخرين . انها تقدم له مشاركة لا صلة لها بالجاه والسلطة .. تقدم له ما يستسلم له ، ويندمج فيه وهو مرتاح بلا مظاهر او قيود . تقدم له لحظات يعتز بها ، لها قيمتها ، تمتلىء بها نفسه فتزداد ثراء وخصوبة .

كان ابوه يريد ان يترك كل شىء لزهيرة ، فواصل صمته ، أراد ان يكون عاديا ، تقليديا ، وقال الأب بصوت شارد هادىء :

ــ على فكرة يايونس .

سمعها من ابيه ، فانتظر منه ان يكمل وان يتحدث عن هذه الفكرة ولكن هاهو ابوه يردد كلاما عاديا ، بصوت غير حقيقى ، انه يتحدث عن بطاقة عضوية فخرية للنادى ، ليس ذلك الذى كان يريد ان يقوله أول الأمر . لابد ان يتصرف بسرعة ، قبل ان تختمر الفكرة فى راس ابيه .

لانه لن يقبلها . ولأنه يعرف مقدما ما الذى تهدف اليه لن يدع لهم فرصة للراحة ولالتقاط الأنفاس ، لن يسمح لهم بان يتوقعوا استسلامه .

وانطلقت الكلمات من فم يونس .

ــ انا حر فى شئونى .

صرخت الأم :

ــ ماذا تقول ؟

واصـــــدرت زهيرة قراراتها ، وعلى يونس ان يقبل ان يحول كل الذى كان بينه وبين فاطمة ، الى شىء لم يكن .

وسمع الاب يقول :

ـ أنت ظروفك مختلفة عن بقية الناس ، وما يستطيع الآخرون ان يتمتعوا ببه غير مسموح به لنا ، ولا متاح ان يمارسه بنفس القدر من الحرية ، لاننا مطالبون بأن نكون قدوة للناس .

والتفت الاب الى سارة ، كأنه كان لا يريد ان تسمع منه ما سوف يقوله . ومع ذلك مضى يقول :

ـ يا ابنى .. اذا كنت تريد أن تقضى معها بعض الوقت .. فاظن ان فيما فات يكفى .

قالت زهيرة :

ـ ان يمر اسبوع قبل ان اختار لك اجمل بنات مصر وستتزوجها .

واجههما بالصمت ، لا يدرى ماذا يقول ، لا يستطيع ان يكون واضحا واثقا مثلهما ، ولايستطيع ان يتحدث بهذه البساطة عن المستقبل ، انه لم يفكر فى الزواج ، ولا يظن انه واجه انه سيتزوج فاطمة يوما ما ، هذا موضوع لا يستطيع ان يناقشه ، على الاقل وسط هؤلاء .. وفى هذه الظروف ، لانه موضوع يدخله فى منطقة غامضة مبهمة ، فكل ما يعرفه هو انه يذهب الى فاطمة ، وانه وعدها بحمايتها .. وانه يحبها .. نعم يحبها .. والا ماذا تكون هذه العلاقة الحميمة بينهما ، والتى تسمح له بأن يتعامل معها ومع جيرانها الذين تعودوا رؤيته معها ومع محاسن . قالت لهم انه قريب لها . وقالت لهم انه شقيق زوجها السابق . هو شقيق طلعت . ماذا تقول امه لو كلاما كثيرا ، وخرجت معه ، ولم يصدر عنهما شجار ولا صوت مرتفع ، وحرص الا يقضى الليل فى بيتها . لقد شعر . وربما كان هذا مجرد شعور لا تدعمه الحقيقة ، ان الجيران يعطفون عليه . او على الاقل يقدرون انه

فى مشكلة ، وانها مشكلة انسانية ، لانها تخص هذه المرأة ام محاسن ، التى هجرها زوجها .

مدام فيكتوريا المدرسة ، والدكتور سعد الصيدلى ، والاستاذ رحمى المحامى وابنه الطيار وبرعى البقال ، وسليمان الكوجى . الكل .. لم يعترضوا ، لم يهددوا ، الكل فى عيونهم فهم وعطف . ماذا ينتظر غير هذا من حضارة اسكندرية ، ولكن المشاعر التى تواجهه الآن فى هذه الحجرة ، توشك أن تقوض كل ما له صلة بالعطف والفهم .

هدأت النفوس ، او هكذا تظاهرت نفوسهم . هدنة لالتقاط الانفاس ، وثقة من جانب الأم ، ان وجودها وقراراتها نافذة لا ريب فيها . غدا يعود يونس الى عمله . ولكن فى اجازته القادمة سيذهب مباشرة الى القاهرة . وقد يستطيع والده خلال هذه الفترة نقله الى مكاتب الشركة فى القاهرة ، وفى كل الاحوال ، سوف تكون قد اعدت له عروسه التى تزفها اليه ..

اختلى يونس بأبيه وهو خارج فى طريقه الى النيابة . وقال له وهو ينظر فى وجهه بثبات :

ـ ابى .. انك لن تسىء اليها .. لن تظلمها .

قال الاب فى وقار وبصوت جاد :

ـ ماذا تعنى .. ما الذى يدو فى راسك .. ؟

ـ قال يونس بلهجة رجاء :

ـ ارجو الا تتأثر بكلام امى .

قال النائب العام :

ـ النيابة ليست ملكى ..

فقال يونس مرتبكا :

ـ هى لم تفعل شيئا يخالف القانون ..

تصور الاب . ان ابنه يعقد معه صفقة . الولد يتعهد بأن يبتعد عن المرأة ، والاب يتعهد بألا يضرها .

وكان يونس يكمل قائلا :

ــ اذا كانت متهمة بشيء .. فأنا ايضا .. ؟

قال الأب مقاطعا . لا يريد ان يسمع ابنه يقول انه مذنب .

ــ احذر على اى حال . وارجو ان تكون هذه مجرد حكاية عـــابرة ..

وتوقف الأب فجاة . وقال بلهجة غريبة :

ــ انت تعلم ان ايامى معدودة فى النيابة ، واملى كبير فى مد مدة الخدمة .. ولن ترضى يايونس ان تكون سببا فى ضياع هذه الفرصة .. فكانك تدفعنى دفعا الى قبرى ، وتقول لى لم نعد فى حاجة اليك .

همس يونس فى الم :

ــ هذا آخر ما افكر فيه

فربت الأب على كتفه .. واستدار متجها الى باب الفندق ، فوجد سيد العتر يحييه .. ويقول له ان الهانم قد ابدت اعجابها بالســـيارة ..

فقال النائب العـــام :

ــ اذن .. ساطلب من العقيد رافت ان يرسل احدا لفحص الموتور ..

قال سيد العتر واجما ..

ــ الموتور .. ممتاز وعلى ضمانتى يا افندم .

قالها سيد ، وهو يقرر بينه وبين نفسه ، ان العقيد رافت مدير الحملة الميكانيكية بالمرور ، هو آخر من يسمح له بالتدخل فى هذه الصفقة . لقد اعد كل التغييرات فى السيارة باتقان ، ولكن رافت ورجاله ، سيعرفون بسرعة ان ارقام الموتور حدث بها تغيير . لماذا يعقد هذا الرجل الأمور .

صاح سيد محاولا استرضاء النائب العام ..

ــ لو سعادتك تركت كل شيء لى .. اقدم لك الســـيارة بالرخصة .. بالمفتاح .. دون أن تتعب سيادتك فى اى شيء .

قال النائب العام باصرار :

ــ لا يا سيد .. سأفحص السيارة أولا ..

قال سيد وهو يكتم غيظه من غباء لا يطيقه .. ويهدده :

ــ امرك يا افندم ..

لن تتم الصفقة .. سيعود ويرتفع الثمن ، ويقول ان صاحب السيارة طمع فى ثمن اكبر ، ولو تعقدت الأمور سيفك السيارة ، ويتحمل خسارة ما انفقه فى تغيير معالمها . لابد من عملية جديدة او عمليتين يقوم بهما بسرعة لتعويض هذه الخسارة التى لا معنى لها . خسارة تنجم عن تصـــرفات غبية ، وتلحق بالنائب العام والهانم زوجته ، وتلحق بسيد العتر .

واسرع يونس الى فاطمة ، كانت تعلم بكل ما حدث ، قبل ان يقول لها حرفا واحدا . فى حوار صامت ولدت العلاقة بينهما وفى حوار صامت تتفاهم معه على كل شيء ، وتعرف كل شيء .

كانت تعرف ان اهله عرفوا ما بينهما ، وانهم اعترضوا ، وبالأمس اخذته بين احضانها . فهى الآن تحميه ، كما يحميها . وسوف تثبت له انه يستطيع ان يعتمد عليها كما تعتمد هى عليه . كل شيء يتغير الآن ، وهى مسئولة عنه ، كما هو مسئول عنها . انهما يقتربان ، ينصهران . سوف يبقى معها ولن يتركها ، كيف يقول انه ذاهب الى عمله غدا .

قـــالت :

ــ ابق معى ..

قـــال :

ــ لا أستطيع . العمل ينتظرنى .

قـــالت :

ــ تأخر يوما . انا فى حاجة اليك .

لو بقى ، سوف تغمره بحنان ، سوف تسعده ، سوف تجعل كل لحظاته افراحا .. انها الآن تشعر بكيانها ، ولسوف تعطيه وتغدق عليه ، وسوف ياكل من طرحها كل ما تشتهى نفسه .

لكنه صمم على السفر . كان تصميمه غير عادى ، ولهجته عصبية .. فلم تقبل منه ما رأته هروبا ، ثم لم تقبل منه انه مرهق ، وقالت له وهو خارج من بيتها ، انها كانت تتمنى لو استمع اليها ولم يتركها فى هذه الايام ولما رات انه لا ياخذ كلامهـــا بنفس الاحساس بالخطورة الذى تعانى منه قالت ضاحكة كانها تقهر كل الاخطار وتزيح كل المخاوف وتطرد هذا الاحساس الملح :

— من يدرى .. قد احضر لك فى المعســـكر .. ولقيم معك ..

ضحك .. وقال مرتبكا :

— ومحاســـن ..

قالت بسرعة :

— مالها محاســـن .. ؟

رفضت أن يحتج بشىء . فليس بينهما احد ، لا امه ولا ابوه ، ولا محاســـن ..

وكانت صادقة فى حدسها ، فاسباب الخطر كانت تتجمع كما حدثها قلبها ، وجاء بعد يومين من يونس ، سيد العتر ... ورغم ظهوره المفـــاجىء ما كادت تراه حتى ايقنت انها كانت تتوقعه ، وكان واثقا من نفسه ، ولابد انه عرف أن اهل يونس يعارضون اتصاله بها . وان يونس وحده ، لا يسنده احد .. وكان سيد العتر يتفرس ملامحها فى دهشة ، فهو لم يتوقع أن يرى الوجه الذى رآه والملامح المرتسمة فيه .

كان يقول لنفسه المرأة تغيرت ، شكلها غريب ، غير مالوف ، كأنه لا يعرفها .

وقال يخاطبها وهو يقاوم تلك الغربة التى تتحصن وراءها ، انه يريد ان يطمئن عليها .

وسمعته يسالها :

— هل أنت خائفة منى .. ؟

كان يعرف إنها خائفة ، وتمنى أن تعترف ، اذا لم تعترف ، فهى مازالت تتوهم أن يونس قادر على حمايتها ، الآن سوف يبدد هذه الأوهام ، سوف يخترق الحصار ويحطم التحصينات ، الآن سوف يعيدها الى اصلها . الى ما كانت عليه .

لم تجب . فمضى يستفزها بنعومة بالغة ..

— أنا عمرى ما فكرت فى أذيتك .. أنا سيد العتر يا فاطمة يابنت زكريا .. انت تتخيلين أشياء غير صحيحة .. وتدخلين فى راسك اوهاما كلها غلط فى غلط .. أنت لا تعرفين من الذى يحبك ومن الذى يكرهك .. اقســـم انك عبيطة .. لا تعرفين مصـــلحتك .

وقرر أن يضرب ضربته ، قال:

— انت لا تعرفين من الذى يستطيع أن يحميك .. ومن الذى يعرضك للبهدلة ..

فهمت ماذا يعنيه . الكلب يتجرا . من اتاح لهذا الثعبان أن يخرج من جحره .

قالت بصعوبة .. قبل ان تطرده :

— ماذا تريد ان تقول .. ؟

سمعته يقول :

— انت تعتمدين على حائط مائل يا فاطمة ..

وغمز بعينه كما لو أن خاطرا شيطانيا يعربد فى رأسه ، ويراه بعينيه ..

وقال باســـما :

— انت غلطانة .. وأعرف أنك فى ورطه ..

وبدت القسوة فى ملامح وجهه ..

ــ اسمعينى جيدا .. هذا لمصلحتك ولمصلحة ابنتك ..

خافت ، أصابها ذعر ، هذا الثعبان الذى جاء من قبل نذير شؤم يقول لها ان طلعت سيتركها ، يعاود شؤمه . سيقول لها ان يونس ..

ولكنها لا تريد أن تسمع . انكمشت ، جسدها يرتجف .. الخوف يضعفها .

سمعت صوته آمرا :

ــ قلت لك لا تنزعجى . المسألة بسيطة .. صاحبنا .. أبوه ، يخرب بيته . هو وابوه .. منعه من الحضور اليك .. سبق وحذرتك أنهم اشرار ..

صاحت تستجمع قواها ..

ــ لماذا تقول لى هذا .. ؟

صاح بدوره ينتقم ، يرد الصاع صاعين ..

ــ لانى أعرف ما بينكما .. انه ياتى وكانه الكل فى الكل ، ليغرر بك .. وهذا لا ارضاه .. انه يخدعك ..

صاحت :

ــ لا شان لك به ..

قال هادرا :

ــ بل لى شان وستين شان وشان . أنا سيد العتر الذى سينقذك من هؤلاء الأشرار .. اسمعينى جيدا يا فاطمة ، تحت سيارتى .. تنتظر .. لا يملك مثلها صاحبك .. يونس .. لا هو ولا أبوه ، سنركبها ، ونخرج من هذا البلد .. صدقينى .. سأذهب بك الى ليبيا .. الى تونس الجزائر .. المغرب .. سنعيش معا .. سأتزوجك ..

صاحت بفزع :

ــ ابعد عنى ....

فاقترب منها ، فتراجعت ، وتراجعت ، فتقدم ، وصاحت فى ذعر :

ــ اياك ان تقترب .. أنت تعرف انه لن يسكت لك .

صاح سيد :

ــ وانا لن اسكت له ..

تقدم منها وصوت كالفحيح يخرج من فمه ..

ــ هل تظنين نفسك قادرة على مقاومتى .. سوف ترين .. ساجعلك تقبلين اقدامى هذه .

صرخت .. بأعلى صوت :

ــ يالهوى .. الحقونى ..

فزمجر وهو يخرج مطواه من جيبه ..

ــ لو رفعت صوتك .. سامزقك ..

مضت فى صراخها .. لا اهمية لاى شىء .. يهددها ، او يذبحها ، لا اهمية لهذا ..

وتوقف سيد .. وكانت قد انفجرت فى البكاء ، تلطم وجهها . وكلما ارتفع صراحها ، زاد هدوئ .. وكلما اشتد ذعرها ، انطفأت شعلة حماسه .

انهارت على مقعد ، وهى تسمعه يردد بصوت رتيب :

ــ خلاص .. خلاص .. اسكتى .. وحطى عقلك فى راسك . وصدقينى ، الولد يونس ، لن ياتى الى هنا مرة ثانية .. واذا كنت لا تصدقين ما أقوله . فهناك غيرى سيقولون لك ما هو العن واشد مرارة من هذا .. ؟

وتركها وخرج . لتنتبه الى محاسن مذعورة مختبئة فى حجرتها ، ما كادت تراها حتى انفجرت فى بكاء كانت كانت تكتمه رعبا .

ولكن لم تمض ساعة حتى تحققت كلمات سيد العتر ، جاءها ضابط شرطة ، قال لها فى ادب شديد ، ان شكاوى وصلت

الى الشرطة ، بأنها تدير بيتها للدعارة ، وأنهم أجروا تحريات ، وعلموا انها تستقبل شابا اعزب فى بيتها ..

وقال لها الضابط ناصحا :

— لماذا لا تذهبين الى بيت حماك .. انه قادر على حمايتك .. وتركها الضابط ، وهى تترنح ، لا ترى شيئا أمامها . اغلقت على نفسها باب شقتها . وفكرت فى الانتحار . لولا محاسن لانتحرت .

هل صحيح ان يونس لن يعود . لابد ان شيئا ما قد حدث .. ان سيد العتر يعرف الكثير ..

واسرعت الى مكتب التليفون ، وطلبت يونس .. ما كادت تسمع صوته حتى هتفت باكية . لاهثة .

— الحقنى ، سيد العتر ، والشرطة ، جاءوا البيت ، وسمعته يقول :

— ساكون عندك فى الحال ..

دخل عليها ، شجاعا ، فارسا ، رجلا ولا كل الرجال ، سمع ما قالته ، وراسه مرفوعة ، لم يخف ، ولم يتردد ، وكان فى عينيه بريق ساطع وفى صوته نغم حلو .

قال لها :

— كل هذا كلام فارغ ..

— تقول كلام فارغ .. لتعود الى المعسكر .. قال باسما :

— لا ياحبيبتى .. اقول كلام فارغ .. لانى ساتزوجك الآن ..

وقبل أن تتم الساعة . كان المأذون فى مكتبه يعقد القران الذى شهد عليه . اثنان احضرهما المأذون ، اثنان ، رجلان ، غالبا بوابان ، قالا لفاطمة ويونس ، مبروك وقبض كل واحد منهما خمسة جنيهات .

الفصل الرابع عشر

كان زواج يونس وفاطمة ، صدمة اصابت الجميع بذهول ، بدا وكانه هدوء يعقب العاصفة. وكانت الصدمة الكبرى فى بيت النائب العام ، الذى انهار امام النبا واعتكف فى بيته . وسواء كان مريضا ام يتظاهر بالمرض حتى لا يواجه الفضيحة بين الناس ، فانه عجز تماما عن التصرف ..

.. ولم تسعفه زهيرة هانم براى ، فقد انهارت هى الأخرى فكانت تصرخ وتولول وتلطم خديها مثل اية امراة ثكلت فى ابنها الوحيد .. وعانت من نوبات هستيرية . لم تخففها اقراص المهدئات التى ابتلعت منها كميات مضاعفة . واصابها فزع من قوى رهيبة غامضة توشك ان تنقض عليها وتصرعها ، كما صرعت ابنها يونس . وفقدت الثقة فى الأطباء . فلجات الى المنجمين وقارئى الكف . وكل من تسمع عنه أنه صاحب قدرات سحرية ويستطيع ان يعمل عملا ينفر يونس من الغولة التى اختطفته . ويعيده الى بيت امه . وانتهت كل هذه المحاولات الى شعور قاتم بالعجز والشلل ، فامتلأت مرارة واعلنت انها ايقنت ان الدنيا كلها شرور ، وانها دنيا غرور .. يتحكم فيها ابليس ، ولا ينتصر فيها الا الشر. وتهيات لها ظروف التوبة والاستغفار من ذنوب هذه الدنيا الفانية ، عندما اختارت الدولة عبد الحميد صفوت ليراس بعثة الحج المصرية تكريما له قبل أن يحال الى المعاش بايام . وعاشت زهيرة

مع عبد الحميد أيام الحج ومناسكه فى ابتهال متصـــــل ودعاء لا ينقطع ، وكانت تنتاب عبد الحميد صـفوت نوبات بكاء وهو يصلى ، وكان يطيل السجود ، ويضرب بجبهته الأرض ، فى حنين الى التراب الذى يوشك أن يعود اليه جسده ، وهو يستغفر الله من الذنوب التى ارتكبها ، ويتعجل الراحة الأبدية وان كان فى قرارة نفسه حنين الى ايام يتمنى لو تعود فيما يشبه المعجزة ، ولكنه لا يجرؤ على أن يفصح عن هذه الأمنيات . لانه كلما تذكرها شعر بالمهانة التى انتهى اليها ..

ولما عاد عبد الحميد صفوت من الحج ، كان المستقبلون له ولزهيرة هانم ، اقل من المودعين لهما ، فقد اعلن اسم النائب العام الجديد ،ولم يعد عبد الحميد صفوت من رجال السلطة ، واعلنت الحاجة زهيرة انها من أنصار التمسك بالحجاب للسيدات اللاتى جئن لتهنئتها . ودق جرس التليفون ، وسـمعت زهيرة صوت يونس يهنئها هى ووالده بسلامة العودة .. ويستأذن فى الحضور الى القاهرة ليزروهما .

قالت له الحاجة زهيرة بصوت صارم :

ـــ أبوك يقول .. انا جئت فتعال وحدك .

فأجاب يونس بهدوء ، ولهجة اشد صرامة :

ـــ ولكنى لست وحدى .

ولم يحضر يونس ، وكان يتمنى لو كان بجوار ابيه فى تلك الأيام القاسية الصعبة التى خرج فيها من السلطة وأحيل الى المعـــاش .

وكان يونس لا يجد احدا سوى مستر كلارك يتحدث معه فى بعض همومه ، فقد عزله زواجه عن اسرته ومعارفه التقليديين . كما أن فاطمة تعيش فى عزلة وكأنها مقطوعة من شجرة . وكان كلارك يعجب بشـــدة الارتباط العائلى بين الابناء والآباء عنـــد الشرقيين ، وكان يقول ليونس ان رجله العجوز ، يقصد إياه ، كان بائع قمصان فى مدينة سانت بول بولاية مينيسوتا . ولما بلغ كلارك الرابعة عشرة كان يعيش من مصروفه وترك البيت فى السادسة عشرة بعد وفاة أمه ، وتنقل فى عدة مدن يبحث عن عمل ، أما الرجل العجوز فقد سافر الى شيلى ، وتزوج من امرأة اخرى ومن يومها لم يره ، حتى علم نبأ وفاته وهو فى فيتنام . اذ جاءه خطاب من مكتب للمحاماه ، يخطره بأن والده ترك له فى وصيته بعض أســـــهم كانت تملكها أمه فى شركة سى . سى لتصدير الفواكه .

قال يونس ملقا على كلام كلارك ، انه كان يريد ان يذهب مع زوجته الى أمه وأبيه ، ولكنهما اقسما الا يعترفا بالزواج ، وكان يظن أن ذهابهما الى الحج سيطهرهما من كل مشـــاعر الغضـب فيقبلان زواجه ويعود الصـفاء الى العلاقة بين الابن وابويه .

قال كلارك باسما :

ـــ ولكن ما فعلته يايونس هو عجيب وغير متوقع فى اى مجتمع ، وفى أى بلد ، سواء فى الشرق او الغرب .

قال يونس بهدوء :

ـــ ليس غريبا ان احب .. وان اتزوج من احببت ..

قال كلارك :

ـــ هذا صحيح .. ولكن الغريب حقا .. هو انك أحببت

قاطعه يونس محتفظا بهدوءه :

ـــ انك لا تتخذ قرارا بان تحب .. والحب يدخل قلبك من حيث لا تدرى .

قال كلارك :

ـــ ربما .. ولكن أظن أنك فى حالتك هذه ، أردت شيئا آخـــر غير الحب .. فانتهى بك الأمر الى هذا الذى تقول أنه حب ..

قال يونس :

ــ نعم .. لا انكر هذا .. فقد كنت اول الأمر اريد ان اشعر باحترامى لنفسى ، وانى اقف ضد الظلم .. واستطيع ان اقدم العون والمساعدة لمن هى فى حاجة اليهما .. ولم اجد شيئا يمنحنى القوة لاحقق ما اريده سوى الحب .

قال كلارك :

ــ انت ياعزيزى تتحدث عن الدين .. لا الحب .

واردف كلارك :

ــ حقا انت ابن هذه البلاد .. كل شىء يتحول الى مشاعر دينيــــة .. حتى الحب .

قال يونس وهو يشيح بوجهه ، فى اتجاه الطريق المفضى الى الاسكندرية :

ــ ولكنه ليس تماما مثل الشعور الدينى الذى جعل ابوى يعودان من الحج فيرفضان رؤية زوجتى .

قال كلارك :

ــ يبدو انهما اقرب الى الاسلام .. اما انت فاقرب الى المســـيحية ..

فصاح يونس غاضبا :

ــ هذه معان تتحدثون عنها بغير فهم ، الاسلام فيه رحمة وتسامح .. بلا حدود .. والاســلام يحتوى على الحب الذى دعت اليه المسيحية .. لأن الاســـلام يكمل بناء الدين ويختتم رسالة السماء ، فهو لا ينقض ولا يهدم ، بل يكمل ويطور .. الاسلام فيه كل رسالات السماء .

قال كلارك بسرعة :

ــ لا اريد ان اتورط معك فى مناقشة دينية .. فهذا هو ما حذرونى منه قبل أن أجيىء الى بلادكم ، وارجو الا تغضب او تسىء فهمى ..

قال يونس ضاحكا :

ــ لن اغضـــب .. ولكنك بحاجة الى أن تفهم حقيقة مشاعرنا الدينية .. فقال كلارك ساخرا :

ــ يبدو لى من كلامك ان والديك فى نفس الحاجة الى فهم حقيقة المشاعر الدينية ..

ولو كان يونس يقرأ الغيب ، لقال لـــكلارك انه محق فى ملاحظته الساخرة ، فقد اتخذ الشعور الدينى عند زهيرة هانم اتجاها الى الاهتمام بزى اسلامى خاص ، رسمته بنفســـها ، وقالت انه الذى يتفق مع احكام الشــــرع ، ويجمع بين الاناقة والوقار . وكان الزى يشـمل غطاء للراس مكونا من طربوش مغطى بغلالة حريرية شفافة ، تلفها حول رقبتها ، وفســـتان باكمام طويلة ، وله كتفان بارزتان . وصـــدر موشى بخرز لامع او شرائط براقة حتى الخصر ، ثم ينفرج الفستان على شـــكل ناقوس ، وينسدل حتى اصابع القدمين ، واعدت الحاجة زهيرة هانم مجموعات من هذا الزى ، كل طقم له لون موحـــــد .. بنفسجى او اخضر او ليمونى أو ازرق او سمنى ، وكان اللون واحدا فى الطربوش والغلالة وقماش الفســـتان وجلد الحذاء وكانت زهيرة هانم وهى فى زيها الذى صــممته ، أشبه بممثلة فى رواية تاريخية ، تتحرك على خشبة مسرح الحياة ، وهى تردد كلمات الدور الذى تلعبه ، وكلها كلمات تشرح مزايا الزى الذى ترتديه ، وكيف ان مواصـــفاته هى أقربها الى احـكام الشرع . ولم تقلد واحدة من معارفها زيها وقد ســرى همس بينهن ان زهيرة لم تعد فى تمام عقلها منذ فضيحة ابنها . وان قالت بعض السيدات ، أن الحركات التمثيلية التى تتظاهر بهـــا زهيرة ، هى حركات متعمدة ، حتى تشغل نفسها وتشـــغل انظار المحيطين بها عن التفكير فى الكارثة التى وقعـت بزواج يونس من فاطمة .

وانزوى الحاج عبد الحميد صفوت فى حجرته ، لا يكلم احدا ، وكان ينتظر صوت المؤذن فى التليفزيون ليقوم ويصلى ، وكان بين الصلاة والصلاة ، يقرأ القرآن ، او يخرج من مكتبته كتب الفقه والتفسير والكلام ويحاول قراءتها ، فيقرأ عدة سطور، فيهاجمه النعاس ، ويغفو ، وفترت علاقته بزهيرة ، وانقطعت صلته بسارة ، حتى فوجىء بها ذات يوم تقتحم خلوته .. وتحدثه عن المهندس سمير الساحر ، وكانت قد اتصلت به فى النادى ، وبذلت كل ما فى وسعها لتجذبه مرة اخرى الى التفكير فى الزواج منها . فبعد زواج يونس من فاطمة واحالة والدها الى المعاش ، ايقنت أن فرص زواجها اصبحت شبه معدومة ، وانها قد تقضى بقية عمرها عانسا ، وكان لابد وان تتحدى هذه الظروف وتحاربها .

قالت سارة للمهندس سمير :

— ابى يستطيع ان يتوسط لتعيينك فى شركة من شركات مرسى فرج ..

قال سمير متشككا :

— لا أظن ..

فسارعت سارة تقاطعه ، قبل أن يتورط فى كلام يضايقها، أو يضع حواجز نفسية بينها وبين هذا الشاب الذى تريد أن تجذبه الى شراكها ، وقالت لسمير ، ان هناك علاقة قرابة بين عائلتها وعائلة مرسى فرج ، فشقيقها هو الذى يتولى الآن تربية حفيدة المليونير ، وبنت المهندس طلعت . واهتم سمير بهذه الفرصة الحقيقية التى تلوح بها سارة ، بينما هنأت هى نفسها على تفسيرها الذى ابتكرته لزواج يونس ، فهو ليس كارثة تماما ، فهناك مزايا من الممكن استغلالها ، من صلة يونس بحفيدة المليونير . وهى ترحب بهذا التفسير ، لانه يفتح ابواب الامل ، ولا يتركها لليأس العقيم كما فعل والداها . فهما عجوزان ، ابناء

جيل قديم يقف متجمدا عند معان قديمة ، اما هى فلابد أن تواجه الأزمة بمنطق آخر ، فهى تبحث عن فرص فى الواقع الجديد ، مهما كان مرا ومتواضعا ، وكانت سارة قد ذهبت الى أمها قبل ذهابها الى أبيها ، تسألها المشورة فى أمر سمير ، فاذا بالحاجة تقول لها ساهمة شاردة :

— عندك أبوك .. سليه ما تشائين .

واضطر عبد الحميد صفوت الى أن ينشط ، وان يخرج من صومعته وحبسه الانفرادى الذى فرضه على نفسه ، كأن لا يستطيع مواجهة سارة ، ولا يملك سوى الاذعان لرغباتها .. فسافر الى الاسكندرية ، وهو ينفر من كل خطوة يخطوها ويكره كل لحظة تمر به وطلب مقابلة الحاج مرسى فرج ليساله ان يقبل تعيين خطيب سارة فى احدى شركاته .

واستقبل الحاج مرسى النائب العام السابق بعد يوم من طلبه اللقاء ، لانه رأى الا داعى لأن يظهر لهفة ويحدد موعدا للقاء فور طلبه ، ولأنه كان مازال مترددا فى أمر حفيدته محاسن رحب فى البداية بزواج فاطمة من يونس ، فقد أصبح لام محاسن رجل له مركزه الاجتماعى ، وابن ناس يستطيع أن يحافظ على محاسن ويقدم لها رعاية مناسبة . ولا بأس من أن تكون هناك صلة بين حفيدة الأسطى الميكانيكى مرسى فرج وعائلة يونس عائلة البكوات والمستشارين ، ويونس أشبه بحلية وفى وجوده مظهر لا بأس به . ولكن الحاج لا يقف كثيرا عذد المظاهر ، وقد تعود أن يزن كل شىء بما يحصل عليه من كسب أو ما قد يلحقه من خسارة ، وهو يفكر فى محاسن كوارثة فى المستقبل لملايين الجنيهات ، واذا ارتبطت محاسن بأمها فاطمة وزوج أمها يونس ، فان هذه الملايين ستذهب الى فاطمة ويونس . وهو لم يجمع ثرواته ليسلمها لابنه زكريا أو ابن عبد الحميد صفوت . كلاهما فقير ، وكلاهما

مهما اختلفت المراكز لا حق له فى ان يسلب اموال الحاج مرسى وأموال ابنه طلعت . ان الثمن الذى قد يدفعه الحاج وابنه مقابل ترحيبها بهذة الصلة المظهرية بين محاسن ويونس ابن الذوات ، سيكون ثمنا باهظا ، وها هو أبو يونس يريد ان يستفيد من صلة ابنه يونس بمحاسن ، يريد أن يطمئن على نصيبه من الصفقة . هكذا الناس ، والدنيا مصالح . وقرر الحاج بينه وبين نفسه أن ينتظر عودة طلعت ليتخذ قرارا فى موضوع محاسن .

ورحب الحاج مرسى ، بضيفه ، وتعمد الا يذكر شيئا عن زواج يونس بمطلقة ابنه طلعت ، وكان يعرف بانهيار عبد الحميد، وقد حكى له شهدى أبو اللطف انه كان مع عبد الحميد فى عشاء بنادى السيارات بالاسكندرية ، بعد يومين من زواج يونس ، وصادف ان تحدث المدعوون اثناء العشاء عن فرح كبير سيقام احتفالا بعقد قران ابن أحد الوزراء ببنت سفير فى الخارجية .. وبعد انتهاء العشاء ركب عبد الحميد سيارة شهدى ليوصله الى فندق سيسل .. وفوجىء شهدى بالدموع تنهمر من عينى عبدالحميد، وهو يحاول أن يوقع أصابعه خلسة ليمسح دموعه المتساقطة على خديه ..

وهمس شهدى :

— مالك ...

قال عبد الحميد بصوت متهدج :

— سمعتهم أثناء العشاء يتحدثون عن الفرح ، وتذكرت انى كنت أتمنى أنا وزوجتى أن نحتفل بزواج يونس بفرح كبير .. يحضره كل الناس ، لا أن يتزوج بهذه الطريقة فى السر وفى مكتب مأذون .

فقال شهدى :

— المهم أن يكون مرتاحا ، وكله قسمة ونصيب .

فقال عبد الحميد بحرقة :

— كيف يرتاح .. وأمه غاضبة عليه .. وأنا غاضب عليه .

قال شهدى :

— سوف يأتى يوم وتصفحان .

نصوب اليه عبد الحميد عينين دامعتين جاحظتين فيهما غضب وقال :

— عدوى هو الذى يطلب منى ان اصفح عنه ، اقسمت الا يدخل بيتى ولا اعرفه .. حتى أموت .

وكان الحاج مرسى واثقا ان عبد الحميد مهما تظاهر بغضبه على ابنه وقطعه لاية صلة به ، الا انه ما جاء الا معتمدا على هذه العلاقة بين يونس ومحاسن .

واستمع الحاج الى عبد الحميد وهو مطرق براسه ، وفكر برهة ثم قال وهو يزن كل كلمة ينطق بها .. ان طلعت ابنه سيعود قريبا من اليابان بعد ان يفرغ من المشروع الذى يدرسه ويعد له هناك . وانه سيفتتح شركة عالمية دولية لها عدة فروع فى الدول العربية ، لتصنيع الآلات والعقول الحاسبة ، وسيدير طلعت الشركة ، وكل ما يستطيع ان يعد به الحاج هو انه سيطلب من طلعت ان يعين المهندس سمير الساحر فى الشركة الجديد .

همس عبد الحميد :

— وهل سيطول الوقت ؟

فقال الحاج مرسى بلهجة قوية ساخرة :

— يا عبد الحميد بك .. الوقت هو المال .. وهناك من يتصور انى اكتنز المال وكأن كل مهمتى هى أن أحصى نقودى .. وهذا لو صح يكون عملا تافها .. فليس عندى مال .. كل ما عندى موظف فى مشاريع .. والثروة الحقيقية هى المشروعات والأعمال ، وليست الأموال ..

وقال فجاة بلهجة قاسية :

سمعت انك قيدت اسـمك فى نقابة المحامين .. لماذا لا تعمل .. عندى قضايا استطيع ان ارسلها لك ..

كان الحاج يتحدث — بلهجة فيها نوع من التوبيخ لم يتعود عليه عبد الحميد صفوت ، فليس الحاج هو الذى يعطى الدروس ويشرح الافكار ، والرجل يتحـدث كما لو كان عبد الحميد جاء يتسول منه وظيفة ، ومع ذلك فهو عاجز عن ان يحتج او يواجه التحدى بمثله ، وتمتم بكلمات شكر ، وعاد الى القاهر ليسـمع تعليق الحاجة زهيره ، التى قالت له ان الحـاج مرسى يريد اذلالهـم .. وانه قال ان الامـر فى يد طلعت ليكون الاذلال مضاعفا .

اما سارة فقالت لنفسـها ، ان طلعت يريد ان يقترب منها ، وفكرت فى لقاء بينها وبين طلعت وتقلبت فى مخيلتها الصـور والمواقف لاحتمالات هذا اللقاء ، فرات فى خيالها طلعت يسـعى ملهوفا وراءها .. وهى تتمنع ، مثلما تمنعت فى اول لقاء وهددته بان تدخله السجن ، ثم تخيلت مشهدا بينها وبين طلعت وهى تلطب منه علاوة لسمير زوجها ، وهو يستجيب لانه يضعف امام اغراء ابتسامتها او اغراء عينيها ، وراته وهو يطارحها الغرام وتطلب منه ان يطلق زوجته ، كما سبق وان طلق زوجته السابقة التى تزوجها يونس . ثم تطلق هى سمير الساحر الذى لم يعد اكثر من جسر تعبر عليه الى طلعت ، فشـتان بين ان تكون زوجة المرؤوس ، وان تكون زوجة الرئيس .

وكانت هذه التخيلات تقلق ساره ، وتضطهدها وتحرمها من راحة النفس والرضا عنها .

وفى احدى نوبات القلق طلبت سارة من سمير خطيبها ان يرفض العرض اذا تقدم به طلعت . وحاولت ان تقنعه بان يبحث عن عمل آخر ، ولكن سمير رفض ، ولم يفهم ماذا وراء مطلبها

فالشركة التى يعد لها طلعت سوف تنتج الآلات الحاسبة والاجهزة الالكترونية ، وهى بضاعة العصر الحديث ومستقبلها افاقه واسعة باتساع الفضاء الكونى ، فلماذا يسعى الى عمل آخر ، بينما اعمال كثيرة اخرى مهددة بالزوال وفقدان الاهمية فى هذا العصر الذى يشهد الثورة التكنولوجية . وسيكون مقر عمل سـمير فى بلد عربى ، ويقبض مرتبه بالدينار او الدولار ، فكيف يتخلى عن هذه الفرصة الذهبية . الا اذا كان معتوها .

ولم تستطع سارة ان يتكم عنه ما فى نفسها . فقالت له ان طلعت كان يوما ما يريد ان يتزوجها .

فسالها بارتياب :

— ولماذا لم يتم الزواج ؟

فاجابت سارة :

— لانى رفضت الزواج منه ..

فقال سمير متباهيا :

— هذا معناه انه رجل طيب .. اذ يقبل ان اعمل معه .. مع انى الرجل الذى رضيت به من رفضت الزواج منه .

صاحت سارة فى غيظ :

— الا تفكر فى احتمال آخر ؟

فسالها متغابيا :

— اى احتمـال ؟

قالت سارة بصوت قاطع :

— ان يكون يريد أن ينتقم .

فقال سمير بغير اكتراث :

— هذه افكار سينمائية .. تليفزيونية ياعزيزتى .

ادركت سارة ، انه غير مستعد لان يقتنع لاى سبب بترك الوظيفة المعروضة عليه . بل انه اذا كان عليه ان يختار بين سارة والوظيفة ، فلن يتردد فى اختيار الوظيفة ، انه يحارب

بكل طاقاته من أجل الوظيفة وفى سبيلها سيدوس على كل شىء، لن تهمه قيم أو تقاليد ، ولا يعنيه كثيرا زواج وبيت وعائلة وحب . وهى تفهمه ، لأنها ايضا تحارب بكل طاقاتها لتتزوج ، انها تقاتل حتى لا تكون عانسا ، ولسوف تتحمله ، ولسوف تتزوجه ، مهما كانت دناءته .. ولكنها تعرف الآن فى قرارة نفسها ، ان قبول سمير لهذه الوظيفة ، عند رئيسه طلعت ، سوف يفرض عليها مناخا لن تستطيع مقاومته ، ولماذا تقاومه . اذا ما واتت الفرصة، ولابد ان تحين ، لتلتقى بطلعت وتكون اعظم انجازاتها ، هو أن تستسلم له .

وسمعت سمير يقول وكانه يراجع نفسه أو يطمئنها .

— العمل لن يكون فى مصر .. ومعنى ذلك اننا سنكون بعيدين عنه .

قالت سارة لنفسها . بعيدين أن قريبين ، سيكون طلعت رئيسك الذى يصدر لك الأوامر التى تنفذها . رئيسك الذى يمنحك أجرك ويكافئك ويعاقبك . ولسوف يأتى يوم تفتح فيه امامى ابواب اغراء ، وابواب شر ، وابواب نزوات ، وابواب انتقام ، ولسوف تنطلق من كل هذه الأبواب رياح عاصفة عاتية ، ربما تقتلع كل ما بينى وبينك . انهم يقولون الباب الذى يجيئك منه الريح ، سده واستريح ، ولكنك تفتح كل الابواب على مصراعيها . ولا احد من حولى يفكر فى اغلاق الأبواب ، كأنهم يتلذذون بان تجتاحهم العاصفة . فتنهى حياتهم ، وتخلصهم منها . فحياتهم هى المشكلة ، وهى الأزمة والمأزق . وهى الطريق المسدود . والشىء الوحيد الذى يملكونه ، هو ان يتخلصوا من هذه الحياة ، ان يرحبوا بكل ما يضع حدا ونهاية لهذه الحياة .

وعاد طلعت الى الاسكندرية وكان قد عرف بزواج فاطمة ويونس ، برسالة من ابيه . وكان الخبر صدمة لطلعت رغم انه كان يظن ان مثل هذا الحدث سوف يضحكه ، ويجعله يهزأ من هذا الأحمق يونس الذى هبط من عليائه ليتزوج فاطمة .

شعر طلعت برهبة ، وشعر بلطمة ، كأن فى تصرف يونس نوعا من التحدى ، أو العناد ، وقال طلعت لنفسه محاولا تفسير هذا الزواج ليسيطر على مشاعره ، بأن هناك نوعا من الناس يبحثون عن العذاب ويتلذذون بايلام النفس واهالة القاذورات فوق رؤوسهم . وقال باحثا عن تبرير آخر ، انه شعر منذ البداية أن يونس وعائلته منحوسون ، وانهم ليسوا جديرين بما تقدمه الحياة من نعم لمن يريدها ويقبل عليها . فقد دارت الأيام دورتها المحتومة ، وزالت دولة تلك العائلة ومثيلاتها ، وهم مثل أى كائن حى أصابتهم الشيخوخة ، بعد ان اخذوا حظهم من الحياة ولم يعد امامهم الا انتظار الموت . وعجزهم يفضحهم وهذا أمر لا شك فيه ، ولا سبيل الى علاجه والتغلب عليه . ولقد اكتشف فى اليابان كم كان مخدوعا بهؤلاء المنحوسين الذين يتظاهرون بانهم من نوعية أرقى من البشر . كان فى حفل فى بيت للجيشا حيث دعاه السيد تانى تانى مدير شركة « ميجا » للصاعات الالكترونية . وقد فرغا من اكل الأسماك النيئة والأعشاب البحرية ، ونافس طلعت اليابانيين فى قدرته على أن يأكل اى شىء كان يعرفه أو لا يعرفه . واعلن استعداده لان ينافس من يريد ، أكل الحشرات مادامت غير سامة . وشرب الساكى ثم شرب الشاى مع تانى تانى ، وكم كان فرحه عندما سمع مضيفه وهو يكرع الشاى بشهيق قوى له صوت يدوى فى جنبات المكان . تذكر زهيرة هانم يوم ذهب يخطب سارة ، وكيف نظرت اليه وهو يشرب الشاى ويأكل الجاتوه ، وقامت تقدم له الفوطة وكانها تلومه على ما يرتكبه من اثام . وكيف اعتذر لها عن همجيته ، واعتماده على سارة فى تهذيب حياته . لقد اخطأ . فها هم اليابانيون من أرقى المستويات ، يخرجون اصواتا لم يخرج اليه راكعات زاحفات يحملن اطباق الطعام واكواب الشراب . هاهى اليابان بكل ما فيها من تقدم ، لاتقف عند المظاهر التى

يتمسك بها اولئك الذين خدعوه ، وقالوا انهم من عائلات ذوات ، اللعنة عليهم جميعا بمظاهرهم وتقاليدهم البالية المغشوشة .

ولكن طلعت ، كان لا يستطيع أن يمضى فى هذا المنطق ، لانه كان يشـــعر بانقباض مفاجىء فى قلبه ، ويخيل اليه انه يخدع نفسه ، وانه يتباهى بسراب ، ويزهو بلا شىء . وأن يونس الذى حصل على فاطمة وحصل على محاســن له رؤية للحياة قد تكون فى نهاية الأمر هى التى تكسب وما عداها رؤى خاســرة .

وهنا يشـــعر بأن تصــرف يونس فيه خيانة واستفزاز لا مبرر لهما . وما كان يخطر بباله ان يونس قادر على أن يحمى فاطمة ومحاسن ، بينما اهلها الحقيقيون ، جبناء لا يهتمون بشىء غير انفسهم . يونس يزعم انه وحده ينتمى الى اصحاب الشرف والكرامة والمروءة .. اما طلعت فهو دودة شرهة لا يعنيها الا ما تلتهمه وتملأ به بطنها او جيوبها .

قال طلعت لنفسه اذا كنت تتحدانى يايونس ، فانا لها .

وما كاد طلعت يسمع الى وجهه نظر ابيه .. فى اهمية بقاء محاسن مع ابيها لا مع امها .. حتى قال :

هذا .. انه امراة تاهت بين الرجال .

— هذا هو مـــا يجب أن يكون فلن اترك ابنتى مع يونس

وقال الحاج مرسى ضاحكا :

— ابوه يترافع فى بعض القضايا التى أرســلتها له . وهو يحصـــل منى على اتعاب لا بأس بها .. فلماذا لا نكلفه بقضية انتزاع محاسن من بيت ابنه .

وتمتم طلعت فى غضب :

— لا قضايا .. ولا مرافعات .. البنت ابنتى ، فمن يقف فى طريقى ادوسه .

الفصل الخامس عشر

كانت فاطمة هى الوحيدة التى بدا عليها انها تتصرف وكان شيئا لم يتغير فى حياتها . وهى لم تشــعر بان شيئا قد تغير فى يونس بعد الزواج ، فقد ظل كما عرفته ، لها وحـدها ، وهى له وحده ، وهما معزولان عن بقية العالم، أو محاصران بالعالم . وكلاهما ينظر الى الآخر فيما يشبه دهشة الأطفال ، يكاد يسال نفسه او يسال قرينه .. كيف جمعتنا المقادير تحت سقف بيت واحد .

وكان يونس يذهب الى المعسكر فتمر الأيام رتيبة مملة أمام فاطمة ، ولكنها لا تختلف عن تلك الأيام الرتيبة المملة التى كانت تقضيها وهى تنتظر عودة طلعت من المعسكر . وربما كانت تنتظر يونس بنفس المشاعر والأحاسيس التى كانت تنتظر بها طلعت . فهكذا تعودت أن يكون الانتظار .. تنتظر بجســدها ، وباعداد بشرتها وشعرها وبث العطر فى ثناياها ، والتهيؤ لاستقباله ، باستثارة شهيته للطعام ، والاحتفال بلمذات الجسد ، وترحيب أنوثتها برجولته . والاحتفاء بوجوده ، يملأ صوته البيت ، ويتحول كيانه الى محور يدور حوله كل من تضمهم جدران البيت . هذه هى الثقة التى تعودت أن تاخذها من وجود طلعت . وهى لم تتعود ان تاخذ شيئاً آخر باسلوب آخر . ولكنها ما تكاد ترى يونس أمامها ، حتى تكتشف أو تتذكر أنها أمام موقف آخر غير

ذلك الذى تعودت عليه . وهو موقف مختلف تماما ، والرجل الذى جاء يختلف عن طلعت ، وليس فى هذا ما يقلل من اهميته ، فهى تحبه ، وتشعر بأن له هيبة ورهبة . وهو يحميها ، ولكنها لا تدرى كيف ، وتثق فيه ، ولا تدرى كيف . فدهشتها معه دائمة ، وعجبها منه لا ينقطع . وهو يحول حياتها الى نوع من المغامرة العجيبة ، يخفق لها قلبها ، كما لم يخفق مع طلعت .. وينشط لها علقها كما لم ينشط مع طلعت . يقول لها كلاما لا تتوقعه ، ولابد له ان يشرحه حتى تفهمه ، واحيانا لا تفهمه مهما شرح واطال فى الشرح ، وقد ينطق بكلمات غريبة او يطلب منها طلبات غريبة . قال لها ذات مرة انه يريد ان يشرب قهوة بلبن . ضحكت فهى لا تتصور قهوة مخلوطة باللبن . ولم تفهم ما قاله . ولكنه رقيق دائما ، وهى تحاول ان تفهم وان تتعود ، رغم أن ما يطلبه يبدو تافها احيانا ، أو يثير حنقها احيانا . ولما عرفت ما الذى يعنيه بالقهوة باللبن ، وجدت انها شراب سخيف لا معنى له .. ولا علاقة له بالبن المحوج اليمنى المحروق . وكان يصر على وضع الاطباق والشوك والملاعق والسكاكين ، وترتيب معين للمائدة ، وكان يرفض ان يشرب الشاى بالسكر ، ويضحك ويقول لها انه يعرف أناسا يغمى عليهم لو عرفوا انها تضع سبع قطع سكر فى الشاى . اوشكت فى مرات عديدة ان تثور ، وان ترفض ما يطلبه ، أو تتهمه بانه يسخر منها ، ويحرجها ويهينها .. ولكنها كانت تراجع نفسها فى اللحظة الأخيرة . وتقول ان كل ما يطلبه تافه وبسيط . مقابل ما يقدمه لها بوجوده من حماية واهتمام ورعاية . لقد تزوجها وحارب الدنيا كلها من اجلها ، ولولا ذلك ما كانت تعرف ماذا يكون مصيرها ومصير محاسن . لقد اخذت منه ما يوازى بل يفوق كل الاهانات وكل الجروح التى تلحق بالكرامة ، فليس بينهما سبيل لاهانة ، مهما فعل ومهما قال ، فهو رجلها . الذى رضى بها زوجة ، وتحمل مسئولية ان اباها زكريا وامها شفيقة ، وانها فقيرة ، وانها مطلقة ، وانها لم

تتعلم . فاذا كان يتقبل كل هذا ويرضى به ، افلا تتقبل وترضى بكلمات يقولها . جارحة او غير جارحة .

انها لا تخاف منه ، بل تخاف نفسها تخشى أن يفلت منها الزمام الذى تضبط به نفسها ، تخشى ان تنتابها ، نوبة جموح وطيش ، فهى تعرف نفسها ، وهى حمقاء رعناء ، ولقد كان طلعت يعرف هذا ، ويعاملها كما كان يقول لها على انها طبق مهلبية ، اما يونس فيعاملها كما لو كانت شيئا آخر ، لم تتبينه بعد ، ولكنه يعطيها اهمية ، ويبذل جهدا لكى يعلمها ، ولو جمحت ستنقطع علاقتها به .. والتى تقوم على اشياء غير محسوسة ولكنها واثقة من وجودها .

ومع ذلك فهى تحاول بدورها ان تعلم يونس كيف يتعرف عليها ، وهو خام وبكر ، يتعلم ولا يرفض ولكنه خجول شديد الحياء ، كانت ذات مرة فى الحمام ، فنادته وسمعت صوته من الخارج ، ولم تفهم ما الذى يمنعه من فتح الباب والدخول عليها . اليس زوجها ، اليست حلاله ، وليس بينه وبينها تحفظ ووقار فى كل لحظة . . ولقد ظنت فى بداية معرفتها به . انه من ذلك النوع من الرجال الذين لا يهتمون بجسد المراة ، لانهم عاجزون عن الاستمتاع به ، ولكنها عندما عرفته ، ولم تتبين فيه العجز ، ولكنه ليس نهما ، ولا تنحصر متعته فى الاكل والجسد ، فهو يحب القراءة ، ويسمع موسيقى لا تفهمها ولا تحبها . وتعودت أن تتركه وشأنه . وأن تخدمه كما كانت تقول له بعينيها واهداب عينيها ، وعرفت ايضا ان من حقها ان تدعوه اليها ، لانه لن يأتى اذا لم تشجعه ، ولم يتبين أنها مستعدة للقائه ، وها هى تناديه أن يفتح باب الحمام ما كان طلعت فى حاجة الى هذا النداء ، بل قد كانت تغلق الباب حتى لا يقتحمها بعينين جائعتين ويفرض عليها ماليس لها رغبة فيه .

وسمعت صوت يونس . كان مرتبكا . وكان يدعى انه لم يسـمع ..

ـ ماذا تقولين ؟

صـاحت :

ـ لماذا لا تدخل ؟

ـ قال متجاهلا سؤلها :

ـ اتريدين شيئا ؟

قالت تتجاهل تجاهله :

ـ هل انت مكسوف منى ؟

قـال :

ـ أبدا ..

ابتسمت وهى تراه بخيالها واقفا وراء الباب ، مرتبكا .. وصاحت وهى تشعر بقوتها ، وانها تعلمه اشياء سوف يجد فيها متعة وصلة اوثق بها ..

واطل عليها ، وجهه محمر ، الخجل واضح ، يتظاهر بان ما يربكه رذاذ الماء ورغاوي الصابون انه لا يريد ان يستسلم لطبيعة الأشياء ، لا يريد ان يترك نفسه على سجيتها ، هذا هو التهذيب الذى أخذه عن اهله ، وتعود عليه فى العالم الذى جاء منه . لا يستطيع ان يخرج من عالمه ، ولا ان يغير جلده كما لا تستطيع هى أن تجاريه فيما تعود عليه ولكن أخذه مشكلة . ان انوثتها كفيلة باحتواء هذه المشكلة . ان الأنوثة تزداد تفتحا وخصوبة وهى تواجه نقيضها ، هذا هو ما يجذب الأنوثة الى الذكورة والذكورة الى الانوثة وهى تعرف انها عندما تجىء له بولد ، سوف تنتهى مشاكل الفرقة ، ودنياه التى تختلف عن دنياها . فبالولادة سوف تتجمع الأضداد ، وتعلو بالأمومة فوق الأنوثة ، كما يعلو هو بأبويه فوق ذكورته بكل ما فيها من فردية وعزلة .

كانت ترى فى يونس كيانا عاليا رفيعا غاليا ، فهو الغالى العزيز ، هكذا كانت تهمس روحها ، وكانت ترى أن الحمل قد تأخر ، والولد يتلكأ فى الاعلان عن مقدمه ، لأنها ليست مهيأة بعد لأن تضع فى بطنها ابن هذا الرجل . بما له من نبالة واصالة . كانت ترى ان جسدها لم يتهيأ بعد لاستقبال كل المعانى التى يحملها الأب ، والتى سوف يرثها ابنه من خلال جسدها .

وكانت ترقد بجوار يونس فى السرير ، أو تجلس احيانا على حافة السرير تمشط شعرها ، بينما هو يقرأ جريدة ، وهى تستجمع فى جسدها كل طاقاته لتواجه فى لحظة قادمة العمل الكبير الذى سوف تقدم عليه وتنجزه . ان تلد ابن يونس . وكانت تهمس فى اذنه بصوتها الدافىء الرخيم :

ـ لابد أن يكون صورة منك ..

فيقول ضـاحكا :

ـ سيكون احسن .. لانه منك .

فكانت تمتلىء فخرا وزهوا ، ولكنها لا تبوح له بسر زهوها، اذ كان كلامه يعنى انها احسن من امه . وهى تخشى ان تنبهه الى ذلك . ولكنها تحب أن تهمس له من وقت لآخر . فتسمع منه نفس الاجابة ، فتمتلىء بهذا الفخر والزهو الذى ما عرفته طوال حياتها من قبل مع يونس .

وكانت تحلم بذلك الولد ، الذى هو ابنه وهو يكبر وهى امه وتعجب كيف تتعامل مع هذا الذى سيكون ابنها ، ولا شك ان اسمه سيكون عبد الحميد صفوت ، على اسم جده . وهو اسم غريب تماما عليها . ولكنها لا تتصور أن يكون اسم ابنها زكريا . وهى لا تريد ، ولكنها رغم ذلك تشعر بحنين يوشك ان يسيل الدموع فى مآقيها ، وهى تهمس لابنها القادم تناديه .. زكريا .. زكريا .. مستحيل أن يكون اسمه زكريا .

انه عندما يجىء سوف يخرجها تماما من ماضـيها وعندما

تصبح امه ، ستكون امرأة أخرى ، ولن تعرف كيف تتعامل مع تلك الأم التى ستكون هى بلحمها وعظامها . ستكون فاطمة اخرى . او ربما تموت وهى تلد الولد . لانه سيقضى على وجودها كما تعرفه ، وهى غير محصنة ضد التغيير القادم ولم تشعر بعد بأنها جزء من هذا الكيان الذى يقدمه يونس لها ، جزء تتعامل معه ، لو كان يونس يرقص ، لو كان يغنى ، لو كان يعرف كيف يضحك ملء شدقيه وحتى تدمع عيناه ، لو كان يندفع بكل حيوية ، ولكنه لا يفعل . يأكل بالشوكة والسكين ، كميات ضئيلة ، لا يعرف كيف يلتهم ، ولا يرغب بقسوة وطغيان ، منذ ان تزوجته وعيون الجيران تنظر اليها نظرات مختلفة ، ويتحدثون معها بأصوات مختلفة ، اكثر احتراما واكثر بعدا واكثر فضولا .

الى متى يستمر هذا الضجيج الذى يتصاعد ويتكاثر فى راسها ، ما معناه ، ما تفسيره . كانت بين اليقظة والنوع ، وراسها مسندا الى المخدة وامامها مقعد ، وسجادة ، ودولاب ومرآة . وراته يدخل . صامتا .

وقال لها بعد ان خلع سترته :

ـ طلعت عاد ..

سألته :

ـ هل قابلته ؟

قال :

ـ لا .. ولكنه ارسل لى سيد العتر .

هتفت غاضبة :

ـ ما شان سيد العتر ؟

كانت تعرف انه يريد شيئا خاصا بمحاسن ، واغضبها ان يلجأ طلعت الى سيد العتر . هل جن ، حتى يقحم سيد فى امورها الخاصة ؟

قال يونس ، وهو يخرج ورقة من جيب سترته :

ـ كتب خطابا غريبا .. انه يريد محاسن ..

صاحت :

ـ بعمره ..

قال يونس فى هدوء :

ـ سألت رجل قانون اعرفه .. قال لى ان لك الحضانة ..

صاحت بشراسة :

ـ قانون .. او غير قانون .. لن يأخذ ابنتى منى ..

وفجأة سألته فى ذعر :

ـ اليس هذا هو ما تريده ؟

قال بسرعة :

ـ طبعا ياحبيبتى .. وهذا هو ما رددت به على خطابه .

اطمأنت ، فاستعادت شراستها كاملة ، وقالت :

ـ قل لسيد التعر .. لو اقترب من هذا البيت .. سأقتله ..

ابتسم وقال فى هدوء :

ـ اطمئنى ياحبيبتى ..

قالت فى غضب :

ـ انه مجرم ..

قال فى ثقة :

ـ لن يجرؤ طلعت على ان يفعل شيئا ..

ـ ولكن هذا التأكيد الذى تحدث به يونس ليطمئنها كان يعكس طيبة ان لم تكن سذاجة فى فهم طبائع البشر . لان يونس لا يتحمل ان يحكم على الناس بأنهم اشرار ، او انهم قادرون على خرق القوانين وارتكاب ابشع الموبقات ، وهو يسمع عن الجرائم ، وعن الشرور التى يرتكبها البشر ، كما لو كان يسمع قصصا وحواديت خيالية ، لانه يعجز عن تمثل الشر فى نفسه . ولكن فاطمة ، كانت تعرف مغزى ارسال سيد العتر .

انه انذار واضح ، وتهديد سافر ، بأن طلعت ينوى شرا ، اذا ما رفضت طلبه .

وجهت فاطمة كل غضبها الى يونس وسألته :

— لماذا لا يجرؤ طلعت ان يفعل شيئا . من اين لك هذه الثقة ؟

قال فى غير فهم :

— لأنه لن يرتكب جريمة .

صاحت :

— انه يرتكب الف جريمة وجريمة .

واجهشت بالبكاء وهى تقول :

— لن تدعهم يأخذون ابنتى منى .

فتقدم منها ، واحاطها بذراعيه . لقد بدا يفهم كيف خاطبها ، بدا يتعامل باللغة التى تستريح اليها . وقال وهو ربت على كتفها بصوت هامس :

— قلت لك اطمئنى ..

قالت بصوت مستكين .. ولكنه يحمل كل ماديها من اصرار :

— وما الذى ستفعله . وانت مسافر غدا .. ؟

قال بنفس الهدوء :

— لن يأخذوا منك محاسن .. لانى سادافع عنك .. وسأفديك وافدى ابنتك بروحى .. ولن يحدث شىء فبين المعسكر وهنا ساعتان لا اكثر .

وصدقته . وارتجف جسدها من صدق لهجته ، وتمنت لو كان اختار كلمات اخرى غير التى تفوه بها .

وكان هذا الوعد الذى قطعه يونس على نفسه . يعنى انه مقبل على مواجهة خطيرة مع طلعت ، الذى كان قد اصدر اوامره لسيد العتر قائلا بوحشية :

— اذهب وقل لبنت الكلب .. انى اريد ابنتى .. اسمع خذ هذا الخطاب واعطه ليونس .

وقد لجأ طلعت الى هذا الأسلوب الهمجى ، بعد ان وقع فى يتحدث معه ، وكان واثقا ان هذا اللقاء سوف يتم ببساطة . كما حدث فى آخر لقاء لهما بفندق فلسطين .

وامسك طلعت بالتليفون ، وادارا الرقم ليسأل عن يونس . واذا بيده تتجمد ، ويشعر بأنه لا يستطيع ان يتكلم مع يونس . وانتابه غيظ شديد من نفسه . وارسل يطلب سيد العتر . وطلب منه أن يحمل خطابا ليونس . لم يتردد فى ان يجاهر بمضونه ..

وكان سيد حاقدا على فاطمة ، ولكن حقده على يونس كان اكبر . فاحتقار يونس له ، ليس له مثيل ، انه بقايا حقد قديم يزول او يجب ان يزول ، وهو يلوم يونس لانه اخذ منه فاطمة وهدده ، ولما ظن انه لن يعود لفاطمة خشية غضب ابيه ، اذا به يتزوجها . كان يونس ينافسه فى تحدى الناس ، كان يقول له انه ليس مغفلا كما كان يظن ، بل هو شجاع وجرىء ، وانه حصل على فاطمة بتفوقه على سيد فى الشجاعة والجراة . كان سيد يظن انه يستغل يونس ، فاذا بيونس هو الذى يستغل سيد . لقد وصل الى فاطمة بتهديده لسيد ، حصل على جسدها ، لانه لوح بايذاء سيد وسجنه . وحرمه من نقود كثيرة تساعده فى الحصول على فاطمة ، فرفض شراء السيارة ، واقنع والده بأن يفحصها ، لابد انه قال لابيه انه لا يثق فى سيد ، ولقد اضطر الى فك السيارة بعد ان وجد النائب العام بطارده ليسأل متى يفحص رجال العقيد رأفت مونور السيارة .. قال له :

— السيارة اخذها صاحبها وسافر الى الصعيد يا سعادة الباشا .. ولا ادرى ماذا حدث له ؟

وبعد ايام كان العقيد رأفت يطلب سيد العتر .. ويسأله عن السيارة .. اين ذهبت ، ومن صاحبها ، وما اسمه .. وسيد لا يعرف اسم صاحبها .. انهم ينادونه المعلم بهنسى .. هذا هو ما يعرفه ، كيف يأخذ سيارة ويركبها من رجل لا يعرفه ولماذا يأتمنه هذا الرجل وليس بينهما سابق معرفة .. كان العقيد رأفت يحاصره بالاسئلة .. وحلقات الاتهام تضيق ..

حتى قال له العقيد رأفت :

ــ السيارة اوصافها تنطبق على اوصاف سيارة مسروقة من شارع كفر عبده منذ شهرين .

قال سيد مدافعا عن نفسه .

ــ وهل انا مجنون حتى اذهب بسيارة مسروقة الى سعادة الباشا ليشنقنى .

لم يصدقه العقيد رأفت تماما . فعبد الحميد صفوت اخبره ان السيارة اختفت بعد ان طلب فحص محركها . وهذا دليل على أن سيد العتر كان يعرف انها مسروقة . ومع ذلك ، لن يثير العقيد رأفت الأمر الى ابعد من هذا ، لانه لا يملك دليلا ملموسا، والسيارة غير موجودة . ولن تكون هذه القضية التى يدخل فيها النائب العام ، هى القضية المناسبة التى يتم فيها القبض على سيد العتر .

وأدرك سيد انه مراقب ، وان اية محاولة لاستئناف نشاطه الليلى سوف تعرضه لخطر محقق . وبعد احالة النائب العام الى المعاش سقطت الدعامة التى كان يستند اليها سيد ، الأيام لم تعد هى الايام . والكل يجد ما يحصل عليه فى هذه الدنيا الا هو .. والمال يشح بين يديه ، ومنيرة لم تعد تعتمد عليه ، ولو استمر الحال على ما هو عليه ، فلن تكون للحياة معنى . وعليه ان يتدبر امره ، لانه لن يقبل الهزيمة ، ولن يستسلم .

وكان سيد قد تودد الى عبد الحميد صفوت فى محاولة

الاحتفاظ بعلاقة طيبة معه ، خشية ان يثير العقيد رأفت قضية السيارة التى كان سيشتريها سعادة الباشا النائب العام .. وذهب سيد مع احد التجار المهتمين بتهريب بضائع فى الجمرك . وقابل عبد الحميد صفوت وهو محام اثناء وجوده بفندق سيسل ليترافع فى قضية أرسلها له الحاج مرسى فرج .

وجلس سيد مع التاجر فى حجرة عبد الحميد صفوت ، وشاهد سيد التاجر وهو يعطى للأستاذ خمسمائة جنيه مقدم اتعاب . وشرب مع الباشا الذى كان نائبا عموميا القهوة ، وتبادل معه الحديث ، كأى زبون يتحدث مع محاميه .

وحدث اثناء تلك الجلسة ان قال سيد لعبد الحميد صفوت :

ــ نفسى اخدمك ياسعادة الباشا ..

قال عبد الحميد بامتنان :

ــ اشكر لك هذا الشعور .. ياسيد ..

فقال سيد بحماس :

ــ لا تشكرنى يا باشا .. قل ما الذى تريده .. وانا افعله ..

قال الباشا وهو يتنهد ويزفر انفاسا ضجره ..

ــ الانسان يريد .. ولكن مشيئة الرحمن فوق ارادة البشر ..

قال سيد :

ــ بصراحة ياباشا .. اريد أن افتح معك موضوعا .. لا ادرى كيف أبدا فيه .

نظر اليه عبد الحميد نظرة حزينة . كان يعرف ما الذى يعنيه سيد ، ولكنه عاجز عن ان يقول شيئا .

فقال سيد :

ــ ما رأيك ياسعادة الباشا .. لو خلصت ابنك من الورطة التى وقع فيها .

قال عبد الحميد بلهجة آلية ، حزينة ، وهو يزفر هواء ثقيلا من صـــــدره :

ــ ياريت . . .

ولمعت عينا سيد ، ولمح فيهما النائب العام ، المحقق الذى واجه فى حياته بالنيابة والقضاء مئات المجرمين . شيئا لم يسترح له . .

فسأل ســيد :

ــ ما الذى تعنيه ياسيد ؟

وفتح ســـيد فمه ليتكلم . فاذا بعبد الحميد صـفوت يرفع يده ، وقد أصابه ذعر مفاجىء وهو يقول بانفعال :

ــ لا تقل لى شيئا .. ياسيد .. لا تقل شيئا .

قـــال ســـيد :

ولكنك حزين ياسعادة الباشا ..

همس عبد الحميد :

ــ هذه مشيئته ..

قال ســـيد فى اصـــرار :

ــ اعدك يا باشا .. بأن تعود الفرحة الى قلبك .. ويومها ستكون لى الحلاوة باذن الله ..

وابتسم عبد الحميد صـفوت . وكأنه نسى المخاوف التى حدثها بها قلبه ، وكاد ان يراها فى عينى سيد العتر عندما بدا معه الحديث عن يونس وفاطمة .

عندما سمع سيد أوامر طلعت . قال لنفسه ، ها قد واتتك الفرصة ، فلما عاد الى طلعت ومعه رد يونس ، بانه يعتقد ان زوجته لن تفرط فى ابنتها ، وانه استشار العارفين بالقانون ، فوجد أن من حقها الاحتفاظ بحضانة ابنتها . وجد فى ثورة طلعت كل ما يشتهيه . ومضت أيام ثم استدعاه طلعت وقال له ..

ــ اسمع ياسيد .. اذهب .. واحضر محاسن ..

قال سيد وهو يفكر فى أن يونس مازال فى المعسكر بعيدا عن بيته :

ــ واذا اعترضت أمها ..

ــ لا يهمك .. فاطمة بنت زكريا .. لن تقف فى طريقنا .. اضربها .. وخذ منها البنت ..

ــ واذا صــــرخت ..

صاح طلعت :

ــ اكتمها .. وخذ البنت .

قال سيد :

ــ وتحمينى ..

قال طلعت :

ــ من يجرؤ على اعتراضك ؟

قال ســـيد :

ــ زوجها .. يونس سوف يعود ويعرف ..

قال طلعت وهو يبصق :

ــ يونس هذا .. امــــراة .. ان ما اطلبه منك .. هو ما اريده .. ويريده ابى ..

قال سيد مكملا :

ــ وهو ما يريده ايضا ابوه ..

صاح طلعت :

ــ ماذا تنتظر .. ساعطيك ما تريد ..

وخرج سيد ، ولكنه لم يذهب الى فاطمة ، كان يريد ان يخلو نفسه ويفكر بهدوء ، لقد طال شوقه لان يفعل شيئا يثبت به وجوده .. وهو الآن يستطيع ان يدخل على فاطمة ، وهو مستند الى قوة هائلة . لقد حصل على موافقة الاب . الذى لم يعترض وهو يقول له انه سـيخلص ابنه من ورطته ، وها هو طلعت وأبوه الحاج مرسى فرج يريدان ابنتهما ، وسيقف الجميع

معه ، وسيدافعون عنه . سيأخذ محاسن عنوة ، وإذا قاومته فاطمة فسوف ينهرها ، لن يترك لها فرصة للصياح كما حدث فى المرة السابقة ، سوف يكتم أنفاسها ، وسوف يغتصبها . فهذا هو الضمان له . لانها لن ترفع راسها بعد ذلك قد تنتحر ، قد تذهب الى منير . ولكنها لن تقول إبدا ان سيد اغتصبنى . اذا عرف يونس ، لن يهلل ويزعق ويقول للناس ان زوجته اغتصبت ،

نظر سيد الى ساعته ، وقرر ان مازال امامه بعض الوقت ، ليشرب زجاجتين بيرة قبل ان ينفذ مهمته وهو لا يدرى ان هذا التاخير سيكون سببا فى المأساة وشيكة الوقوع .

بعد ان خرج سيد العتر من عند طلعت جاء الحاج مرسى يزوره فى مكتبه .

وقال له ان سارة شقيقة يونس مخطوبة الى مهندس يرجو عبد الحميد صفوت تعيينه .. وأن الحاج وعد بان يتوسط لدى طلعت ليقبل هذا التعيين .

شتم طلعت بكلمات بذيئة . وفجأة صاح :

— انهم يشحتون الوظائف .. وأنا سأملى شروطى .

وطلب طلعت ، يونس فى المعسكر ..

وسمع يونس صوت طلعت يزعق .

— اريد البنت ..

قال يونس :

— هذا أمر متروك لأمها ..

صاح طلعت :

— وحياة أمك انت .. البنت لابد وأن تعود الى ..

قال يونس :

— المسألة ليست بالقوة ..

قال طلعت مهددا :

— اسمعنى جيدا يا ابن زهيرة .. مصير شقيقتك فى يدى زوجها يعمل عندى .. وزوجتك ليست اكثر من خادمة رهن اشارتى ..

صاح يونس فى هياج :

— اخرس .. يا قليل الادب ..

قال طلعت ساخرا :

— سترى ..

وانقطعت المكالمة ، وقال كلارك ليونس :

— اذهب فورا الى زوجتك .. ان طلعت بعد هذا التهديد سيتحرك بسرعة ..

دق جرس الباب ، وفتحته فاطمة لتجد امامها سيد العتر .

قبل ان تفتح فمها بكلمة ، كان قد عاجلها بلكمة واسقطت مغشيا عليها . وكانت محاسن تصرخ ، وتردد سيد لحظة بين إختطاف محاسن فى الحال ، واطفاء رغبته فى الجسد الملقى أمامه ، وقبل ان يتخذ قراره ، راى يونس يهاجمه ، لم يتردد لحظة واحدة فى اخراج مطواه من جيبه وغرسها فى صدر يونس فلما رآه يهوى الى الأرض ، انطلق هاربا لا يلوى على شىء ..

فى تلك اللحظة ، وبينما دماء يونس تسيل ، كانت فاطمة تفيق لترى يونس ملقيا على الأرض ، مضرجا فى دمائه ، جسده يرتعش رعشة الاحتضار وهى عاجزة عن الفهم ، عاجزة عن الصراخ ، عجازة عن الحركة .

فى تلك اللحظة ، وبينما دماء يونس تسيل ، كان عبدالحميد صفوت النائب العام السابق ، يقول للمهندس سمير الساحر انه واثق أن الحاج مرسى فرج سيكون عند وعده ، وأن طلعت عاد ، وسوف يسافر الى الاسكندرية ويذكر الحاج بوعده .. وكانت سارة تنظر الى سمير نظرات ظاهرها الاستسلام ، وباطنها الاحتقار فى انتظار لقاء قادم مع طلعت لتنتقم .

فى تلك اللحظة وبينما دماء يونس تسيل ، كان الحاج مرسى يقول لطلعت ، انه تحدث مع يونس برعونة . وان التعامل مع الضعفاء لا يكون بالعنف ، فاللين والعطف تأثيرهما اكبر وعائدهما أفضل من الخشونة والعنف . وكان طلعت يقول لأبيه ، انه لا يطيق رخامة الضعف ، وبلادة العجز وانه لا يتحمل أولئك الذين يتلكأون ويضعون العقبات ويضيعون الوقت فيما لا طائل من ورائه .

فى تلك اللحظة وبينما دماء يونس تسيل ، شعرت الحاجة زهيرة بألم حاد فى صدرها ، واطلقت آهة وصـــــاحت تطلب من الخادمة كوب ماء لتبتلع قرصا مهدئا بدات تجربه صباح اليوم فى تلك اللحظة وبينما دماء يونس تسيل ، كان مســـــتر كلارك يحدث نفســه بانه غير واثق ان لدى يونس من القدرات ، ما يستطيع بها أن يدافع عن نواياه .

وكانت دماء يونس مازال تسيل ، حينما اطلقت فاطمة صرخات الهول وأرتفع صياحها فى الحى ان قتلتموه يا مجرمين ..

(تمت)

رقم الايداع بدار الكتب
٩٦/٨٣٤٨
I.S.B.N.977-01-4910-1